دكتور محمد أبو المحاسن عصفور
أستاذ بجامعة بيروت العربية

المدن الفينيقية

١٩٨١





دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩

المدن الفينيقية

دكتور محمد ابو المحاسن عصفور
أستاذ بجامعة بيروت العربية

١٩٨١

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

مقـدّمـة

تمتعت بعض مدن الشرق الأدنى بشهرة واسعة في فترات مختلفة من تاريخها القديم نظراً لما كان لها من مكانة سياسية أو دينية، فبعض هذه المدن كانت تمثل وحدات سياسية أو تشكل دويلات مدن تتصارع فيما بينها من أجل الزعامة أو فرض النفوذ والسيادة على غيرها، ولعل مدن سومر القديمة مثل أور ولجش والوركاء وغيرها خير دليل على ذلك - ومن المدن التي اشتهرت في التاريخ كذلك تلك التي كانت تمثل عواصم الدول الكبرى مثل منف وطيبة في مصر وبابل وأكد وآشور ونينوى في بلاد النهرين وخاتوساس في آسيا الصغرى وبرسبوليس في إيران وغيرها، وكانت شهرة هذه المدن بالطبع تستند في أساسها إلى تعاظم قوة الدول التي تنتمي إليها.

وإلى جانب تلك المدن التي استمدت شهرتها من مكانتها السياسية كانت هناك مدن أخرى تستند في شهرتها إلى مركز ديني كان يرجع في أغلب الأحيان إلى ما توارد من أساطير حولها، ومن أمثلتها هليوبوليس (أون) وطيبة في مصر ونيبور في بلاد النهرين وغيرها.

وربما كان استناد مدن الشرق الأدنى القديم في شهرتها إلى مكانتها السياسية أو الدينية هو الشائع في تاريخها القديم. ولم يشذ عن ذلك إلا المدن الفينيقية التي تمثل حالة فريدة في ذلك الإقليم، فقد استغلت ظروف بيئتها أحسن استغلال ونالت شهرة عريضة لم تستند إلى مكانة سياسية أو دينية، كما أن من الغريب أن المدن الفينيقية الشرقية الأصيلة لم تلعب دوراً فعالاً في السياسة الدولية كالذي فعلته المدن الفينيقية الغربية الوليدة - وربما كان السبب في ذلك يرجع إلى أن المدن الفينيقية الشرقية كانت في طريق الدول

التي ظهرت كقوى كبرى في الشرق الأدنى القديم ولم تتهيأ لها الفرصة كي تصبح في مصاف هذه القوى بل وكثيراً ما وقعت تحت سيطرتها أما المدن الفينيقية الغربية وخاصة قرطاجة فقد نمت وترعرعت بعيداً عن مواطن الصراع في الشرق الأدنى حتى أصبحت أكبر قوة في حوض البحر المتوسط وظل الأمر كذلك إلى أن ظهر اليونان ومن بعدهم الرومان ودب التنافس بينها وبينهما على السيادة على حوض البحر المتوسط إلى أن قضى الرومان عليها نهائياً.

ومهما يكن من أمر هذه المدن الفينيقية سواء الشرقية منها أو الغربية فإن شهرتها كانت تعتمد في أساسها على نشاطها الاقتصادي الذي هيأ لها مكانة تجارية مرموقة بين أقطار العالم القديم، ففي الوطن الأصلي (المدن الفينيقية الشرقية) توافرت الأشجار الجيدة الأخشاب التي كانت محببة لدى الأقطار المجاورة من جهة والتي صنع منها الفينيقيون سفنهم التي ساعدتهم على ركوب البحر من جهة أخرى، كذلك فإن توصلهم إلى استخراج أصباغ جيدة لمنسوجاتهم من الأصداف ومن بعض الديدان التي كانت تكثر على الأشجار قد جعل الشعوب المجاورة تتهافت عليها وشجعهم ذلك على التجوال في البحر والتوغل فيه ثم اتجهوا إلى انشاء مراكز تجارية لهم تطورت فيما بعد إلى مستعمرات تجارية تعاظم شأنها حتى فاقت إحداها (وهي قرطاجة) الوطن الأم.

وما من شك في أن ازدهار تجارتهم ونجاحهم في تبادلهم التجاري مع مختلف الجهات قد أثار فيهم حب المغامرة للوصول إلى أسواق جديدة والبحث عن سلع مرغوبة فلم يقتصروا على الاتجار في منتجاتهم بل تبادلوا مختلف السلع مع الأقطار الأخرى، وقد جعلهم تنقلهم بين مختلف الأقطار رسل حضارة ينقلون مظاهرها بين قطر وآخر كما تأثروا بثقافة البلدان الأخرى وأثروا فيها، وحتى في أوقات ضعفهم لم تفقد المدن الفينيقية أهميتها أو يتضاءل شأنها من الناحية الحضارية إذ أنها تركت بصماتها في التاريخ أكثر من غيرها من مدن الشرق الأدنى القديم فإليها ترجع أرقى أساليب الاستعمار الاقتصادي وإليها يرجع اختراع الكتابة بحروف هجائية راقية وهي من أهم أسس الثقافة الحديثة حيث انتقلت منها إلى اليونان ومنها إلى العالم الحديث.

ورغم ضخامة الدور الحضاري الذي قامت بـه المدن الفينيقيـة فإن تاريخها توجد به كثير من الفجوات ولا يمثل سلسلة متكاملة الحلقات، فضلاً عن أن كثيراً من أحداث هذا التاريخ أمدتنا به مصادر أقطار وأمم أخرى، ولذا فليس من الهين جمع شذرات الأحداث التاريخية التي وصلتنا عن هذه المدن في إطار تاريخي متكامل ولا يمكن أن نتبين منها بوضوح ضخامة الدور الذي لعبته في حضارات العالم القديم؛ ولا يمكن أن أدعي والحالة هذه أنني وافيت تاريخ المدن الفينيقية حقه تماما ولكن حسبي أنني حاولت قدر الإمكان والله ولي التوفيق.

د/ محمد أبو المحاسن عصفور

محتوى الكتاب

قائمة بالأشكال

تمهيد

استعمل المصري القديم كلمة «فنخو»[1] منذ عهد الدولة القديمة[2] للدلالة على شعب من سكان الاقليم السوري[3] ، كذلك ورد اسم الفينيقيين (Phoivikes) كشعب ، واسم فينيقيا (Phoivikn) كبلاد (أو منطقة) في كتابات اليونان منذ أيام هومير أو قبل ذلك [3] حيث استعمل لفظ فينكس (Phoiviex) كدلالة جنسية وإن كان أصلاً يعني اللون الأحمر القاتم أو الأرجوان أو اللون البني الذي وصفت به النخيل أو الجماعات الكنعانية ذات البشرة التي لونها بني . ولذا يرى بعض الباحثين أن اليونان أستخدموا هذا اللفظ كدلالة جنسية أطلقوه على الفينيقين لشهرتهم في صياغ المنسوجات بهذا اللون والا تجار فيها - على أننا نرجح بأن اليونان استعملوا الكلمة المصرية « فنخو » بعد تحريفها الى (Phoivikes) للدلالة على فينيقيا و (Phoivikn) للدلالة على الفينيقين - كما أن الرومان بدورهم أطلقوا لفظ بوني (Poeni) للدلالة على القرطاجيين وغيرهم من المثليين لهذا الشعب في غرب البحر المتوسط وهو لفظ محرف لاتينياً من اللفظ اليوناني ، ومع ذلك فقد فرقوا بينهم وبين الفينيقين في الشرق حيث

---

(١) A. Erman and H. Grapow, Wöerterbuch der ägyptiseh sprache, B1, p.577

(٢) الدولة القديمة في مصر يقصد بها فترة حكم الاسرات الستة الاولى من ٣١٠٠ ± ١٥٠ الى ٢١٨٤ ق . م . أو من الاسرة الثالثة الى السادسة حسب مختلف الاراء انظر كتاب المؤلف « معالم تاريخ الشرق الادنى القديم » ص ٩٨ (بيروت ١٩٧٩) ومن المؤكد أن كلمة « فنخو » ظهرت في عهد الاسرة الخامسة .

(٣) الاقليم السورى بمعناه الشامل حسب الاصطلاح اليوناني هو الممتد بين جبال طوروس شمالاً وسيناء جنوباً وبين البحر المتوسط غرباً والبادية وبلاد النهرين شرقاً .

أطلقوا على هؤلاء اسم فوينيقي (Poenices) وإن كانوا يعترفون بانتمائهم الى جنس واحد .

ورغم أن النصوص الاكدية وبعض النصوص المصرية بل والفينيقين أنفسهم استخدموا لفظ كنعان للدلالة على البلاد التي استوطنوها ولفظ الكنعانيين للدلالة على أهلها ؛ فإن اليونان والرومان لم يستعملوا الاسم «الكنعاني» ومشتقاته في أي صورة من الصور(١)، بينما استعمل لفظ «كنعان» للدلالة على موطنهم في الكتاب المقدس(٢).

ويجمع المؤرخون على أن الكنعانيين وفدوا الى الأقليم السوري من بلاد العرب في هجرة واحدة مع الأموريين في حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد حيث أخذ الأموريون يتجولون في شمال سورية ثم استقر بهم المقام في أواسط حوض الفرات بينما أستقر الكنعانيون على الساحل واشتهروا فيها بعد باسم الفينيقيين، ونظراً لما عرف عنهم من مهارة في الملاحة فإن بعض الباحثيين يرى أنهم جاءوا أصلاً من مكان ما في شبه جزيرة العرب يطل على البحر حيث اكتسبوا هذه المهارة مثل سواحل البحر الأحمر أوالخليج العربي قبل أن يفدوا الى الساحل السوري(٣) ، غير أنه من الممكن - من جهة اخرى - أن يكونوا قد جاءوا من منطقة بعيدة عن البحر ثم اكتسبوا مهارتهم البحرية في منطقة استيطانهم الجديدة على الساحل السوري نتيجة تطور طبيعي، وربما يكون وفود جماعات أخرى الى نفس المنطقة قد زاد من الضغط عليهم وعدم قدرتهم على الانتشار في المناطق المجاورة فأدى ذلك الى اتجاههم الى البحر ، أي أن هذه المهارة البحرية التي اكتسبوها كانت نتيجة لظروف جغرافية وسياسية ولا تدل على موطن أصلي ذو مظاهر جغرافية معينة .

---

(١) Donald Harden , (The Phoenicians) , (New york 1962) p.22

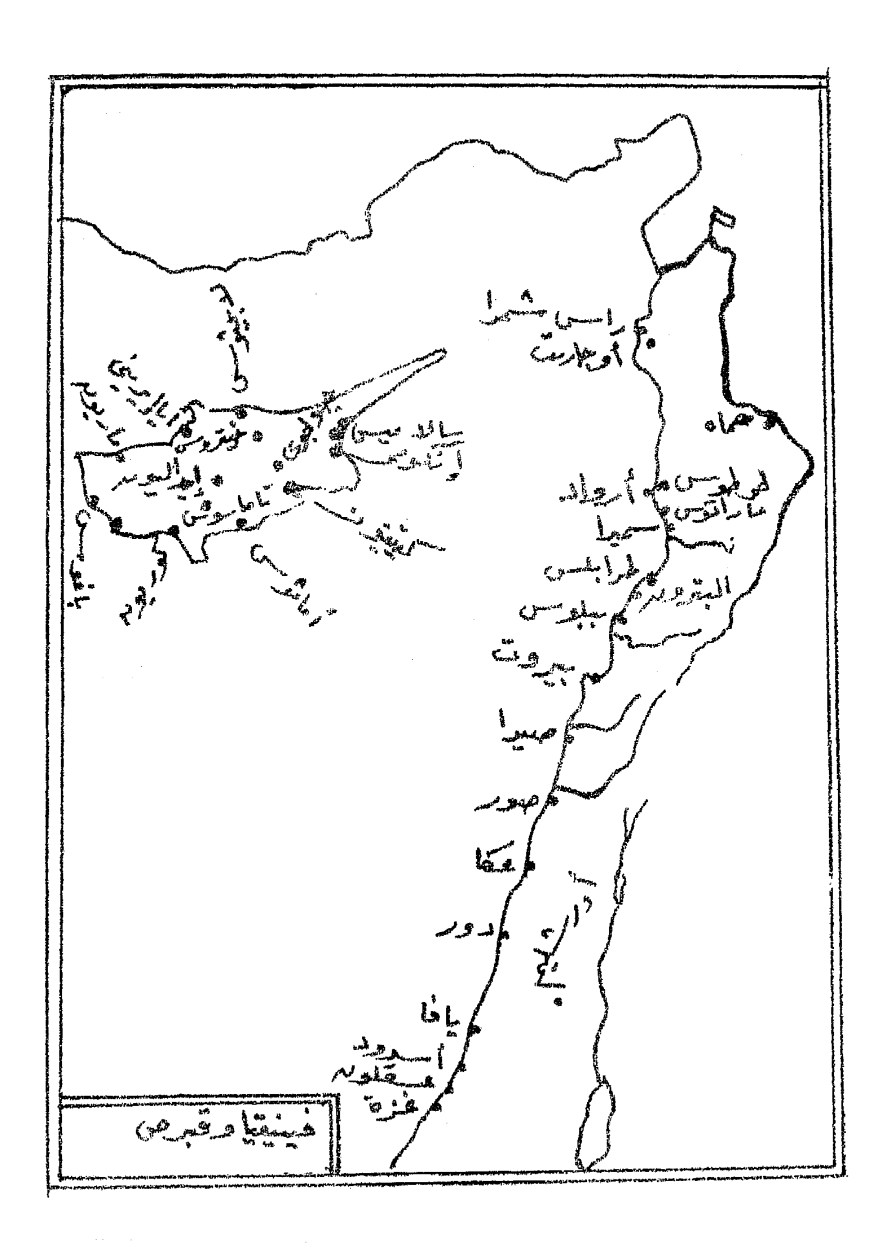
(٢) انجيل متى ٢٢/١٥ ، انظر كذلك التكوين ١٠/١٥ ، أشار الكتاب المقدس أيضاً الى الصيد ونيين للتعبير عن الفينيقين .

(٣) ربما تأثر بعض الباحثين بما ذكره هيرودوت من أن الفينيقين جاءوا من الخليج العربي (الفارسي سابقاً) انظر Herodotus I, 1 and VII, 89 بينما يرجح البعض الآخر انهم جاءوا من ساحل الاحساء بالذات .

وليس من السهل ، كذلك ، تحديد منطقة استيطان الفينيقيين على الساحل تحديداً دقيقاً ، فقد اختلف الباحثون في ذلك رغم أن الاماكن التي عثر على آثار لهم فيها معروفة - وربما يرجع ذلك الى أن مدى انتشار هذه الاثار كان يختلف في العصور المختلفة ويفهم من ذلك أنهم لم يمثلوا في بعض المناطق في بعض الاحيان اوأن نفوذهم كان ينحسر عنها ، غير أن غالبية الباحثين يجمعون على أنهم في أزهى عصورهم كانوا ينتشرون في سهول الساحل الشرقي للبحر المتوسط وبعض المناطق الداخلية القريبة في مساحة تمتد ، على الأقل ، من أرواد شمالاً الى جبل الكرمل جنوباً - أي نحو الثلث الأوسط من الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، وعلى ذلك يمكن اعتبار لبنان الحالية تمثل الجزء الأكبر من المنطقة التي استوطنوها[1] .

ومما لا شك فيه أن ما كشف عنه من تلك الآثار أصبحت المصدر الرئيسي لمعلوماتنا عنهم بالاضافة الى ما عثر عليه من آثار البلاد الاخرى التي تشير اليهم رغم أن الجهود الاثرية في منطقة الشرق الادني بصفة عامة لم تبدأ إلا في وقت متأخر عنها في مناطق أخرى.

(١) انظر الخريطة رقم ١ .


رأس شمرا
أوجاريت
حماه
أرواد
ماراتوس
سميرا
طرابلس
البترون
بيبلوس
بيروت
صيدا
صور
عكا
دور
يافا
أسدود
عسقلان
غزة
سالاميس
إنكومي
تاماسوس
كيتيون
أماثوس
كوريوم
بافوس
فينيقيا وقبرص

الجهود الأثرية في المواقع الفينيقية

لم يعرف العالم شيئاً عن تاريخ فينيقيا سوى ما ورد في كتابات اليونان والرومان حتى القرن السابع عشر - وبعدئذ أخذت الشعوب المتحضرة تهتم بدراسة الحضارات القديمة وآثارها ، وفي خلال ذلك القرن كان الرحالة قد تناولوا هذه الآثار بالوصف فلم يضيفوا إلا معلومات ضئيلة متفرقة عن تلك الحضارات .

ومنذ أن نجح شامبليون في قراءة الهيروغليفية المصرية في أوائل القرن الماضي أخذ الاهتمام بدراسة الحضارات القديمة يزداد وأقبل الرحالة على زيارة آثارها ونشطت البعثات العلمية في التنقيب عنها ودراسة كل ما يتعلق بها - ولم تسفر هذه الجهود عن العثور على وثائق تشير اليى تاريخ الفينيقين في جزء كبير من تاريخهم، وخاصة في العصور الاولى منه ، بينما أمدتنا رسائل تل العمارنة[1] التي ترجع الى منتصف الألف الثاني ق . م . بمعلومات عن جيران مصر ومن بينهم الفينيقيين الذين كانت لها بهم علاقات في ذلك الوقت ، كما أمدتنا النصوص التي عثر عليها في رأس شمرا (وترجع الى أوائل القرن الرابع عشر ق . م .) بمعلومات عن عقائدهم الدينية - وترجع الى الألف الأول قبل الميلاد نصوص أشورية ومصرية بالأضافة الى بعض النقوش الفينيقية التي تلقي بعض الضوء على تاريخهم .

---

(١) هي عبارة عن مكاتبات بين مصر ودول الشرق الأدنى خلال عصر الدولة الحديثة في مصر محفوظة في أرشيف عثر عليه بالقرب من قرية تل العمارنة في مصر الوسطى .

وقد لعبت الصدفة أحياناً دوراً فعالاً في العثور على بعض الآثار الفينيقية، ففي سنة ١٨٥٦ انهار جزء من تل صغير بالقرب من صيدا ونجم عن ذلك ظهور قبر في أسفل الجزء المنهار وبداخله تابوت على شاكلة التوابيت المصرية وعلى غطائه نقش فينيقي طويل تبين أنه لأحد ملوك صيدا .

وحينما قام الدروز بثورة عجز الباب العالي عن قمعها وجهت اليهم حملة فرنسية سنة ١٨٦٠ بحجة حماية المسيحيين، واتبعت فرنسا في هذه الحملة نفس الاسلوب الذي اتبعته في حملة نابليون الى مصر حيث زودتها ببعثة من العلماء كان من بينهم رينان الذي كان يعد في مقدمة الباحثين في تاريخ الساميين ، وقد قام هذا بحفائر تركزت في أربعة مناطق كانت معروفة في ذلك الحين على أنها المراكز الرئيسية في تاريخ الحضارة الفينيقية وهي من الشمال الى الجنوب :

- أرواد وطرطوس وعمريت (ماراتوس) .
٢ - جبيل .
٣ - صيدا .
٤ - صور .

وقد نقل رينان كثيراً من الاثار الظاهرة على سطح الأرض والآثار التي عثر عليها في تنقيباته الى متحف اللوفر.

ومما يدعو الى الأسف أن أعوانه لم يقدروا تماماً قيمة الآثار التي كانوا يعثرون عليها فيهملون الكثير منها وخاصة الفخار، مع أن هذا الاخير من أهم ما يعتمد عليه الباحثون في التوصل الى كثير من الحقائق عن تاريخ المناطق التي يعثر عليه فيها بصفة عامة .

كذلك لعبت الصدفة دورها أيضاً في الاكتشافات التي تمت في صيدا أيضاً، فبينما كان أحد الفلاحين يحرث ارضه سنة ١٨٨٧ في مكان الى الشرق من صيدا قرب قرية الهلالية إذا بمحراثه يغوص في الأرض ويختفي في فتحة بئر مقبرة انشقت عنها الأرض ، فحضر الى المكان « حمدي بك » مدير المتحف الامبراطوري العثماني حينئذ وأسفرت أبحاثه عن مقبرة ذات طابقين أولهما على

عمق عشر أمتار ، وبالرغم من أنه كان قد تعرض للنهب إلا أن مدير المتحف وجد به سبعة عشر تابوتاً ليست بسبعة منها أية نقوش ، أما الطابق الثاني فكان سليمًا عثر به على توابيت منقوشة ومن بينها تابوت عليه نقش يدل على أن الملك « تابنيت أبو اشمونزر» هو صاحب المقبرة ،[1] وتابوته من طراز مصري - وقد وجدت معه توابيت أخرى من عصور متأخرة وهي من رخام أبيض وذات طابع يوناني . وقد عثر « حمدي بك » أيضاً عند قصر صيدا على شواهد جنزية منقوشة بنقوش ملونة ذات طابع يوناني كما عثر على توابيت من طـرز مختلفة وعلى أواني وفيرة .

وبينما كان بعض الاهالي يهدمون حائطاً شمال صيدا (في بستان الشيخ) سنة ١٩٠١ عثروا داخل الحائط على أحجار منقوشة بنقوش فينيقية - ثم اشترك حمدي بك مع بعثة المانية في التنقيب في هذا المكان وأسفرت جهودهم عن الكشف عن معبد[2] يرجع الى أحد الملوك من سلالة «تابنيت واشمونزر» . ثم قامت بعثة فرنسية بالحفر حول صيدا في أماكن مختلفة أسفرت جهودها عن آثار من عصور مختلفة تمتد الى حوالي القرن الثامن عشر ق . م . وفيما بين ١٩١١ - ١٩٢٣ م أسفرت عن الكشف عن آثار قيمة من العصر اليوناني الروماني .

وفي سنة ١٩١٤ كلفت الحكومة الفرنسية المسيو كونتنو بالحفر في صيدا وما حولها بالاشتراك مع المتحف الامبراطوري العثماني ولكن العمل توقف بسبب الحرب العالمية الاولى ثم استؤنف بعد ذلك في سنة ١٩٢٠ ، وأسفرت التنقيبات عن الكشف عن آثار من عصور مختلفة .

كذلك نجد أن « مونتيه » حينما زار جبيل رأى الاهالي يعثرون على قطع أثرية نقشت بعناصر زخرفية أوكتابات هيروغليفية ، فبدأ يوالي حفائره في دائرة المدينة ابتداء من سنة ١٩٢١ وتبين له من نتائج حفائره أن بيبلوس (جبيل)

---

(١) يرجح أن أشمونزر المقصود هنا هوأشمونزر الثاني - أنظر فيما بعد ص٥١ .
(٢) معبد أشمون الاله الفينيقي الذي يماثل الاله ادونيس اليوناني .

كانت ذات صلة وثيقة بمصر الى الألف الأول ق . م . كما تبين له أن آثار العصر اليوناني الروماني تعلو آثاراً تنتمي الى عصر القرنين السادس عشر والسابع عشر ق . م . باستثناء آثار قليلة من فترة تالية تنتهي بالقرن الثاني عشر ق.م – أما الفترة الواقعة بين القرن الثاني عشر ق.م والعصر الهلليني فقد هجرت فيها المدينة كما تبين له أن المدينة نكبت في آخر الألف الثالث بحريق هائل أثر في مباني لمعبد يرجع الى أول الالف الثالث ق . م . وفي سنة **١٩٢٤** كشفت احدى البعثات في مكان قريب عن اثنتي عشر قبر وجدت سليمة أضافت الى معلوماتنا عن تاريخ فينيقيا بعض الحقائق.

ومنذ سنة **١٩٢٩** قام الاستاذان « شيفر » و « شينيه » بالتنقيب في رأس شمرا ، ومع أن التنقيبات الأثرية ظلت مستمرة في هذا الموقع الى سنة **١٩٣٩** الا أن قسمًا كبيراً منه لم ينقب فيه بعد ، غير أن ما عثر عليه فيه يكفي لتكوين فكرة عامة عن خصائصه إذ يبدو في آثاره ما يدل على وجود مؤثرات خارجية مصرية وحيثية وايجية وحورية ، ولا تقتصر هذه المؤثرات على منتجات اجنبية أستوردت من الخارج أو منتجات محلية تحاكي تلك المنتجات الاجنبية بل وتبدو هذه المؤثرات أيضاً في بعض العادات التي أقتبسها أهلها من شعوب اخرى – أما عن التنقيب في قرطاجة فقد ساهم فيه عدد كبير من العلماء جاءوا في بعثات رسمية تحت إشراف ادارة الآثار التونسية .

والى جانب هذه المراكز الرئيسية تشير النصوص الى اكثر من عشرين مدينة أوقرية ربما كان بعضها لا يمثل الا بقاع استيطان صغيرة أو محلات قليلة السكان .

وكان لوقوع الوطن الفينيقي الرئيسي في شرق البحر المتوسط بين آسيا وأفريقيا أثره وخاصة عند ظهور دول قوية في أقليم الشرق الادنى إذ كان سهل الاجتياز نسبياً وتحرص الدول القوية على ضمه اليها تأميناً لحدودها ضد الجيران من جهة ولاستغلال موارده من جهة أخرى ، أي أنه كان من العسير أن ينأى عن الصراعات التي تنشأ في هذا الاقليم وأن يحافظ على كيانه أوأن يظل منطقة محايدة .

تاريخ الوطن الفينيقي

كان هذا الوطن آهلا بالسكان منذ أقدم العصور، وكان استيطانهم في أول الأمر بالطبع في السهول القريبة من الأنهار والمجاري المائية أو المدرجات النهرية . وقد عثر على آثار من العصر الحجري القديم بجوار نهر الجوز (شمال البترون)، وعند نهر ابراهيم،نهر الكلب، بيروت (فرن الشباك، بير حسن ، صخور الحمام ، ونهر بيروت) ، جبيل (بالكهوف في سفوح التلال) ، خالدي ، صيدا وفي الحاجز الصخري في قصر عقيل ، قرب انطلياس - وربما يعثر على آثار من نفس العصر في بقاع أخرى- وقد استخدم انسان هذا العصر في أقدم مراحله الآت حجرية تمثل فئوسا يدوية خشنة تعرف الفترة التي استخدمت فيها باسم الحضارة الابفيلية(١) وهي عبارة عن

(١) للتعرف على تاريخ الانسان قبل معرفة الكتابة رتبت العصور التي عاش فيها هذا الانسان على أسس حضارية مختلفة وأشهرها التقسيم الذي بني على أساس المواد التي صنع منها الاته في كل عصر كالآتي :

١ - العصر الحجري
٢ - عصر البرونز
٣ - عصر الحديد

واصطلح على تقسيم العصر الحجري الى :

(أ) العصر الحجري القديم
(ب) العصر الحجري المتوسط
(ج) العصر الحجري الحديث

وقد قسم العصر الحجري القديم بدوره الى: عصر حجري قديم اسفل وقد تميز بمرحلتين هما مرحلة الحضارة الابفيلية (أو الشيلية) ، مرحلة الحضارة الاشولية .

وعصر حجري قديم أوسط وتميز بالحضارة الليفالوازية - الموستيرية - ، وعصر حجري قديم أعلى وتميز بحضارات ثلاث هي :الاورينياسية والسولترية والمادلينية .

أحجار صوانية يمكن القبض عليها ولكنها خشنة كبيرة الحجم يختارها الانسان البدائي كسلاح له . وقد يهذبها قليلا أو يستخدمها دون تهذيب - ثم استخدم فيها بعد الآت أكثر تهذيبا تميل إلى الشكل الثلاثي في مرحلة الحضارة الأشولية ، ولا يعرف شيىء عن جنس الانسان الذي عاش في تلك الفترة وأنتج هاتين الحضارتين .

وما أن انتهت هذه الفترة حتى تغيرت الظروف المناخية التي كانت سائدة في العالم القديم واضطر إنسان الاقليم السوري بصفة عامة إلى أن يلجأ إلى الكهوف أو يتخذ ملجأ إذ لم تعد الحياة في السهول المكشوفة تلائمه نظرا لميل الجو الى البرودة وربما كان توصله الى معرفة النار في ذلك الوقت قد أحدث تطورا خطيرا في حياته ، فقد ساعده ذلك على الحصول على الدفء وعلى إخافة الحيوانات المتوحشة لإبعادها عنه وعن الذين يعيش بينهم أو يعولهم كما ساعدته النار على تطوير أسلحته فأنتج أسلحة من رقائق صغيرة من الصوان كان يصنعها من شظايا كتل من الصوان - وربما كان إنسان أوائل هذا العصر من نوع النياندرتال، أي أسلاف الانسان الحديث - وفي نهاية هذه الفترة أخذ الانسان العاقل (Homo sapiens) في الظهور وتفوق على سلفه الذي اختفى تدريجيا إلى أن انعدم وجوده تماماً، وكان ذلك في مرحلة العصر الحجري القديم الأوسط التي انتهت منذ نحو ٨٠,٠٠٠ سنة تقريبا وقد سادتها الحضارة التي تعرف باسم الليفالوازية - الموستيرية .

أما العصر الحجري القديم الأعلى الذي استغرق الفترة التي دامت منذ نحو ٨٠,٠٠٠ إلى منذ نحو ١٠,٠٠٠ سنة مضت فقد انتشرت فيه الات صغيرة تعددت أشكالها وقد كشف عن طبقات سكنية من عصور مختلفة تمثل آثار حضارات متتابعة في قصر عقيل بالقرب من اطللياس ، وهذه الطبقات تمثل مراحل حضارية مختلفة فقد وجدت طبقات بها الات أورينياسية تعلوها طبقات وجدت بها آثار ذات طابع محلي تطور عن هذه الآلات، وبالاضافة إلى هذه عثر على أصداف كثيرة بها ثقوب كبيرة يحتمل أنها كانت تعلق بسيور من الجلد حول الرقبة - وبالرغم من أن الانسان لم يكن قد توصل الى الزراعة في هذه المرحلة الحضارية فقد عثر على رحى من البازلت يرجح أنه استخدمها في طحن حبوب كانت تنمو بريا .

ولم يستمر العصر الحجري المتوسط طويلا ومع ذلك فقد استطاع الانسان خلاله أن يصل الى مرحلة حضارية أكثر تقدما فانتج الآت أصغر حجما و أكثر إتقانا وجمالا : منها ماكان هلالي الشكل ورؤوس سهام ومحتات ومخارز استخدمت للحفر على العظام ، ونظرا لدقة حجمها فقد أطلق عليها اسم الآت ميكروليثية. ويرى فريق من الباحثين أن بعض هذه الالآت كانت تثبت في خشت (ذراع) من الخشب أو العظام لتستخدم كمناجل أو كمناشير ، واستنتج الباحثون من ذلك أن إنسان هذا العصر عرف الزراعة وهكذا خرج عن طور الاعتماد في حياته على جمع القوت عن طريق التقاط الثمار أو الصيد الى طور انتاج القوت ، وربما توصل كذلك الى استئناس بعض الحيوانات كالكلاب والأغنام والماعز وغيرها ، وإن كان غالبية العلماء يرون أن استئناس الحيوان بدأ منذ أن عرف الصيد على الأقل حيث أن بعض الحيوان كان يتبع الانسان كوسيلة سهلة للحصول على الغذاء مما يتركه الانسان أو يلقيه لعدم حاجته اليه مما يلتقطه أو يصيده وخاصة العظام وما يعلق بها من بقايا بعد أن يتناول طعامه من الحيوانات التي يصيدها - أما عن استخدام المناشير والمناجل فلا يعني بالضرورة معرفة الانسان للزراعة وإنما من المحتمل أن تكون الحاصلات الزراعية التي استخدمت في حصدها هذه الأدوات قد نتجت عن زراعة متنقلة أو بدائية أي أن الانسان في هذه الحالة لم يكن منتجا على أي حال ، ومع ذلك يمكن تأكيد أنه غير في أسلوب حياته وأصبح أكثر حضارة وتقدما واتسع أفق معارفه ، وما دام الأمر كذلك ، فإن أهل الاقليم الذي عرف فيها بعد باسم فينيقيا زادت احتياجاتهم وتشعبت رغباتهم فاضطروا أن يستجيبوا لهاوأن يعملواعلى تلبيتها- وقد أدى هذا الاستقرار النسبي إلى تطور حضاري آخر حيث استطاع الانسان أن يتوصل الى معرفة الزراعة المستقرة بدلا من اعتماده على الزراعة البدائية المتنقلة واضطره ذلك الى عدم الابتعاد طويلا عن المساحة التي يزرعها،فأصبحت سكنى الكهوف غير ملائمة وحتمت الضرورة أن يلجأ الانسان الى إقامة مستوطنات يعيش فيها وأن تربطه بجيرانه بعض العلاقات -وحين تزايدت أعداد المستوطنات المتقاربة نشأت القرى التي أخذت في النمو حجما وعددا ومنها ما أصبح أشبه بالمدن ، ومن معرفة الانسان للزراعة أخذ يطور من الآته فاختلفت عن الآته السابقة

وبوصل الى وسائل تخزين محصوله فعرف صناعة الأواني الفخارية وقد عرف هذا العصر باسم الدور الحجري الحديث .

ولا تعني معرفة الانسان للزراعة أنه انصرف نهائيا عن حرفة الصيد واستئناس الحيوان ، بل ظل يمارسهما الى جانب الزراعة بل وما زال يمارسهما حتى عصرنا الحالي .

وقد اختلفت مساكن الانسان بين مكان وآخر حسب ظروف كل بيئة ولكنها جميعاً كانت من مواد خفيفة على أي حال ويغلب فيها أن تكون في مستوى أعلى من مستوى سطح الأرض لتكون بمنأى عن فيضان الأنهار والمجاري المائية وجدرانها من الطمى المدعم بالقش المحزوم في قوائم على أبعاد متقاربة .

وكان الموتى يدفنون في وضع مقرفص، بحيث يقترب الذقن من الركبتين أو بهيئة تشبه هيئة الجنين في حفر غير عميقة صغيرة المساحة، وقد عثر على مخلفات الدور الحجري الحديث في أماكن متفرقة في الاقليم السوري .

وفي خلال الألف الرابع ق. م. أخذ النحاس يستعمل في صناعة - بعض الأدوات على نطاق محدود مع بقاء استخدام الأدوات الصوانية وهذه الفترة تمثل مرحلة الانتقال بين الدور الحجري الحديث وبين عصر البرونز وتعرف باسم العصر الشالكوليثي أو عصر استخدام الحجر والنحاس ، ولو أن النحاس لم ينتشر استعماله إلا ابتداء من النصف الثاني لهذا العصر ، غير أن أهم ما تميز به ما يبدو في آثاره من تطور في العمارة وانتشار الفخار بكثرة فقد بنيت المساكن من جدران من اللبن فوق أساس من الحجر واستعملت الأخشاب في التسقيف في هيئة أساطين أو عروق - أما الفخار فقد تعددت أشكاله وظهرت أنواع ملونه منه ، وفي هذه المرحلة دفن الموتى في أواني فخارية كبيرة تحت أرضية المنازل ويوحي دفن بعض الأواني التي كانت دون شك تحوي طعاما أو شرابا بأن الانسان اعتقد في البعث ، وحوالي نهاية هذه الفترة أخذت أواني الفخار الملونة بلون واحد وزخرفت بزخارف هندسية تختفي أمام الانتشار التدريجي لفخار متعدد الألوان ، وفي النهاية كان ظهور الفخار الرمادي اللون الجيد الصقل مؤذنا بانتهاء هذا العصر والدخول في عصر

البرونز المبكر - ولم يعثر على آثار أسوار في بيبلوس أو رأس شمرا من عصر الحجر والنحاس ولكن عثر على آثار أسوار ترجع الى العصر الحجري الحديث في جريكو والى عصر الحجر والنحاس في مواقع أخرى مما يبعث الأمل في العثور على أسوار فيهما من عصر البرونز أيضا في المستقبل .

ومهما كان الأمر فإن ما عثر عليه من آثار حتى الآن لا يستدل منه على وجود مخلفات حضارية تمثل كافة العصور السابقة للكتابة - أو العصر قبل التاريخي - في مختلف بقاع هذه المنطقة ، كذلك لم يعثر على آثار من العصر التاريخي تكفي لتكوين هيكل تاريخي متكامل للمدن ومراكز الاستيطان الفينيقية ، غير أننا عن طريق هذه الآثار ومن مصادر بعض الأقطار الأخرى يمكن أن نتتبع تاريخ أهم المراكز الفينيقية من الشمال الى الجنوب على النحو الآتي :

أولا : رأس شمرا :

على بعد نحو سبعة كيلو مترات إلى الشمال من أوجاريت عثر في أعمق الطبقات التي أسفرت عنها عملية التنقيب على آثار وأدوات جرية من طراز أقدم حضارات العصر الحجري القديم المعروفة باسم الحضارة الابفيلية (الشيلية) مما يدل على أن هذه المنطقة كانت عامرة بالسكان خلالها ، وتعلو هذه طبقة عثر فيها على آثار تنتمي الى العصر الحجري الحديث تتمثل في أدوات من الصوان والعظم وأواني فخارية تزينها بعض الثقوب[1] أو الخدوش التي ربما استخدمت الأظافر في عملها في الأواني قبل حرقها ثم تلي هذه طبقة عثر بها على فخار مزدان بالرسوم الملونة وهو من مميزات العصر المعروف بعصر الحجر والنحاس (الشالكوليثي أو الأنيوليثي)، ومع أن هذه الطبقة لم توجد بها

---

(١) رتبت الطبقات في رأس شمرا بحيث رقمت أقرب الطبقات الى سطح الأرض وهي التي عثر فيها على آثار أحدث العصور بالأرقام الأولى ومن تحتها تلك التي تحتوي على آثار العصور الأقدم منها وتليها على الترتيب، الطبقات الأقدم فالأقدم - وهكذا تكون أعمق الطبقات التي تحوي أقدم الآثار هي أعلى الطبقات رقما .

معادن فإنها تؤرخ بهذا العصر نظرا لأن فخارها يماثل فخار مواقع أثرية تنتمي له في شمال سوريا وخاصة تل حلف .

وتعلو هذه الطبقة طبقة تحتوي فخاراً يماثل الفخار الذي عثر عليه في كل من العبيد وجمدة نصر بالعراق التي ترجع لفترة تمثل قبيل الأسرات في العراق ، ويمكن أن ترجع هذه الطبقة الى الألف الرابع وجوء كبير من الألف الثالث قبل الميلاد - هذا إلى جانب ظهور فخار كنعاني يتمثل في قدور ذات قواعد مسطحة تحليها زخرفة في هيئة المشط وأواني من الطمى المموه بالميناء تشبه الأواني القبرصية التي ترجع الى العصر البرونزي القديم(١) وهي ذات نصف دائري .

ومن المرجح أن الفينيقيين استقروا في أوجاريت خلال هذه الفترة وأن بعض العلاقات قامت بينهم وبين قبرص لتشابه أنواع الفخار التي عثر عليها في كليتهما .

ثانيا : أوجاريت :

أسفرت التنقيبات التي أجريت في أوجاريت على آثار تدل على أن المدينة التي كانت في موقعها وصلت الى درجة كبيرة من العمران والعظمة ابتداء من الألف الثاني قبل الميلاد ومما يثبث مكانة هذه المدينة ما عثر عليه من نصوص ومنها مثلا نص رسالة بعث بها والي حلب إلى ملك ماري(٢) فيها بعزم ملك أوجاريت على زيارة ماري ، كما أن مدافن هذا العصر حوت كثيرا من الأثاث الجنزي وأدوات الزينة التي يرجع أنها جلبت من مناطق بعيدة مثل البلقان والدانوب الأوسط ومن مصر التي يبدو أنها كانت على علاقات طيبة معها ، كذلك وجدت بها آثار كريتية من العصر المينوي الأوسط .

وربما كان دخول الحوريين شمال سوريا من عوامل تحركات الهكسوس وقد سيطر الحوريون على أوجاريت فترة نمت فيها الجالية الايجية التي كانت

---

(١) يختلف تاريخ هذا العصر بين منطقة وأخرى ولكنه هنا يؤرخ بالفترة ما بين ٢٦٠٠، ٢١٠٠ ق. م.

(٢) ماري عاصمة مملكة الأموريين في وسط الفرات .

بها ، ولكن ذلك لم يدم طويلا لأن مصر بعد أن طردت الهكسوس بسطت نفوذها على أوجاريت وإزاء ظهور قوى فتية في بلاد النهرين وفي آسيا الصغرى وتشكل خطرا على شمال وشرق الاقليم السوري وجدت مملكة سوريا الشمالية التي أسسها الحوريون (أي مملكة ميتاني) ومصر أن مصلحتها في التقارب وإقامة علاقات ودية فيما بينهم - وتعد الفترة من منتصف القرن الخامس عشر الى العشرين سنة الأولى من القرن الرابع عشر قبل الميلاد تقريبا من أزهى عصور أوجاريت كما يتضح ذلك من الآثار التي عثر عليها ومن بينها آثار مساكن مريحة وطرق جيدة ومدافن بنيت باتقان كما عثر على خليج ميناء البيضاء بالقرب من المدينة على مرافق الميناء ووكالات تجارية متعددة وعثر على منتجات مصرية وإيجية مما يوحي بأن فينيقيا عامة شهدت رواجا كبيرا .

وفي منتصف القرن الرابع عشر حدث زلزال في المنطقة أعقبه طغيان البحر فخربت أوجاريت ولكنها مع ذلك نهضت من جديد ثم ما لبثت أن وقعت سريعا في قبضة الحيثيين في عهد أحد ملوكها ويدعي «نقماد» وأصبح هذا تابعا للملك الحيثيين «سوبيلو ليوما» - وعند قيام رعمسيس الثاني في الأسرة التاسعة عشر المصرية بمحاولة استرداد أملاك مصر في سوريا وحدثت بينه وبين ملك الحيثيين وحلفائه من ملوك الدويلات السورية معركة قادش انضمت أوجاريت لهؤلاء الأحلاف بحكم تبعيتها لدولة الحيثيين، ثم وقعت مصر معاهدة مع الحيثيين فساد السلام في المنطقة وظل سكان أوجاريت كما كانوا من قبل وزادت عليهم عناصر من أهل ميكيني (ببلاد اليونان) وأهل قبرص لعبت دوراً كبير فيما بعد ، وانتعشت أوجاريت للمرة الأخيرة حيث أنها خربت حوالي سنة ١١٨٠ ق. م. أثناء إغارة شعوب البحر التي أسقطت الدولة الحيثية وحاولت غزو مصر ولكنها لم تنجح في ذلك حيث استطاع رعمسيس الثالث أن يبعد خطرها عن مصر ، ولم تقم لأوجاريت قائمة بعد ذلك .

ويمكن القول بأن أوجاريت بحكم موقعها كانت أكثر تأثرا بقبرص والحيثيين والحوريين من تأثرها بمصر .

ثالثا : أرواد :

معظم معلوماتنا عنها من مصادر غير فينيقية ، فهي من المدن الفينيقية الرئيسية التي تعرضت للكثير من أطماع الشعوب المجاورة فقد هاجمها شعوب البحر ودمروها كما يستدل على ذلك من مظاهر التخريب الواضحة فيما عثر عليه من آثار بها ترجع إلى زمن هذا الهجوم .

وعندما اعتلى تيجلات بلاسر الأول عرش آشور (١١١٣ - ١٠٧٤ ق.م.) قام بحملة أخضع فيها سوريا العليا لسلطانه وفرض الجزية على أرواد سنة ١١٠٠ ق.م. وبيبلوس وصيدا ، ومن أرواد توجه في سفن أروادية الى سميرا وبلاد الأموريين .

ولما اعتلى آشور ناصر بال العرش سنة ٨٨٣ ق.م. اكتفى سنة ٨٧٦ ق.م. بفرض الجزية على أرواد (صور وصيدا) .

أما شلمناصر الثالث (٨٦٠ - ٨٢٥ ق.م.) فقد هزم ملك أرواد لأنه خلع الطاعة له واضطرت أرواد إلى دفع الجزية ابتداء من حوالي سنة ٨٥٠ق.م.

ومع أن تيجلات بلاسر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م.) توسع في فينيقيا إلا أنه ترك بيبلوس وأرواد تتمتعان بحكم ذاتي ، ولكنه فرض غرامة على جبيل وأرواد وصور على أثر حملة قام بها سنة ٧٣٤ق.م. في فينيقيا .

وفي عهد شلمناصر الخامس (٧٢٧ - ٧٢٣ق.م.) ثارت صور ضده ، ولما أراد غزو قبرص جمع ستين سفينة من صيدا وجبيل وأرواد ولكن تصدت لها اثنا عشرة سفينة صورية ودمرتها وأسرت نحو خمسمائة من الأشوريين .

ويحتمل أن فينيقية ظلت تابعة لآشور في عهد سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ق.م.) . أما في عهد سنحريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م.) فقد تحالف أمراء يهودا مع الفينيقيين وثاروا على آشور ولكن سنحريب شتت شمل الثائرين سنة ٧٠١ق.م. ، وفي اللوحة التي أقامها على نهر الكلب تخليداً لانتصاره ذكر أسماء ملوك بعض المدن الفينيقية ومنهم ملك أرواد «عبدليتي» (Abdiliti) .

وحينما ثارت صور في عهد آشور بانيبال (٦٦٨ - ٦٢٦ق.م.) أخضعها بعنف وقسوة وحصل منها على نفائس عديدة، وقدم ملك أرواد «ياكن لو» (Yakin-lou) خضوعه الى آشور بانيبال وقدم له جزية وفيرة بالاضافة إلى إحدى بناته لتكون في حريمه الملكي وإن كان من المحتمل أن يكون هذا قد حدث على إثر مهاجمة آشور بانيبال لأرواد نظرا لأن الحاكم الأشوري في سميرا كتب لآشور بانيبال يشكو له من أن ملك أرواد كان يحول دون الملاحة إلى الموانىء التي تقع في الأراضي الأشورية.

ومما يجدر ذكره أن أرواد، فيما يبدو، ظلت على ولائها لآشور حيث ذهب أبناء «ياكن لو» عقب موته لتقديم فروض الطاعة من جديد لآشور بانيبال.

وقد أشاد الأنبياء، العبرانيون ببحارة أرواد[1] وسفنها - وفي أوائل عهد السيادة الفارسية زادت من نفوذها في المنطقة الساحلية ولكن حينما وصل الاسكندر كانت أرواد من بين المدن الفينيقية الرئيسية التي فتحت أبوابها له.

رابعا: بيبلوس (جبيل):

عثر على آثار من العصر الحجري القديم في كهوف في أسفل التلال كما عثر على آثار قرية للصيادين فيها ترجع الى العصر الحجري الحديث ومن عصر الحجر والنحاس كذلك، هذا بالاضافة الى أن التنقيبات التي أجريت فيها فيما بين سنتي ١٩٢٠، ١٩٢٥ قد أسفرت عن آثار من عصور مختلفة ابتداء من الألف الثالث قبل الميلاد إلى القرن الثاني الميلادي، حيث عثر على أنقاض معبد من الألف الثالث قبل الميلاد تعرض لحريق دمره، ومن فوقها أنقاض معبد آخر عثر فيها على آثار مصرية ترجع إلى عهود الأسرات المتعاقبة من الأسرة الثالثة إلى الأسرة السادسة (الدولة القديمة) وإلى عهد الأسرة الثانية عشرة (الدولة الوسطى) ومن عهد الأسرة التاسعة عشر أيضاً، وتعلو هذا أنقاض وآثار تنتمي إلى العصرين اليوناني والروماني.

(١) حزقيال ٢٧/٨، ١١

وعلى العموم يبدو أن بيبلوس (جبيل) ظلت آهلة منذ أقدم العصور وكانت بحكم موقعها ذات مركز تجاري هام فنشأت بينها وبين جاراتها علاقات وثيقة وإن كان البعض يرى أنها خضعت للنفوذ المصري في كثير من عهودها .

وترجع علاقاتها مع مصر إلى أقدم العصور فقد عرفتها مصر منذ عصر سحيق حيث أن أسطورة أوزير وست المصرية تشير إلى أن ست بعد أن قتل أخاه أوزير ألقى بالصندوق الذي يحوي جثته في اليم فجرفه التيار الى شاطىء بيبلوس ودفعه بين فرعي شجرة نمت بحيث تضمنت الجثمان بين طياتها ، وحين شاهد ملك بيبلوس هذه الشجرة أعجب بضخامتها فأمر بقطعها وجعلها أحد أعمدة قصره - ولما علمت ايزيس بما حل بزوجها وأخيها أوزير وصلت إلى جبيل واحتالت حتى دخلت القصر ثم أذن الملك لها بحمل العمود الذي يحوي جثمان زوجها (أوزير) الى مصر ، ومع أن هذه الأسطورة تبدو غير معقولة من وجهة نظرنا إلا أنها دون شك تدل على علاقات بيبلوس بمصر لأن كثيرا من الأساطير لها جذور تاريخية وإن كان الخيال يطغى فيها إلى درجة تبعث على حشوها بالخرافات التي تصبح في نظر معاصريها من الأمور المسلم بها ، وعلى هذا يمكن القول بأن تلك العلاقات تعود الى عصور سحيقة من القدم .

ومما يؤيد وجود هذه العلاقات العثور في أنقاض معبد بيبلوس الذي سبقت الاشارة اليه على أختام اسطوانية من الأسرة الثالثة ، كذلك عثر على أواني قرابين تحمل أسماء خع سخموى (الأسرة الثانية) وخوفو ومنكاورع (الأسرة الرابعة) وأوناس (الأسرة الخامسة) وتتى وبيبي الأول وبيبي الثاني (الأسرة السادسة) - ومن جهة أخرى فقد وجدت أخشاب الأرز مستخدمة في مصر في المقابر والمعابد حيث سقفت بها مقبرة خع سخموى وصنعت منها مراكب الشمس ونواويس تماثيل الآلهة كما دخلت في صناعة الأثاث الثمين الذي استعمله الملوك وعلية القوم فكانت مصر تستورد منها كميات ضخمة كما يستدل على ذلك من نص على حجر بلرمو[1] حيث يشير إلى أن سنفرو (مؤسس

---

(١) كتلة من الحجر موجودة بمتحف بلرمو في صقلية - كانت جزءا من قائمة بأسماء الملوك وأهم الأحداث في عهودهم من أقدم العصور حتى الأسرة الخامسة .

الأسرة الرابعة حوالي سنة ٢٧٢٣ق . م .) أحضر أربعين سفينة محملة بأخشاب الأرز كما تشير نقوش في معبد للملك ساحورع (أحد ملوك الأسرة الخامسة) إلى أنه أرسل حملة بحرية إلى آسيا عادت منها بأسلاب وأسرى كثيرين، وتدل شواهد الأحوال على أن هذه الحملة وصلت إلى بيبلوس (جبيل) (١) كذلك عثر في بيبلوس على عدد من الأواني التي تحمل اسم بيبي الأول الذي أرسل حملة برية مع تعزيزات بحرية الى جنوب الساحل الشرقي للبحر المتوسط ولكن لا يعرف مدى توغلها شمالا ، كذلك عثر على أواني باسم بيبي الثاني ، ومن المرجح أن مصر خلال الجزء الأكبر من عصر الأسرات الثالثة إلى السادسة كانت ترسل بعض الهدايا إلى معبد بيبلوس . ويرى بعض المؤرخين كذلك أن معبدا مصريا أقيم في بيبلوس منذ عهد خوفو مما يوحي بأن جالية مصرية أقامت بها لرعاية مصالح مصر التجارية .

ويبدو أن العلاقات بين مصر وبيبلوس قد توقفت في عهد الاضمحلال الذي أعقب الأسرة السادسة المصرية حيث جاء في أحد النصوص التي تنتمي لهذا العصر أن خشب الأرز لم يعد يأتي لمصر (٢) .

وبعد أن انقضى هذا العهد ونهضت مصر في عهد الدولة الوسطى تطورت علاقات مصر مع بيبلوس حيث تشير نصوص قصة سنوحي ، الذي كان من رجال القصر في عهد امتمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة وهرب عقب مقتل هذا الأخير، إلى أنه قصد الوصول إلى جبيل (بيبلوس) ،

---

(١) اختلفت الآراء بشأن هذه الحملة حيث يرى البعض ومنهم مونتيه بأنها كانت حملة أوبعثة سلمية قصد منها إحضار أميرة سورية ليتزوجها الملك . انظر :
Montet, P., "Le drame d'Avaris', Essai sur la penetration des semites en Egypte", (Paris 1941), PP. 23f
ولكن من الأرجح انها كانت بعثة تجارية عادت إلى مصر ومعها بعض الآسيويين ربما تكون البعثة قد أسرتهم عندما تعرضوا لها .

(٢) Wilson, J., "Egyptian Oracles and Prophecies",in Pritchard, J.B., «Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament", p.441.

ومنها رحل ليعيش مع إحدى القبائل - ويبدو في سياق قصته أن مصر كانت تنعم بنفوذ قوي في تلك الجهات بما فيها جبيل (بيبلوس) - وتتضح قوة هذا النفوذ في أجلى صورها في إطلاق فراعنة هذه الأسرة لقب « النبيل الأمير » على أمراء بيبلوس في عهدهم وهو لقب كانوا يمنحونه لحكام المدن المصرية ، كما أن « أبشم وابي » أمير بيبلوس الذي كان معاصرا لامنمحات الثالث - أحد ملوك هذه الأسرة - نقش اسمه بالهيروغليفية المصرية على سلاحه وعلى قلائده مما يوحي بتغلغل النفوذ المصري هناك .

ولا يعرف شيء عن علاقة بيبلوس بمصر أثناء حكم الهكسوس الذي خضعت له مصر لمدة تبلغ مائة وخمسين عاما تقريبا ، ولكن بعد طرد الهكسوس خضع الاقليم السوري لمعظم ملوك الأسرة الثامنة عشر بما في ذلك بيبلوس ، ثم أخذ النفوذ المصري في سوريا في التأرجح خلال عهد الأسرتين التاسعة عشر والعشرين إلى أن انحسر عنها في عهد الأسرة الحادية والعشرين ، ففي عهد امنحتب (امنوفيس) الثالث في أواخر الأسرة الثامنة عشر ، ظهرت قوة الحيثيين الذين كانوا في آسيا الصغرى وأخذوا في ضم أجزاء من شمال سوريا كانت خاضعة لمصر ، وقد تعاون « عبد عشراتا » حاكم « امورو » [1] مع الحيثيين وفي نفس الوقت كان يظهر الولاء لمصر وأخذ يخضع بعض المناطق المجاورة بحجة إعادة النفوذ المصري إليها بينما كان يستولي عليها لنفسه أو يثبت نفوذ الحيثيين فيها ، فاستنجد الأمراء الموالين لمصر مراراً بالملك المصري ليرسل إليهم مدداً أو أعواناً للحفاظ على الممتلكات المصرية من التوغل الحيثي ولتفادي الوقوع تحت سيطرة « عبد عشراتا » ، ومن بين هؤلاء الأمراء « ربعدي » حاكم جبيل الذي كتب للملك المصري رسالة جاء فيها : « . . . ليسرع مولاي بإرسال الجند . . . فإذا لم يرسل سيدي الملك جندا هلكنا وتضيع معنا جبيل التي كانت وما زالت إلى الآن في قلق . . . وأهلها

---

(١) يرى معظم المؤرخين أن هذا الأسم يقصد به الاموريون وأن الحاكم المذكور هنا كان يحكم جزءا من سهل البقاع الى جنوب قادش .

يقولون : ليس لدينا جنود . . . الأعداء يسعون للاستيلاء على جبيل ويقولون : «لو استولينا على جبيل أصبحنا بها أقوياء - إعلم أنهم لو استولوا عليها لقويت شوكتهم وأنا لا منجد لي إذا لم تأت إلّي لنحاربهم معا ، واعلم اني أحفظ مدينة الملك ليلا ونهارا ولو أني سرت (وحدي) لإخضاع بلد تخاذل الناس عني لكي يستولوا عليها لأنفسهم - ليس لدينا جند لحفظ مدينة جبيل التي هي مدينة سيدي الملك فليسرع مولاي بإرسال الجند وإلا هلكنا . . . وسيدي يعلم أني لا أبلغ سيدي خبرا كاذبا . . . إني أود أن يسير الملك بجنوده وأن يرى بلاده وأن يستولي على كل شيء - اذا ما تحركت للمسير تنحاز لجلالتك كل البلاد ، فمن الذي يجرؤ على الوقوف في وجه جند الملك ؟ سيدي لا تجعل هذا العام يمر إذ أن أبناء « عبد عشراتا » - وأنت تعرفهم - نزلوا جميعا في أرض سيدي الملك » .

ومن ذلك يتضح سوء الحالة التي أصبح عليها النفوذ المصري في الاقليم السوري بصفة عامة ومدى تمسك حاكم جبيل بالولاء لمصر ومحاولته اليائسة في الاحتفاظ بمدينته في ظل الحكم المصري رغم التهديدات التي تعرضت لها من قبل جيرانه وخاصة « عبد عشراتا » وأولاده .

واشتد سوء الحالة بالنسبة لنفوذ مصر في سوريا في عهد امنحتب (امنوفيس) الرابع الشهير باسم « اختاتون » الذي اهتم كل الاهتمام بنشر مذهبه الديني وظل الحال على ذلك في عهد خلفائه حتى أوائل عهد الأسرة التاسعة عشر حيث استطاع سيتي الأول[1] أن يسترد جزءاً كبيراً من الممتلكات المصرية ومن بينها المنطقة التي تقع فيها جبيل - أما ولده رعمسيس الثاني فقد بنى عاصمة جديدة له قرب الحدود الشمالية الشرقية لمصر ليتسنى له مراقبة الحالة في الأملاك المصرية بسوريا عن كثب نظرا لأن الحيثيين أخذوا يشددون الضغط على الأملاك المصرية في سوريا وبلغ الصراع بين رمسيس وبين الحيثيين أشده

(١) ثالث ملوك الاسرة ١٩ إذا مااعتبرنا حور محب مؤسس هذه الأسرة .

فـالتقى معهم في معركـة قادش التي سجـل أحداثهـا على معـظم المعابـد والمباني التي خلفها . ومع أن المعركة لم تكن حاسمة فيما يبدو إلا أن الطرفين اتفقا على عقد معاهدة سلام فيما بينهما ثم تأكد هذا السلام بزواج رمسيس من ابنة ملك الحيثيين .

ومهما كان الأمر فإن شواهد الأحوال تدل على أن جبيل بقيت تحت النفوذ المصري في عهده ، حيث عثر مونتيه الذي قام بالتنقيب في جبيل كما أشرنا سابقا (١) على أواني عليها اسم والقاب رعمسيس الثاني بين الآثار التي وجدت في مقبرة أحد ملوك جبيل مما يوحي بأنها ظلت على تبعيتها لمصر كذلك نقش هذا الملك - وكان يدعى احيرام - على تابوته مناظر تحاكي اسلوب النقوش المصرية ولكنه نقش اسمه بالفينيقية وليس بالهيروغليفية .

غير أن النفوذ المصري في جبيل أخذ في الأفول إلى أن زال نهائيا . ففي عهد رعمسيس التاسع (في أواخر الأسرة العشرين) احتجزت بيبلوس رسله فترة طويلة يحتمل أنها بلغت سبعة عشر عاما .

وعندما انهارت الأسرة العشرين ، وانقسمت مصر إلى منطقتي نفوذ ، حيث حكمت في الدلتا أسرة ضعيفة ، وظل الوجه القبلي تحت نفوذ الكهنة ، لم يقتصر الأمر على خروج بيبلوس عن نطاق النفوذ المصري بل أصبح حكامها لا يأبهون بالمبعوثين المصريين الذين يوفدون إليها من أجل الحصول على الأخشاب - وخير دليل على ذلك ما ورد في بردية عن أحد المبعوثين ويدعى « وينآمون » الذي أرسله كاهن طيبة إلى ملك الوجه البحري ليزوده بسفينة وبمقدار من الذهب اللازم من أجل شراء أخشاب من الأرز لصنع قارب آمون المقدس وأعطى الكاهن للمبعوث تمثالا للاله آمون ، وقد تعرض هذا المبعوث للكثير من المتاعب وفقد كثيرا من المال الذي كان يحمله ولكنه واصل رحلته إلى بيبلوس وكان يأمل في أن لا يتوانى ملكها « زكربعل » في إمداده بالأخشاب المطلوبة دون مقابل ظنا منه بأنها ما زالت خاضعة للنفوذ المصري أو على الأقل

---

(١) انظر فيما سبق ص١٩ .

يغتبط للحصول على تمثال آمون (الذي كان اله الامبراطورية المصرية الرسمي) عوضا عن قيمة الأخشاب من الذهب إلا أن ملك بيبلوس لم يأبه للمبعوث المصري ولا لمن أرسلوه حيث يبدي «زكربعل» عدم اكتراثه بفرعون مصر بقوله مخاطباً هذا المبعوث «ولست خادماً لمن أرسلك» وبعد توسل «وينآمون» أعطاه «زكربعل» جزءاً من الخشب المطلوب فقط - وهكذا يتضح أن بيبلوس أصبحت مملكة تشعر بقوتها ومنعتها ولم تعد خاضعة للنفوذ المصري.

ويبدو أن إغارة شعوب البحر (حوالي سنة ١٢٠٠ق.م.) كان لها أثر مباشر على بعض المدن الساحلية فقد دمرت كل من أرواد وصيدا . غير أن الفترة التي أعقبت هذه الاغارة كانت بداية مرحلة من الاستقلال لتوقف نشاط القوى الكبرى في الاقليم السوري- وبينما انتعشت الدويلات العبرية والآرامية اقتصرت المدن الفينيقية على الساحل، وكانت بيبلوس من بين المدن الرئيسية (وهي أرواد وبيبلوس وصيدا وصور وعكا) - وتدل شواهد الأحوال على أن صيدا تمتعت بنوع من السيادة على هذه المدن أو أنها تزعمت تحالفا مكونا منها.

وحينما اجتاح تجلات بلاسر الأول ملك آشور (في الفترة ما بين ١١١٢، ١٠٧٤ق.م.) جنوب الاقليم السوري بهدف الحصول على أخشاب الأرز قدمت له الجزية كل من أرواد وبيبلوس وصيدا، مع أنه من المرجح أنه لم يخض معركة ضد هذه المدن، ومع ذلك لم تدم سيادته عليها طويلاً لأنه لم يترك حاميات بها.

ومن نصوص مختصرة ترجع إلى القرن العاشر ق.م.نتبين أن بيبلوس تتابع على عرشها الملوك أحيرام [1]، إيتوبعل، أبي بعل، ييحي ملك، إيلي بعل، شيبيت بعل، فقد عثر على تابوت أحيرام الذي نقش عليه نص جنزي ذكر به اسمه، أما الآخرون فقد وجدت أسماؤهم على مباني أو تماثيل

---

(١) وهو غير أحيرام الذي عاش في القرن الثالث عشر أيام رمسيس الثاني (قارن ص ص٣٤،٣٦).

بها نقوش يرجون فيها حماية الآلهة . وقد استنتج المؤرخون بمقارنة بعض النقوش أن ترتيب حكمهم كان على النحو الآتي :

أحيرام	حوالي سنة ١٠٠٠ق.م.
إيتو بعل	سنة ٩٨٠ ق.م.
أبي بعل	سنة ٩٤٠ ق.م.
.بيحي ملك	سنة ٩٢٠ ق.م.
إيلي بعل	سنة ٩٠٠ ق.م.
شيبيت بعل	سنة ٨٨٠ق.م

ومن المحتمل أن « ييحي ملك » أسس أسرة جديدة على إثر أبي بعل - ولما كان كل من هؤلاء يلقب نفسه بلقب « ملك بيبلوس » فإن ذلك يوحي باستقلالهم الفعلي عن مصر .

ويرى بعض المؤرخين أن ملوك بيبلوس زادوا من مساحة ملكهم على حساب جيرانهم وبسطوا نفوذهم على صور التي يرجع أنها أصبحت مقر ملكهم ولكن هذا التوسع كان محدودا نظرا لأن الفلسطينيين [1] والعبريين كانوا ينافسونهم وأصبحوا عائقا في سبيل توسعهم - وتنحصر معلوماتنا عن علاقتهم بالفلسطينيين في أن هؤلاء دمروا مدينة صيدا - أما مع العبريين فإن الكتاب المقدس يذكر هذه العلاقات بشيء من الافاضة ومنه نعلم أن داود (فيما بين ١٠٠٠ ، ٩٦١ ق.م.تقريبا) ، حين وسع ملكه ، ضم جزءا كبيرا من الساحل الفينيقي لملكه - ولكن من المرجح أن بيبلوس حافظت على استقلالها لأن ملكها « حيرام » (أو أحيرام » تبادل مع « سليمان » بن « داود » وخليفته على العرش علاقات الود والصداقة وربطت بينهما منافع مشتركة ، فكان حيرام يرسل لسليمان الأخشاب ومواد البناء والحرفيين لبناء معبده وقصره ويتلقى منه مكافآت سخية عنها مما يؤكد استقلال كل منهما .

---

(١) من قبائل شعوب البحر الذين تركزوا في خمسة مدن رئيسية على الساحل وكانت تتزعمها مدينة أسدود . وكان يطلق عليهم اسم Phillistines أو Pulusati ومنه أشتق أسم فلسطين .

خامسا : صـــور :

يستدل من الشواهد الأثرية والتاريخية على أن موقع المدينة كان عامرا منذ القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد حيث أشار هيرودوت إلى أن كهنة صور ذكروا له أن معبد الإله ملقارت الذي كان فيها ، بني في وقت بناء المدينة قبل زيارته لها (سنة ٤٥٠ ق.م.) بنحو ٢٣٠٠ سنة ، كما أن من المرجح أن الهجرة السامية التي وصلت الى شمال سوريا في منتصف الألف الثالث توحي بأن الاقليم السوري بأكمله كانت تسكنه أقوام أخرى قبل وصولها مما يوحي بأن المدينة كانت قائمة في ذلك الحين ، وتشير الأساطير الصورية إلى أن جنسا من أنصاف الآلهة جاء بعد خلق الكون وتلاه جنس من العمالقة اخترعوا ما أفاد العالم ومن هؤلاء أوزوس الصياد (وهو أسطوري) الذي كان أول من خاطر بركوب البحر فوق جذع شجرة رسا به على جزيرة من جزر الشاطيء السوري ، وأقام بها عمودين أحدهما للنار والآخر للريح وقدم القرابين ، وفي نفس الوقت أسس مدينة صور .

ولا شك في أن هذه الاساطير تشير الى قدم معرفتهم بالملاحة التي مكنتهم من تبادل التجارة على طول سواحل البحر المتوسط ، وعلى أجزاء من سواحل المحيط الاطلنطي حتى وصلوا الى بريطانيا وداروا حول أفريقيا ، وكانوا أحياناً يتوغلون في داخلية البلاد المطلة على تلك السواحل إذا ما أتيح لهم ذلك ، ففي إحدى مقابر طيبة عاصمة مصر في عهد الدولة الحديثة منظر يمثل وصول سفينة تجارية فينيقية الى طيبة (وهي من بيبلوس أو صور) وكانت تحمل بضائع صيدونية وأواني ميكينية [١] .

ومهما كان الأمر فإن صور والمدن الفينيقية بصفة عامة خضعت لمصر خلال الاسرة الثامنة عشر – وحينما أخذ الحيثيون في التقدم جنوباً وأخضعوا شمال سوريا بدأت الولايات السورية تنفصل عن الحكم المصري ولم يبق مواليا لمصر سوى صور وبيبلوس بينما كان «عبد عشراتا» وهو أمير شعب يدعى

---

(١) Hall, H.R., «The Ancient History of the Near East», 11 th. ed., London 1963), p. 293

أمورو يتظاهر بالولاء لمصر ويمالىء الحيثيين وفي نفس الوقت ينقض على الولايات التابعة لمصر ويضمها للأقليم الخاضع له . كذلك استمر «عزيرو» بن «عبد عشراتا» على سياسة والده فأخذت مصر تفقد أملاكها في الأقليم السوري شيئاً فشيئاً ، ولكن من المرجح أن كلا من صور وبيبلوس وصيدا وبيروت ظلت على ولأئها لمصر، ولم يدم ذلك طويلاً فقد زال النفوذ المصري من الساحل السوري في نهاية الاسرة الثامنة عشر وبداية الاسرة التاسعة عشر، وحينما اعتلى سيتي الأول[١] عرش مصر استطاع أن يستعيد الجزء الجنوبي من الاقليم السوري من قبضة الحيثيين الذين كانوا قد استولوا عليه في نهاية الاسرة الثامنة عشر .

وحينما تولى الملك خلفه رعمسيس الثاني قام في السنة الثانية من عهده بحملة الى الاقليم السوري ولم تعترضه عقبات الى أن وصل الى سفوح الجبال عند مصب نهر الكلب بالقرب من بيروت وهناك أقام نصباً رمزاً لانتصاره ثم زحف شمالاً للقاء الحيثيين الذين استعدوا له في قادش (قرب مدينة حمص الحالية) بينما بقيت المدن الفينيقية تترقب ما تسفر عنه الأحداث بين المصريين والحيثيين –ولم يسفر اللقاء بين القوات المصرية والحيثية في قادش عن معركة حاسمة غير أن أهم نتيجة لها هي المعاهدة التي عقدت بين المصريين والحيثيين وأدت الى حلول السلام فيما بينهم .

وبعد معاهدة رمسيس الثاني والحيثيين ظل الفينيقيون في جنوب أرواد مستمرين في جمع الثروات عن طريق التجارة في ظل الحماية المصرية بينما كان أمراء الكنعانيين والخابيرو قد أخمدوا مؤقتاً– وكان نواب الحكم المصريين المقيمين في غزة وعسقلون واورشليم ومجدو وصور وصيدا يرقبون الامراء والزعماء المحليين ويرشدونهم – وبينما كان الامورويون في الشمال على وفاق تام مع الحيثيين كان هؤلاء يصدرون أخشاب لبنان وغيرها من المناطق الى مصر – أي أن التجار المصريين كانوا يقطعون الاخشاب في المناطق الخاضعة للحيثيين لقاء أثمان باهظة[٢] .

---

(١) انظر الملاحظة ص٣٣.
(٢) Hall, op.cit., 367-8.

وكان الفينيقيون آمنين في مدنهم الحصينة وعلى سفنهم فلم يتأثروا كثيراً بالاسرائيلين أو الاراميين أو الفلسطينيين - ومع أن قبائل الخابيرو (الذين يحتمل أنهم كانوا أسلاف العبرانيين) أزعجوهم في عهد اخناتون إلا أنهم لم يحتلوا أرضاً فينيقية - أما في البحر فقد تعرضوا لهجمات الفلسطينين والجكر الذين احترفوا القرصنة غير أن هجمات هؤلاء لم تؤثر على الفينيقين الذين احتفظوا باستقلالهم وفرديتهم منذ عهد تحتمس الثالث الى عهد الاسكندر، ولم تتوقف تجارتهم وتابعوا إنعاشها ونشرها الى أقصى نهايات البحر المتوسط والى ما وراء من ذلك .(١)

ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى تبدل الحال في إقليم الشرق الأدنى بصفة عامة، ويهمنا هنا أن نذكر بأن الشعوب التي عرفت باسم شعوب البحر غزت غرب آسيا وأسقطت الدولة الحيثية حوالي سنة ١٢٠٠ ق . م . وامتد غزوهم الى الاقليم السوري وهددوا الحدود المصرية ولكن رعمسيس الثالث (ثاني ملوك الاسرة العشرين) استطاع أن يصدهم عن مصر، وبالطبع خرجت المدن الفينيقية عن نطاق النفوذ المصري إلا أنها تعرضت لبعض الاضرار - فحينما أغارت شعوب البحر عليها قامت بنهب عدد منها وخاصة مدينتي صيدا وصور. ولكن ما أن زال أثر تلك الاغارة حتى نهضت المدن الفينيقية ومن بينها صور التي نعمت بنشاط ورواج لم تشهد له مثيلاً من قبل، ففي أوائل الالف الأول قبل الميلاد لم يتهدد المدن الفينيقية خطر من الخارج ونعمت بالسلام فترة لا تقل عن قرنين من الزمان وهي تعد العصر الذهبي للمدن الفينيقية - أما صور فقد ظلت مستقلة فيما بين عامي ١٠٠٠، ٥٠٠ ق . م . تقريباً حيث وصل نشاطها التجاري الى منتهاه ووصلت أساطيلها الى أماكن بعيدة أسسوا فيها وكالات تجارية ومستعمرات دائمة .

ومن أشهر ملوك صور «حيرام» (أو أحيرام) بن «ابي بعل» الذي عرف باتصالاته مع سليمان، وينسب اليه أنه زاد في مساحة مدينته ورمم المعابد القديمة وشيد معابد أخرى جديدة، وكان معبد ملقارت (بعل صور)

---

(١) Hall, op.cit. 402

ومعنى اسمه « اله المدينة »[1] قائمًا على جزيرة صغيرة منفصلة عن جزيرة صور الكبيرة فردم حيرام ما بينهما وانشأ بهذا السد مينائين أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب .

وينسب الى حيرام أنه كان حكيمًا ذكياً تبادل مع سليمان الاحاجي - وقد شارك سليمان في حملاته البحرية ، وفي نفس الوقت كان ينمي تجارته مع قبرص وأسبانيا .

وقد تبعه في الحكم ولده بعل - اتسار (Baalezat) الذي ظل في الحكم سبعة عشر عاماً (٩٣٥ - ٩١٩ ق . م .) ثم تبعه عبد عشتارت الذي حكم تسع سنوات (٩١٨ - ٩١٠ ق . م .) ثم قتله أبناء مربيته واغتصبوا العرش ، وأول من تولاه منهم ميثو عشتارت الذي حكم اثنتي عشرة سنة (٩٠٩ - ٨٩٨ ق . م .) ثم تبعه عشتاريمو الذي حكم تسع سنوات (٨٩٧ - ٨٨٩ ق . م .) ثم اغتاله أخوه فيلبس الذي حكم ثمانية أشهر فقط (٨٨٨ ق . م .) ثم أزاحه أيتوبعل كاهن عشتارت عن العرش وقتله ، وظل يحكم من بعده اثنين وثلاثين عاماً (٨٨٧ - ٨٥٦ ق . م .) ، مؤسسا أسرة حاكمة جديدة ظلت في الحكم قرنا من الزمان على الأقل .

ومن الجدير بالذكر أن عهد الفوضى والحروب الأهلية التي أنتهت بارتقاء ايتوبعل على العرش في صور صاحبتها فترة مظلمة في اسرائيل حيث انقسمت المملكة وأشتد الشقاق في القصر - كذلك يتفق ارتقاء ايتو بعل في صور مع ارتقاء عمري على عرش اسرائيل وتأسيس أسرة ظلت في الحكم بضعة عشرات من السنين سادتها علاقات الصداقة بين الدولتين ، ويشير الكتاب المقدس الى أن ايتو بعل زوج ابنته « ايزابيل » الى آحاب بن عمرى الذي حكم حوالي سنة ٨٥٤ ق . م . مما أدى الى أمتداد نفوذ اسرائيل السياسي الى

---

(١) كان لكل مدينة اله أي « بعل » بمعنى « سيد » وملقارت اله كانت له صفات شخصية ثم أضيفت اليه صفات بحرية - وكانت المدن الفينيقية تميل الى نسبة صفات بحرية الى آلهتها لارتباط حياتها بالبحر .

الساحل الفينيقي كما امتد تأثير الديانة الفينيقية بدورها في داخل اسرائيل[١] وإذا أضفنا الى ذلك أن عتليا إبنة ايزابيل تزوجت من «يهورام» ملك يهودا فإن من اليسير تفسير انتشار المعتقدات والطقوس الفينيقية بين العبرانيين ، وقد ظل التأثير الفينيقي سائداً في كل فلسطين زمناً ليس بالقصير الى أن ثار عليه الانبياء العبرانيون .

ولا شك أن صور كانت قوية في عهد ايتو بعل ، ومما يؤكد ذلك أن الكتاب المقدس يشير اليه باعتباره ملك الصيدونيين[٢] بينما يشير الى حيرام على أنه ملك صور- ولا يعني ذلك أن هذا التعبير يطابق مدلوله لأن يوسيفوس[٣] يصف « ايتو بعل » بأنه ملك صور وصيدا مما يثبت امتداد سلطانه على الساحة الفينيقية كما يذكر عنه أنه أسس مدينة البترون (بوتريس) شمال بيبلوس ، ولكن يحتمل أنه جدد فيها نظراً لأن هذه المدينة كانت معروفة من قبل كما تشير الى ذلك خطابات تل العمارنة ، وأسس مدينة أخرى في ليبيا لم يمكن تحديد موقعها حتى الآن .

ومع أن الفترة التي تلت حكم ايتو بعل كانت غامضة ويرجح أنها كانت مضطربة الا أن احدى الاساطير تشير الى أن صور كان لها الفضل في تأسيس قرطاجة ، فهي تروى أن متان (Mattan) حفيد ايتو بعل أنجب ابنة تدعى « إليسا » وابنا يدعى « بيجماليون » وأن إليسا اعتلت العرش فترة قصيرة ثم عزلت وأصبح اخوها ملكا وقتل زوجها فهربت « إليسا » الى قبرص بعد أن تعرضت لبعض المخاطر ، ومن قبرص اتجهت الى شمال افريقيا ونزلت بالموقع الذي عرف فيها بعد باسم قرطاجة حيث أمكنها أن تؤسس مستعمرة بمعاونة انصارها الصوريين من كافة الطبقات .

ومع أن شمال فينيقيا تعرض للخطر من قبل الاشوريين حينما وصلوا الى درجة من القوة تسمح لهم بالتوسع فإن جنوب فينيقيا ظل محتفظاً باستقلاله

---

(١) الملوك الأول ١٦/٣٠- ٣٢ .

(٢) الملوك الأول ١٦/٣١

(٣) مؤرخ يهودي عاش من سنة ٣٧ الى ٩٨م

فترة بعد ذلك ، ففي حوالي سنة ١١٠٠ ق . م . احتل «تيجلات بلاسر الأول» ملك آشور ارواد ولكن هذا الاحتلال الأشوري لم يدم طويلاً - ويبدو أن الدويلات الآرامية والعبرية كانت تمتص شطراً كبيراً من النشاط العسكري الاشوري مما أتاح الفرصة للمدن الفينيقية كي تنتعش ولم يكن للحملات الأشورية عليها أثر يذكر ، فقد اكتفى «أشور ناصر بال الثاني» سنة ٨٧٦ ق . م . بفرض الجزية على ملوك صور وصيدا وارواد - ولما خلفه على عرش آشور ولده « شلناصر الثالث » (٨٦٠ - ٨٢٥ ق . م .) أخذ الجزية من صور وصيدا وبيبلوس عدة مرات ، ولما خرجت ارواد عن الطاعة لآشور هزمها في معركة حاسمة .

وبعد أن اعتلى « اداد نيراري الثالث » العرش في آشور قام بحملة على الاقليم السوري سنة ٨٠٥ ق . م . وهي الحملة الوحيدة التي قام بها هناك ، ثم نعمت سوريا وفينيقيا بهدوء نسبي الى أن اعتلى عرش آشور « تيجلات بلاسر الثالث » سنة ٧٤٥ ق . م . حيث يذكر في نقوشه أنه قام بحملة على الاقليم السوري وفرض الجزية على صور وصيدا - ومما تجدر الاشارة اليه أن التوسع الاشوري لم يتخذ صفة الاحتلال الدائم لفينيقيا بل كان ينحصر في بسط السيادة الاشورية عليها من بعد وفرض الجزية عليها ، وقد ازداد الضغط الأشوري عليها في عهد « تيجلات بلاسر الثالث » (٧٥٤ - ٧٢٧ ق . م .) ، ومع أنه قام في سنة ٧٤٣ ق . م . بحملة على الاقليم السوري واخضع شمال فينيقيا (على الأقل) لسلطانه فإن بيبلوس وأرواد تمتعتا باستقلال ذاتي نسبياً - وقد دفعت صور الجزية في عهد ملكها حيرام الثاني الذي يظهر اسمه في نص فينيقي عثر عليه في قبرص يشير فيه صاحبه الى أنه تابع أوخادم الملك « حيرام » ملك الصيدونيين[1] ، ومعنى ذلك أن صور احتفظت باستقلال جوهري وحكمت المنطقة المجاورة - ولم تشر نصوص « تيجلات بلاسر الثالث » الى أن « حيرام الثاني » تلاه ملك يدعى « ميتينا » الذي دفع الجزية هو الآخر لملك آشور .

---

(١) انظر بعد ص٤٩ .

ويحتمل أن « تيجلات بلاسر الثالث » عين ولده « شلمناصر (الذي تبعه على العرش بأسم « شلمناصر الخامس » فيما بين سنة ٧٢٧ ، ٧٢٣ ق . م .) حاكمًا على فينيقيا بينما كان « لولى » أو « ايلولايوس » ملكاً على صور وصيدا ، وحينما تولى « شلمناصر الخامس » عرش آشور أراد أن يغزو جزيرة قبرص فجمع ستين سفينة من صيدا وبيبلوس وارواد ولكن صور قامت بالثورة وتصدت اثنتا عشرة سفينة صورية لهذا الاسطول الذي جمعه ودمرته وأسرت نحو خمسمائة من الأشوريين، فقام ملك اشور بحصار جزيرة صور ولكنه مات قبل ان يخضعها .

وحينما تولى « سرجون الثاني » عرش آشور (٧٢١ - ٧٠٥ ق . م) استطاع أن يستولي على قبرص وأن يحصل منها على الجزية في مناسبات عدة ، وقد أدى ذلك الى حدوث تغيير في سلوك قبرص والى حدوث تغيير جوهري في اقتصاديات شرق البحر المتوسط فلم يعد الفينيقيون قادرين على الاحتفاظ بالسيطرة على الطرق التجارة فيه بل وخضعوا لنفوذ الآشوريين الذين كانوا أعظم منهم بقوة . ولكن بالرغم من ذلك ظلت قوة المدن الفينيقية ملحوظة ، فقد نشبت الثورة في شمال ووسط سوريا ضد الاشوريين ولكن « سرجون الثاني » أخضعها في السنة الثانية من حكمه .

ولا يعرف شيء عن الساحل الفينيقي في عهده سوى ماذكره في حولياته من أنه تلقى الجزية في السنة السابعة من حكمه من ملوك قلائل من بينهم ملوك الساحل ، كما أنه وصف في نقش عثر عليه في خورسباد بأنه « قاهر كيليكيا (كوى) وصور » - ومع كل فإن شواهد الاحوال تجعلنا نميل الى أنه لم يتخذ موقفاً معادياً من الفينيقيين بل على العكس ربما استعان بهم في مغامرة بحرية كبيرة قام بها في البحر المتوسط .

وفي عهد «سنحريب» (٧٠٥ - ٦٨١ ق . م) تكون حلف من المدن السورية بما فيها المدن الفينيقية ضد آشور ، وقد انتصر « سنخريب » على هذا الحلف في معركة يحتمل أنها كانت في سنة ٧٠١ ق . م - فر على أثرها ملك صور (الذي كان يحكم صيدا أيضاً) الى قبرص حيث مات بها .

ويبدو أن صور كانت موالية لها ثم انقلبت الأوضاع فأصبحت صيدا معادية لآشور، وحين أصبح بعل ملكاً على صور عاون الآشوريين، ولكن ما لبثت صور أن ثارت فيما بين ٦٧٦، ٦٧١ ق.م. غير أن أشور اخمدت الثورة وأجبرت صور على عقد معاهدة معها، وكانت معاهدة مجحفة حيث أنها تضمنت العديد من الالتزامات التي يجب على ملك صور أن يفي بها وحتمت بأن تكون الشؤون الآشورية في صور من اختصاص الحاكم الاشوري، كذلك أضعفت سلطة الملك بأن ألزمته بتعيين مجلس للشيوخ يعاون الملك في كل اختصاصه - ويتضح في المعاهدة أيضاً أن الملاحة كانت ذات أهمية خاصة حيث أنها حددت اسماء الموانىء السورية التي يمكن لسفن صور الوصول اليها للتجارة تحت الرقابة الاشورية بعد الحصول على إذن بذلك.

ونظراً لأن صور شعرت بشدة وطأة هذه المعاهدة فإنها انتهزت فرصة الصراع بين مصر وآشور واتحدت مع «طهرقة» ملك اثيوبيا ومصر معلنة الثورة على آشور ويبين «اسر حدون» ملك آشور ذلك في أحد نصوصه بقوله: «استوليت على صور التي هي في وسط البحر وجردت ملكها «بعل» الذي وثق في «طهرقة» ملك اثيوبيا من مدنه وممتلكاته وأخضعت مصر، ومصر العليا، وأثيوبيا»[1] - ومع كل فإن نصوصاً أخرى توحي بأن إخضاع صور تم بعد حصارها وقطع الامدادات عنها وقد فرض «آشور بانبيال» خليفة «اسرحدون» عليها الجزية إلا أنها ظلت متمتعة بالحكم الذاتي في عهد ملكها المعاصر له وهو «بعل».

ومهما كان الأمر فإن عهد «اسرحدون» أدى الى الحد من استقلال فينيقيا إذ قسمت الى ثلاثة ولايات آشورية هي: سميرا في الشمال، صيدا في

---

(١) رغم أن أثيوبيا هي الاسم الرسمي لدولة الحبشة حاليا، الا أنها كانت في العصور القديمة تطلق على كل البلاد الواقعة في جنوب مصر - وقد تألفت مملكة في أقليم الشلال الرابع في السودان الشمالي استطاع ملوكها أن يحكموا مصر حيث كونوا فيها الاسرة الخامسة والعشرين - ونلاحظ هنا أن أسرحدون ذكر مصر على أنها الدلتا أومصر السفلى ومصر العليا على أنها الصعيد واثيوبيا على انها شمال السودان. والواقع انه لم يتوغل الى أبعد من منف ولم يصل الى مصر العليا.

الوسط وصور في الجنوب ولم تبق مستقلة سوى مدن قليلة منعزلة هي : ارواد وبيبلوس وجزيرة صور[1] .

وفي عهد «آشور بانيبال» (٦٦٨ - ٦٢٦ ق . م) ثار «بعل» ملك صور من جديد فأخضعه اشور بانيبال بقسوة ولكنه عامله بالرأفة فيما بعد - ويظهر أن هذه الثورة قد ارتبطت بمحاولة مصر التخلص من السيادة الآشورية وإن كانت لم تشترك معها في محاولتها هذه ، وبعد إخضاع صور يفخر آشور بانيبال بأنه أخضع أرواد التي لم تخضع من قبل لأسلافه ويعدد الغنائم النفيسة التي أخذها منها - ثم يشير آشور بانيبال الى حملة أخرى قام بها ضد مدن أخرى في فينيقيا ومنها عكا .

ولا تشير النصوص التي من عهد خلفائه الى فينيقيا - وبسقوط الامبراطورية الاشورية (٦١٢ ق . م) يبدو أن المنطقة عادت الى الحالة التي كانت عليها في زمن اسر حدون أي أنها كانت مقسمة الى ثلاث ولايات هي سميرا وصيدا وصور كما سبقت الاشارة وثلاث مدن هي ارواد وبيبلوس وصور وكلها تدفع الجزية .

ولا توجد أدلة تاريخية عن حالة المدن الفينيقية فيما بين ٦٤٠ ، ٥٩٠ ق . م . ، ولكن يبدو أن ضعف الامبرطورية الآشورية والقضاء عليها على يد الميديين والبابليين سنة ٦١٢ ق . م . هيأ لتلك المدن فترة من الرخاء المؤقت كما يحتمل أنها لم تمانع في توسع «نخاو» ثاني ملوك الاسرة السادسة والعشرين المصرية ، الذي توغل في فلسطين وأراد فتح سوريا بأكملها ولكن انتصار نيوخذ نصر ملك بابل عليه في قرقميش سنة ٦٠٥ ق . م . كان بداية محنة للمدن الفينيقية فقد هاجمها نيوخذ نصر (٦٠٥ - ٥٦٢ ق . م .) وحاصر صور التي ظلت تقاوم ثلاث عشر عاماً (٥٨٦ - ٥٧٢) حتى خضعت في النهاية كما خضعت صيدا وغيرها - وقد خلع نبوخذ نصر ملك صور المنهزم «ايتو بعل» وعين في مكانه «بعل» الذي أخلص له فبقي على عرش صور

---

(١) أنظر ص٥٠ .

من سنة ٥٧٥ الى سنة ٥٦٤ ق . م . وكان يعاونه وزير بابلي - وبانتهاء عهد « بعل » توقف تتابع الملوك مؤقتاً وتولى الحكم قضاة لمدة سبع سنوات باستثناء ملك واحد حكم لمدة سنة واحدة ثم جاءت بعد ذلك سلالة من الملوك بدأها «ميربال» الذي حكم اربعة أعوام ثم تبعه أخوه حيرام (٥٥٢ - ٥٣٢ ق. م.).

ولا توجد معلومات مباشرة عن المدن الفينيقية على أثر سقوط الدولة البابلية على يد الفرس ولكن من الواضح أنها لم تكن في حالة تسمح لها بإبداء أي معارضة بل وربما رحبت بذلك الحدث التاريخي إذ خلصهم من نير الحكم البابلي الذي عرف بالقسوة - ومع أن الكتاب المقدس يشير الى أن كورش الثاني[١] سمح لليهود بالعودة من منفاهم في بابل الى فلسطين ليحصلوا على أخشاب الأرز من الصيدونيين والصوريين لبناء معبدهم الجديد إلا أن ذلك لا يعطينا فكرة واضحة عن حالة المدن الفينيقيةولكننانعرف عنها أكثر من ذلك في عهد خلفة قمبيز الثاني حيث وضعت المدن الفينيقية أسطولها تحت إمرته حينما أعد لحملته على مصر غير أنها ، كما يذكر هيرودوت ، لم توافقه على الإسهام في الحملة التي كان يعدها لغزو قرطاجة مما يوحي بأنها كانت متمسكة بأواصر الود مع مستعمراتها السابقة .

وعندما قسم «داريوش» امبراطوريته الى ولايات إدارية جعل المدن الفينيقية تمثل الولاية الخامسة في امبراطوريته ولكنه أبقى لها حكمها الذاتي تحت رقابة وزراء عسكريين من الفرس لكي يضمنوا ولاءها واستمرارها في دفع الجزية .

ومن المحتمل أن المدن الفينيقية قنعت بهذا النظام إذ لا يوجد ما يدل على حدوث ثورة ضده بل تشير المصادر اليونانية الى المساعدة القيمة التي قدمتها المدن الفينيقية «لداريوش» (٥٤٢ - ٤٨٦ ق . م .)و«اجزركيس» (٤٧٥ - ٤٦٥ ق . م .) في حروبها ضد اليونان كما تشير أيضاً الى

---

(١) مؤسس الاسرة الاخمينية في فارس .

معاونتهم «لأرتجزركسيس الأول» (٤٦٥ - ٤٨٦ ق . م) و«لداريوش الثاني» (٤٢٥ - ٤٠٤ ق . م .) ومن هذه الاشارات يبدو أن أخلاص الفينيقين للفرس كان في مقابل السماح للمدن الفينيقية بالتوسع فيما جاورها - فبعض المصادر الكلاسيكية تشير الى أن رقابة جزء كبير من الساحل السوري (الفينيقي) نيطت بمدينة صور، وأن أرواد مدت نفوذها في المنطقة الساحلية، وأن صيدا امتلكت دوراً (طنطورة الحالية) ويافا كما أشارت مصادر أخرى الى أن هذه المدن الثلاثة اشتركت في بناء أو إعادة بناء طرابلس إذ أن كلاً منها أسست فيها قسماً (حياً) خاصاً بها، ومن ذلك نتبين أن الحكم الذاتي والوفاق السياسي ساد بين المدن الفينيقية[1].

وبعد معركة إسوس (سنة ٣٣٣ ق . م .) فتحت مدن فينيقيا الرئيسية أبوابها للأسكندر بينما ظل ملك صور على ولائه للفرس وفي نفس الوقت اراد أن يحتفظ بالاستقلال - وقد شجعت بعثة قرطاجية صور على المقاومة، غير أن الاسكندر لم يكن على استعداد للتخلي عن جزيرة صور لموقعها الاستراتيجي فبنى حائطاً يوصل بينها وبين الساحل وحاصرها بمساعدة سفن المدن الفينيقية الاخرى التي نقضت تبعيتها للفرس على إثر موقعة إسوس وتجمعت السفن في صيدا بينما رجعت سفن صور الى جزيرتها - ولم تتلق صور من قرطاجة المعونة التي كانت قد وعدت بها ونجح الاسكندر في الاستيلاء عليها بعد مقاومة عنيفة، وقد لجأ الملك والزعماء والمبعوثين القرطاجيين الى معبد ملقارت للاحتماء به فعفا عنهم الاسكندر وأعيد بناء المدينة في هيئة قلعة مقدونية استعمرها المقدونيون .

وقد تعرضت المدن الفينيقية بعدئذ لأزمات خطيرة وتغلغلت فيها الثقافة الهللينية التي قضت تدريجياً على التراث القديم واختفت كذلك اللغة الفينيقية تدريجياً وحلت محلها اللغة اليونانية، غير أن تدهور المدن الفينيقية لم يكن سريعاً بل تم ببطء وتخللته فترات متباعدة من الانتعاش والاستقلال وفي هذه الاثناء كانت في كل من صور وصيدا آسرة حاكمة حصلت على استقلال

(١) أنظر ص٥٠.

مؤقت وتمتعت لفترات قصيرة بدويلات مدن قامت في صور ابتداء من سنة ١٢٠ق.م. وفي صيدا ابتداء من سنة ١١١ق.م. وحتى بعد الغزو الروماني سنة ٦٤ ق.م. تمتعت كل من صور وصيدا وطرابلس باستقلال جزئي ولم يكن ذلك الا لمجرد التمسك بإحياء الماضي والعودة الى التقاليد الموروثة وأوجبته الظروف الجغرافية كما أنه كان يتلاءم مع إطار التطور التاريخي العام .

سادساً : صيدا :

منذ عام ١٨٥٦ أخذ الاهتمام بالتنقيب يتزايد في المدن الفنيقية وبالقرب منها ، وحظيت صيدا بقدر كبير من هذا الاهتمام وربما كان سبب ذلك يرجع إلى أن أحد الفلاحين لاحظ انهياراً في أحد اركان تل صغير قائم عند التقاء طريقين من الطرق المؤدية من صيدا الى الريف فلما اقترب منه وجد قبراً أعراه انهيار التل وبه تابوت في هيئة توابيت المومياء المصرية وعلى غطائه نقش طويل ، وقد تبين فيها بعد أن النقش فينيقي وأن المقبرة لأحد ملوك صيدا وقد نقل هذا التابوت الى متحف اللوفر .

ويمكن القول بأن تلك الاكتشافات تؤيد الى حد بعيد ما تشير اليه دلائل أخرى من أن صيدا كانت ذات أهمية خاصة بين المدن الفينيقية . فالكتاب المقدس يشير الى الصيدويين للتعبير عن الفينيقيين مما يوحي بأن صيدا كانت لها السيادة على المدن الرئيسية للفنيقيين أوعلى الاقل اختارتها تلك المدن لزعامتها ، ومن رواية جاءت في كتابات يوسيفوس يمكن أن نستنتج بأن جماعات صيدونية ذهبت الى صور في أعقاب غزو شعوب البحر لمدينتهم وأنها جددت في مبانيها التي كانت تلك الشعوب قد خربتها من قبل .

وبعد أن قام «تيجلات بلاسر الأول» (١١١٢ - ٨٢٤ق.م.) بحملة على سوريا العليا فرض الجزية على أرواد وبيبلوس وصيدا ، ومن المحتمل كذلك أن العبرانيين أخضعوا جزءاً كبيراً من الساحل الفينيقي حيث أن الكتاب المقدس يشير إلى أن رسل داود وصلوا الى مناطق مختلفة ومن بينها صيدا .

وقد قام «شلمناصر الثالث» (٨٥٩ - ٨٢٤ق.م.) في السنة الحادية والعشرين من حكمه بحملة الى فينيقيا وحصل على جزية صور وصيدا

وبيبلوس ،أما «أدادنيراري الثالث» (٨٠٩ - ٧٩٢ق.م.) فقد توغل في الاقليم السوري الى مناطق الفلسطينيين والايدوميين وفرض الضرائب على صور وصيدا .

ومن الممكن القول بأن سياسة ضم اجزاء من الاقليم السوري الى ممتلكات آشور اتخذت شكلاً ايجابياً في عهد «تيجلات بلاسر الثالث» (٧٥٤ - ٧٢٧ق.م.) فقد ضم بعض دويلات المدن في الساحل وعين عليها حكاماً اشوريين ولكن من المرجح أنه اقتصر على شمال فينيقيا تاركاً بيبلوس وارواد في حالة استقلال ذاتي نسبياً ، ويشير نقش فينيقي عثر عليه في قبرص الى أن حاكمًا محلياً بها كان تابعاً لحيرام الثاني ملك الصيدونيين[١] مع ان هذا الاخير كان يحكم صور ودفع الجزية « لتيجلات بلاسر الثالث » مما يوحي بأن هذه المدينة لم تستعد استقلالها فحسب بل حكمت المنطقة المجاورة لها أيضاً، هذا ولم تذكر صيدا في نقوش هذا الملك وربما كانت خاضعة لصور.

ولا توجد إشارات صريحة عن صيدا في حملات « شلمناصر الخامس » وخلفه « سرجون الثاني » على الاقليم السوري ، ولكن سنخريب (٧٠٥ - ٦٨١ق.م.) قام بأكثر من حملة . ويذكر في نصوصه أنه في حملته الثالثة وجه ضرباته الى بلاد سوريا الحيثية وأن ملك صيدا هرب الى البحر رعباً منه ثم مات ، وقد أخضع سنخريب صيدا وأجلس على عرشها «ايتو بعل الثاني » وفرض عليه جزية دائمة وجعل له السيادة على فينيقيا وبذلك انتزع من صور نفوذها وقوتها إذ أننا نعلم من نصوص أخرى أن ملك صور فر الى قبرص حيث مات بها مما يدل على أن صيدا كانت تابعة لصور وأن ملك هذه الاخيرة كان يحكم صيدا ومناطق أخرى مجاورة ، ومع أن «سنخريب» يشير الى أنه أخذ أسرى من الصوريين والصيدونيين والبحارة القبرصيين إلا أن من المرجح أن هؤلاء كانوا من حملاته السابقة .

وفي عهد «اسر حدون» (٦٨١ - ٦٦٨ق.م.) تحالف «عبد ميلكوتي»

---

(١) انظر أعلاه ص٤٢ .

خليفة «ايتوبعل الثاني» ملك صيدا مع ملك كيليكيا ضد العاهل الاشوري الذي استطاع أن يدمر صيدا وأن يسوي مبانيها بالأرض سنة ٦٧٧ق.م. بعد أن حصل منها على غنائم كثيرة وقبض على ملكها في عرض البحر عند فراره وقتله، ثم بنى مدينة جديدة على انقاض صيدا التي دمرها وجلب لها سكاناً من جهات مختلفة وعين عليها حاكمًا اشورياً، وقد انقسمت فينيقيا في عهده الى ثلاث ولايات كانت صيدا تمثل الوسطى منها[١]، ولا يعرف شيء على وجه التحديد عن حالة المدن الفينيقية فيما بين عامي ٦٤٠، ٥٩٠ق.م. أي في أواخر عهد الدولة الاشورية وبداية الدولة البابلية الكلدانية ثم تعرضت بعد ذلك لحملات نبوخذ نصر (٦٠٥-٥٦٢ق.م.) الذي أخضع صور وصيدا وغيرهما من المدن الفينيقية.

ولما انتقلت السيادة في الشرق الادنى القديم الى الدولة الفارسية كانت فينيقيا تعتبر الولاية الخامسة في الامبراطورية الفارسية، وتحت حكم «ارتجزركسيس الأول». وبالرغم من أن الحكم الذاتي والوفاق السياسي سادا بين المدن الفينيقية في عهد الفرس كما سبق ان اشرنا[٢] إلا أن بعض الدلائل تشير الى أن صيدا كانت لها السيادة وكان للعاهل الفارسي قصر بها كما يستدل على ذلك من البقايا الاثرية التي عثر عليها.

وقد حكمت صيدا أسرة حاكمة ترك ملوكها نقوشاً تلقى بعض الضوء على تاريخها، ويبدو أن مؤسس هذه الاسرة كان يدعى «اشمونازار» الذي لا نعرف عنه شيئاً يذكر- وخلفه ولده «تابنيت» ثم جاء من بعد هذا الاخير «اشمونازار الثاني» الذي ترك نقوشاً تبين أنه بنى معابد للآلهة وتذكر بوضوح أن «ملك الملوك» (أي امبراطور فارس) زاد في مساحة صيدا وأضاف إليها دوراً (طنطورة) ويافا ومنطقة أخرى في سهل شارون مكافأة له على أعماله المجيدة، ويضيف «اشمونازار الثاني» الى ذلك قوله بأنه أضاف هذه البلاد الى حدوده «وهكذا ستصبح تابعة لصيدا الى الأبد».

---

(١) انظر ص٤٤-٤٥.
(٢) انظر ص٤٦.

ومن ملوك هذه الاسر الصيدونية ثلاثة كل منهم يدعى «بودا شتارت» وفي نقش لأحدهم يذكر أنه حفيد «اشمونازار» وأن ولي عهده «ياتون ملك» ولكننا لا نعرف من هو «اشمونازار» الذي يقصده ، كما أننا لا يمكن ان نجزم بأن ولي عهده تولى الحكم بالفعل ، ومن الواضح ان «أشمونازار» المقصود لا يمكن ان يكون هو نفسه الذي ذكر صراحة في نقوشه بأنه تولى العرش وهو صغير كما تدل نقوشه على انه لم يعش طويلاً مما يوحي بأنه حكم تحت وصاية امه .

ويدل طراز النقوش التي على توابيت هؤلاء الملوك على أنهم عاشوا في القرن الخامس قبل الميلاد ، وإذا ما افترضنا أن الاعمال المجيدة التي من أجلها كافأ الملك الفارسي «اشمونازار الثاني» تتلخص في مساعدة هذا الاخير ملك فارس باسطوله في حربه ضد اليونان فإن من المرجح أن «اشمونازار» كان يعيش حوالي سنة ٤٥٠ ق.م .

وفي القرن الرابع قبل الميلاد حدث تحول في سياسة المدن الفينيقية تجاه الفرس، فحينما احتل اليونان قبرص سنة ٣٩٢ق.م. وهاجموا المدن الفينيقية خضعت لهم صور ومدن فينيقية أخرى مؤقتاً ، ثم أصبح «عبد عشتارت» ملك صيدا سنة ٣٦٢ق.م. علي علاقات ودية معهم حتى أطلق عليه لقب «محب الهللينيين» وفي نفس الوقت رحب بوصول جيش مصري حينما كانت فارس مشغولة بإخماد الثورات التي حدثت في بعض ولاياتها ، وربما كان الفينيقيون يطمعون في الاستقلال عن فارس ولكن نجاح فارس في إخماد الثورات التي قامت ضدها قضى على آمال المدن الفينيقية في الاستقلال .

وحينما ثار «تنيس» ملك صيدا سنة ٣٤٦ق.م. جاء «ارتجزركسيس» وقضى على ثورته بقسوة حيث أحرق صيدا وقتل أكثر من اربعين الفاً من سكانها ولم ينج ملكها من نفس المصير- ثم تولى الحكم في صيدا والي جديد ولكن ما لبث أن وصل الاسكندر فخضع له هذا الوالي خضوعاً تاماً وبذلك انتهى الحكم الفارسي منها .

سابعاً : عكا :

ربما كانت أقصى مراكز الاستقرار الفينيقية جنوباً ولا يعلم الكثير عن تاريخها القديم ، ولكنها كمعظم المدن الفينيقية تعرضت لغزوات مختلفة من أهمها تلك التي استولى فيها سنحريب عليها في حملته الثالثة[١] ، وتلك التي أخضعها فيها اشور بانيبال بقسوة بعد ثورتها ضده[٢] .

(١) Moscati, S., "The world of the Phoenicians", Translated from Italian by Alastair Hamilton (London, 1968), p.19

(٢) Moscati, op.cit., p.23

التوسع الفينيقي

لا شك في أن الظروف الطبيعية والحضارية لعبت دوراً كبيراً في اتجاه الفنيقيين الى البحر واعتمادهم عليه في صميم حياتهم ، فبالاضافة الى صيد الأسماك حصلوا منه على نوع من الأصداف استخرجوا منه نوعا من الأصباغ كان له أثر غير مباشر في نشاطهم التجاري إذ كانوا يصبغون به منسوجاتهم التي تزايد الاقبال عليها واشتهرت باسم « الأرجوان » ، وقد ارتفعت أثمان هذه المنسوجات حتى أصبحت من ملبوسات الملوك وعليه القوم ورمزا لهم حيث كان الواحد منهم يوصف بـأنه «مـولود في الأرجـوان» - ولم يكتف الفينيقيون بالحصول على هذه الأصداف من سواحلهم بل كانوا يجلبونها أيضاً من سواحل بعيدة.

وأدّى تنقلهم في البحر الى تبادل التجارة مع الأماكن التي ترسو سفنهم على سواحلها ، وشيئا فشيئا أنشأوا مراكز تجارية لهم ومراكز استيطان تتوافر لهم فيها وسائل المعيشة والأمن .

ففي البداية كانوا يتنقلون في البحر مساحلة أو يقطعون مسافات قصيرة ، ويفضلون الالتجاء الى جزر صغيرة أو رؤوس ساحلية يمكن لسفنهم أن ترسو عليها وتحتمي بها من هياج البحر - وينبغي أن تكون خلف هذه الأماكن مناطق داخلية يعيشون فيها مهما صغرت مساحتها على أن يكون بها مصدر أو مصادر للمياه العذبة - ولم يكن من الأهمية لهم أن تكون سواحل تلك الأماكن ذات عمق كبير لأن سفنهم لم يكن غاطسها عميق ورسوها في المياه الضحلة كان أكثر أمنا .

وكان الفينيقي يحرص على دفن موتاه في مقابر منحوتة في أعماق

الصخر ، ولذا عمد الفنيقيون الى اختيار الأماكن التي بها تلال صخرية يمكنهم حفر قبورهم فيها - وكان الملاحون قديما يرسون بسفنهم ليلا ثم يستأنفون الابحار نهارا ، وعلى ذلك يمكن تعيين أماكن رسوهم بتقدير المسافة التي كان يمكنهم قطعها بين كل مرحلة والمرحلة التي تليها .

ونظرا لأن توسع الفينيقيين والقرطاجيين كان عن طريق البحر ، فإن مراكز استيطانهم الداخلية كانت ذات أهمية ثانوية ، ومع ذلك فإنهم كانوا يحرصون على أن تكون في مرتفعات يسهل الدفاع عنها وفي نفس الوقت تكفل الحماية للطرق الساحلية وتحرس الطرق المؤدية الى المناطق الداخلية كذلك - ولا بد من أن يكون الماء العذب ميسورا أيضا ، لهذا تعد «قسطنطينة» « بالجزائر » و « مونت سيراي » في سردينيا نموذجين في هذا المضمار .

ويغلب الطابع التجاري على التوسع الفينيقي والقرطاجي من بعده، فلم تكن هناك اتجاهات للاحتلال وتكوين مراكز ثابتة أو لتهجير السكان على نطاق واسع ، فالتوسع الفينيقي والقرطاجي لم تصحبه مثل هذه المظاهر في أول الأمر وربما لم تحدث على الاطلاق ولكن أمكن حدوثها فيما بعد، أي أن حدوثها جاء متأخراً عن هذا التوسع .

ومن المرجح أن التوسع الفينيقي بدأ في نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد حيث يذكر بعض الكتاب الكلاسيكيين أن قادس (على الساحل الجنوبي لأسبانيا في شمال غرب جبل طارق) أسست في سنة ١١١٠ ق. م. وأوتيكا (على الساحل الشمالي لأفريقيا غرب قرطاجة) في سنة ١١٠١ ق. م. أما ليكسوس (على الساحل الاطلنطي لأفريقيا) فإنها كانت قبل ذلك - ومهما كان الأمر فإن انتشار الفينيقيين غربا جاء في أعقاب وصول شعوب البحر وقبل ظهور اليونان ، ومما يؤكد ذلك أن الكتاب المقدس يشير إلى أن أسطول صور التجاري في عهد سليمان كان قادرا على القيام برحلات طويلة وشاقة[1] كما أن شواهد الأحوال تدل على أن هجوم شعوب البحر على شرق البحر المتوسط

(١) الملوك الألال ١٠/٢٢ .

(حوالي سنة ١٢٠٠ق.م.) قضى على نفوذ الميكينيين الذين كانوا يسيطرون عليه وأدى الى ظهور الفينيقيين في انطلاق شديد - ومرت ثلاثة قرون (الحادي عشر والعاشر والتاسع قبل الميلاد) قبل أن يبدأ اليونان في توسعهم وبعدئذ حدث تنافس شديد بين اليونان والفينيقيين في ميدان التجارة، وعلى أي حال يمكن أن نستنتج بأن التوسع الفينيقي في البحر المتوسط بدأ حوالي سنة ١١٠٠ ق.م. أو قبل ذلك ببعض الوقت.

ولا شك في أن الفينيقيين لم يقتصروا على الاستيطان في الاماكن التي نشأت بها مستعمرات ازدهرت فيها بعد بل كانت جماعات صغيرة منهم تؤسس مراكز تجارية في مناطق تختلف عنها جنسيا وسياسيا، وقد تبقى هذه المراكز كأماكن استيطان صغيرة أو تؤول الى الزوال.

ومن المخلفات الأثرية يمكن الاستدلال على أن الثقافة واللغة الفينيقية انتشرتا في (القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد) شمالا إلى جنوب الأناضول وجنوبا في بضعة أماكن جنوب فلسطين يحتمل أنها كانت محطات تتوقف فيها السفن الفينيقية في طريقها إلى مصر.

ومن المحتمل أن أماكن استيطان الفينيقيين في قبرص وجدت منذ الألف الثاني قبل الميلاد إذ أنها كانت بالتأكيد قائمة في بداية الألف الأول قبل الميلاد. ومن أهم مدنهم فيها كيتيون التي يحتمل أن تكون هي نفسها «قارتيها داشتي» التي ذكرت النصوص الأشورية أن ملكها قدم خضوعه للملك الأشوري «سرجون الثاني» - ومن مدنهم فيها أيضا جولجوي وأيداليون وتاموسوس وماريون ولابيتوس.

ومن الواضح أن الفينيقيين اتخذوا مراكز استيطان في أرخبيل اليونان، ففي رودس استوطنوا المدينتين الهامتين كاميروس وباليسوس حيث تشير الروايات اليونانية إلى أن ذلك تم بإرشاد شخص يدعى فالاس في حوالي الوقت الذي حدثت فيه حروب طرواده وقد طردهم اليونان أو الكاريون فيما بعد - كذلك تشير الروايات اليونانية الى استيطانهم في جزر ايجيه أخرى مثل تاسوس وكيثيرا وميلوس وثيرا وفي جزيرة كريت أيضا.

أما على الساحل الأفريقي فمن المحتمل أنهم أنشأوا مركزا لهم في مصر حيث يذكر هيرودوت أن أحد أحياء منف كان يسمى « ساحة صور » ويضيف إلى ذلك أنه يفترض أن معبداً لاستارته «أفرويت الأجنبية» تأسس هناك عند وصول «هيلين» بعد الحرب الطروادية ومن الواضح أن ما ذكره هيرودوت لا يخرج عن كونه من الأساطير ولكن العثور على أواني فينيقية في تل الرطبة[1] وغيره من ألأماكن في الدلتا يوحي بأن من الممكن أن يكون الفينيقيون قد اتخذوا مراكز تجارية لهم في بعض المدن أو أماكن للتوقف فيها أثناء رحلاتهم البحرية الطويلة ، وبالطبع فإن الاستيطان والاستعمار الفينيقي لم يكن ممكنا إلا في الجهات الضعيفة نسبيا بينما لا يتأتى لهم ذلك في البلاد القوية مثل مصر .

ومما يؤثر أن أقدم المستعمرات الأفريقية على ساحل البحر المتوسط هي أوتيكا ، ويروي أحد الكتاب الكلاسيكيين أن « قادس » تأسست بعد سقوط طروادة بنحو ثمانين عاما وأن أوتيكا تأسست بعدها بقليل ، ولما كانت طروادة قد سقطت حوالي سنة ١١٩٠ ق. م. فإنه يبدو أن قادس تأسست حوالي سنة ١١١٠ ق. م. و«أوتيكا» حوالي سنة ١١٠٠ ق. م. وتأسست « قرطاجة » حوالي سنة ٨١٤ق. م . - وتشير نصوص صور إلى أن «أوتوبعل» أسس مستعمرة «أوسا» في القرن التاسع قبل الميلاد ولكن لم يمكن التعرف على موقعها - أما «ليبتس ماجنا» فيعزي تأسيسها تارة للاجئين الصيدونيين وتارة للصوريين كذلك ينسب إلى الصوريين تأسيس «هادرميتم» وينسب للفينيقيين أيضاً تأسيس «هيبو» -ولا شك في أن هذه الروايات ليست مؤكدة والأحرى أن ينسب تأسيس غالبية هذه المراكز الى قرطاجة التي إزدهرت بسرعة - ويحتمل أن المستعمرات الأخرى كانت «بونية» مثل «أويا» و«سبراتا» و«أشولا» و«تابسوس» و«ليبتس بارفا» و« هرماكون » (رأس بون)، و« فيليب فيل » و«قسطنطينة» و«تشوللو» و« جيجلي » و« تيباسا » و« جورايا» و«ميليللا» و« إيمسا » و« سيدي عبد السلام » و« تامودا » .

وفي جزر البحر المتوسط يبدو أن الفينيقيين استوطنوا في « سيلينونتي » بصقلية منذ نهاية الألف الثاني قبل الميلاد ، وفي « موتيا » في حوالي القرن

(١) غربي « بيثوم (تل السخوطة)» أي أنها تقع إلى الشمال الغربي من مدينة الاسماعيلية الحالية .

الثامن أو السابع قبل الميلاد وتلتها « بالرمو » و« سولونتو » ومن المرجح أن تكون « قرطاجة » قد لعبت دورا كبيرا في ذلك – وكانت مالطة دون شك قاعدة فينيقية وتعود الى القرن الثامن قبل الميلاد ، وقد استوطن القرطاجيون كذلك « جوزو » و« بانتلليريا » و« لامبيدوس » من نفس الفترة أو بعدها بقليل – وفي سردينيا استوطن الفينيقيون « نورا » و«سولسيس» (سانت أنتونيو) و«كارلوفورت» و« ثاروس » . وقد كشفت التنقيبات الحديثة ان استيطانهم في « كارلوفورت » التي عرفت باسم « جزيرة الصقور » كان أسبق من استيطانهم قرطاجنة التي ينسب اليها تأسيس « ايبيزا » في جزر البليار في حوالي سنة ٣/٦٥٤ ق. م. كما يوحي اسم « بورت ماهون » في «مينورقا» بأنها مؤسسة بونية – أما فيما وراء جبل طارق (أعمدة هرقل) ففيه وجدت المستعمرات « طنجة » و« ليكسوس » و« موجادور » وربما كانت هذه المستعمرات قرطاجنية أو أن مستعمرات أسبانية أسبق منها هي التي أسستها .

ومن الغريب أن « قادس » مركز الاستيطان الفنيقي في اسبانيا ترجع الى أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد بينما ترجع مراكز الاستيطان الأخرى فيها الى القرن العاشر قبل الميلاد على الأرجح .[(١)] .

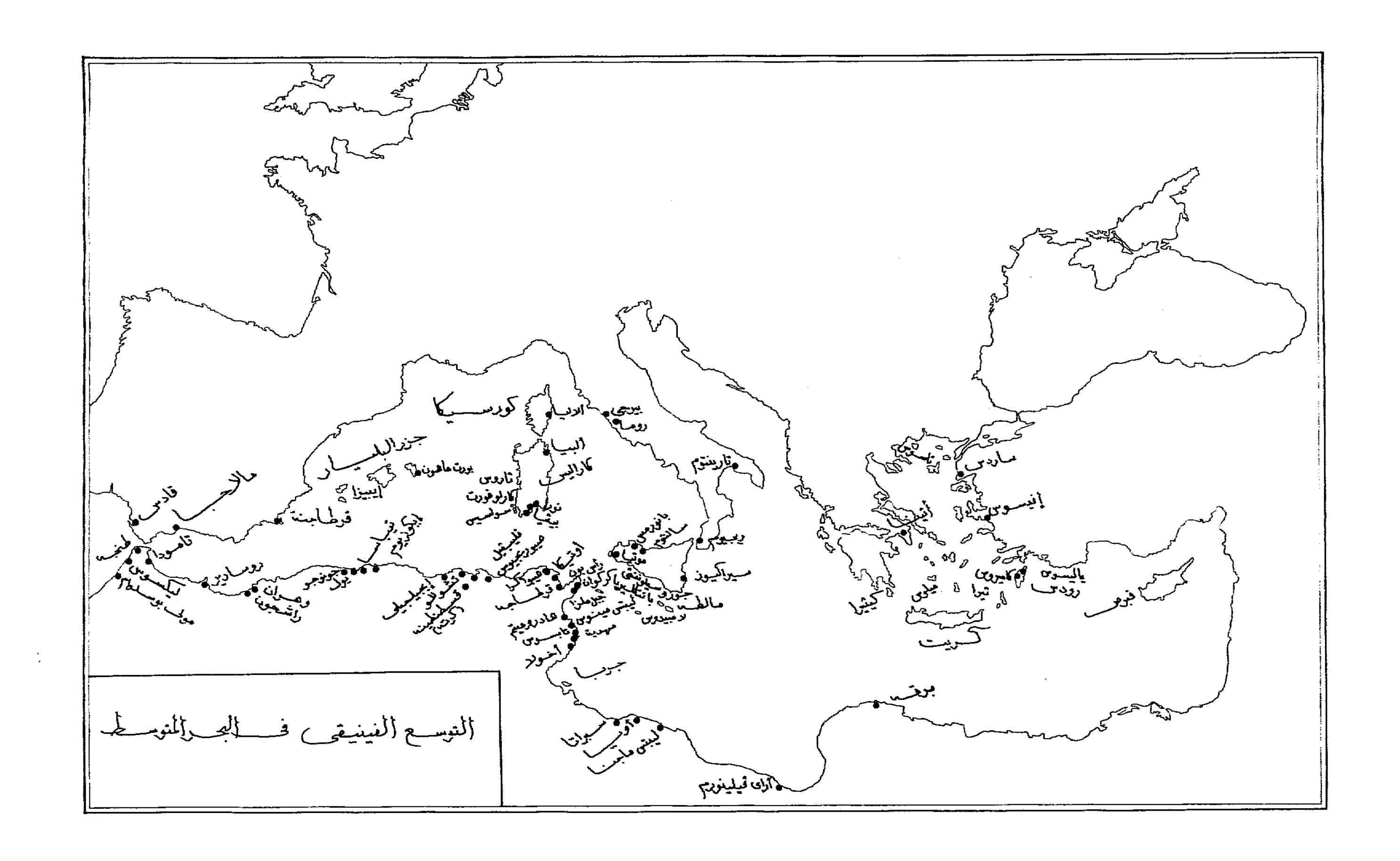
أما قبرص فقد كان لوضعها بالنسبة للفينيقيين ما جعلها تنفرد بمميزات خاصة جعلتها تختلف عن المستعمرات الفينيقية الأخرى.

الفينيقيون في قبرص :

كانت قبرص المستعمرة الفينيقية الوحيدة التي تطورت فلم تقل عن مثيلاتها في الغرب، ونظرا لقربها من الوطن الأم كان التبادل بينهما سائدا الى درجة أنه كان من العسير التمييز بين ما هو فينيقي وما هوقبرصي الأصل وخاصة في ميدان الفن – ومن الممكن استنادا للأساطير وما روي من أشعار (ولو أنها من عصور متأخرة) أن نستنتج بأن الوجود الفينيقي في الجزيرة كان قديما .

وكانت أكبر المستوطنات الفينيقية في قبرص هي كيتيون. ومما يؤكد ذلك أن البعثة الأثرية السويدية الى قبرص كشفت عن أكروبول يعود الى القرن

(١) أنظر خريطة رقم ٢ .



التوسع الفينيقي في البحر المتوسط

الحادي عشر ق. م. يحتمل أنه بني بواسطة المستوطنين الفينيقيين الأوائل وخاصة لأن إعمار قبرص بسكان من الساحل الآسيوي كان قبل استقلال المدن الفينيقية - وكان اتصال المنطقتين ببعضهما منذ عصر البرونز الوسيط[1] على نطاق واسع ، ويتبين من بعض الكتابات الفينيقية التي عثر عليها أنها ذات طابع يرجع الى القرن التاسع قبل الميلاد ، وهذه الكتابات الفينيقية التي عثر عليه في « نورا » بجزيرة سردينيا تدل على بدء الفينيقيين سياسة التوسع أو على وجود فينيقي في هذه المناطق ، كما أن نقشا فينيقيا وجد في قبرص يعود الى النصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد .

ومع أن حيرام الثاني ملك صور دفع الجزية «لتيجلات بلاسر الثالث» ملك آشور فإن أحد النقوش التي عثر عليها في الجزيرة يذكر أن حاكم احدى المدن يطلق على نفسه اسم « خادم حيرام ملك الصيدويين » مما يدل على أن صور كانت لها مستعمرة في قبرص أو أن دولة قبرصية صغيرة كانت خاضعة لصور ، ويحتمل أن هذه الدويلة كانت كيتيون فلو أن هذه كانت أهم المدن الفينيقية في الجزيرة لكانت هناك دون شك مدن أخرى وهذا ما تؤيده بعض النقوش التذكارية حيث يتبين من النقوش التي تركها بعض ملوك آشور وجود مستوطنات أخرى في جولجوي وايداليون وتاماسوس وماريون ولابيتوس، وبالرغم من عدم معرفتنا حوادث تاريخية معينة في تلك المدن إلا أن«سرجون الثاني»الذي غزا قبرص يذكر في حولياته الجزية التي أداها القبرصيون له ، كما أن تكرار الإشارة الى الأمراء المحليين في المصادر الأشورية بعد ذلك يوحي بأن هؤلاء الأمراء استعادوا بعضا من استقلالهم الذاتي كما حدث في المدن الفينيقية على الساحل السوري ومنطقة سوريا/فلسطين على وجه العموم .

ومن الممكن أن نستنتج بأن المدن القبرصية - بعد «سرجون الثاني» - لم تعد تتجه بأنظارها نحو فينيقيا بل كانت تتجه نحو آشور ، وكان ذلك من الأهمية بمكان لأنه يدل على تغير جذري في سياسة البحر المتوسط إذ نتج عن

(١) يؤرخ عصر البرونز المتوسط عادة بالفترة ما بين ٢١٠٠ - ١٥٥٠ ق. م .

ذلك ان الفينيقيين فقدوا سيادتهم على الطرق التجارية حيث أصبحت هذه تخضع لسلطان القوى الأعظم في الشرق الأدنى .

وحينما تجمع حلف في الاقليم السوري ضد آشور كان من بين أعضائه « لولي » (أو ايلولا يوس Elulaeus) ملك صور وما حولها الذي فر إلى قبرص ومات بها بعد انتصار سنحريب على الحلف في سنة ٧٠١ ق. م. وهكذا يتضح أن الصلات بين صور وقبرص كانت ما زالت قائمة وأن قبرص كانت الملجأ الذي احتمى به ملك صور .

وقد ترك « اسرحدون » (٦٨٠ - ٦٦٩ ق. م.) قائمة بأسماء الحكام التابعين له ومن بينهم بعض ملوك قبرص - ومما هو جدير بالذكر أن بعض هؤلاء الملوك كان يحمل أسماء يونانية - ولم يمكن التعرف على مواقع بعض المدن التي ذكرها ، فقد أشار أشوربانيبال (٦٦٨ - ٦٢٦ ق. م.) الى حكام قبرص التابعين لآشور في عهده ، ويعني ذلك أن المستعمرات الفينيقية أصبحت لا تذكر وقد استمر ذلك حتى سنة ٤٤٩ ق. م. حينما غزا الفرس الجزيرة ثم أخذت بعض الاسرات الحاكمة - في عدد من المدن - في الازدهار وكان الفرس يؤيدونهم كمناوئين لليونان - وقد عثر على عدد من النقوش الفينيقية التي ترجع الى الفترة ما بين القرن الخامس والقرن الثالث قبل الميلاد يكفي لتكوين فكرة عن بعض الأحداث وعن أسماء بعض ملوك هذه الأسرات .

وقد حكم في «كيتيون» أحد الملوك حوالي ٤٥٠ ق. م. وكان يحمل اسما فينيقيا وكذلك كان ولده الذي مد سلطانه الى « ايداليون » ثم تبعه ولده الذي احتفظ بسلطانه ثم انتهت الأسرة سنة ٤١٠ ق. م. وجاءت في أعقابها أسرة جديدة بدأت سنة ٣٧٢ ق. م. وأخذ ثاني ملوكها في مد سلطانه حتى شملت مملكته مدن « كيتيون » «وايداليون» و« تاماسوس » . وقد استمرت المملكة حتى سنة ٣١٢ ق. م. حينما ضمها بطليوس الأول إلى ملكه بعد أن قهرها وهكذا أنهى الحكم الذاتي لأسرتها الفينيقية .

وتمدنا بعض العملات التي عثر عليها واستخدمت في « لابيتوس »

بمعلومات عن ملوك هذه المدينة[1]، ففي أواخر القرن الخامس ق. م. يظهر اسم أحد الملوك مكتوباً بالفينيقية، وفي بداية القرن الرابع يظهر نفس الاسم بنفس الكتابة، ثم من النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد يذكر أحد النصوص اسم ملك فينيقي آخر مكتوبا بالفينيقية، وربما كان ثاني ملوك تلك الأسرة.

ولم تقض الغزوة البطلمية على استقلال دول المدن كما يستدل على ذلك من الكتابات التي ذكرت تاريخ كيتيون (سنة ٣١١ ق. م.)، لابيتوس (سنة ٣٠٤ ق. م.).

ويشير أحد النصوص الى استمرار الحالة على ما كانت عليه بعض الوقت ويدل على حيوية اللغة الفينيقية في مضمار الأدب على الأقل.

(١) أنظر الخريطة رقم (١).

الفينيقيون الغربيون والقرطاجيون في أفريقيا

نشأة قرطاجة

وصلتنا معظم معلوماتنا عن الفينيقيين «الغربيين» والقرطاجيين في شمال افريقيا من مصادر غير مباشرة ، فالآثار والنقوش التي عثر عليها في المستعمرات الفينيقية في شمال افريقيا وخاصة التي وجدت في قرطاجة لا تدل على الأنشطة الإجتماعية والسياسية بل تنصب معظمها على الأمور الدينية .

وقد ركز كتاب اليونان والرومان على الحروب التي نشبت أولاً بين قرطاجة وسيراكيوز ثم على الحروب التي حدثت بعد ذلك بين قرطاجة وروما ، فجاءت معلوماتهم في هذا المضمار وافية ومفصلة وخاصة لأنها كتبت بعد الأحداث مباشرة ومن الممكن اعتبارها روايات صادقة عنها ، ومع ذلك فهي لا تخلو من ثغرات يصعب معها ترتيب هذه الأحداث في سلسلة متكاملة الحلقات ، كما أن كتابات اليونان والرومان عن قرطاجة كانت تخضع لتأثير عوامل مختلفة إذ أن هؤلاء كانوا ينظرون إليها نظرة حقد وعداوة ولذا نسبوا إلى أهلها القسوة والخيانة واستثنوا من ذلك هانيبال[1] وقد يكون ذلك لتبرير الهزائم المتكررة التي أوقعها بالرومان حيث أشادوا بأخلاقه ومهارته – وكثيراً مابالغوا في قوة قرطاجة فالأرقام التي ذكروها عن جيشها واسطولها وسكانها بصفة عامة وكذلك عن ثروتها وامتداد سلطانها تتجلى فيها المبالغة بوضوح .

وهكذا فإن مانعلمه عن الاستعمار الفينيقي في شمال افريقيا وعن

---

(١) قائد قرطاجة الذي حارب الرومان في ايطاليا وهدد روما نفسها .

قرطاجة تشوهه طبيعة الوثائق المهشمة في بعض مواضعها أوعدم صدور هذه الوثائق مباشرة من مصادر فينيقية أو محلية موثوق بها .

تأسيس قرطاجة :

تتفق المصادر الكلاسيكية في أن تأسيس قرطاجة يرجع إلى سنة ٨١٢ق . م . أو سنة ٨١٣ق . م . ولكن لابد من التعرض لمشكلة قيام هذه المدينة من مستوطنة فينيقية سابقة أو أنها أسست كمدينة مباشرة – وهناك أسطورة تنسب إلى «فيلوستوس» (Philistus)» ، وهو يوناني من سيراكيوز عاش في القرن الرابع ق . م . ذكر فيها أن تأسيسها يرجع إلى شخصين من صور وهما «أزوروس أو زوروس» (Azoros; Zoros) و«كارتشيدون» (Karchedon) قبل الحرب الطروادية بقليل ، ولكن يبدو أن هذه الرواية لا تتفق مع الواقع والأرجح أن قرطاجة (Carthage) التي تعني « المدينة الجديدة » يمكن أن تدل على أنها كانت جديدة بالنسبة إلى الوطن الأصلي للفينيقيين ، ومع ذلك لا يستبعد أن تكون قد أسست في وضع كان معروفاً من قبل للفينيقيين .

وإذا ما رجعنا إلى أحداث ٨١٤ – ٨١٣ق . م . نجد ان مصادر كلاسيكية مختلفة ذكرت أن مؤسسي قرطاجة جاؤا من صور – وهي تشير إلى أن « اليسا » (Elisa) أخت « بيجماليون » تزوجت « اشارباس » (Acharbas) (عمها أو خالها) كاهن الآله ملقارت العظيم الثراء ، ولكن أخاها « بيجماليون » (Pygmalion) قتل هذاالكاهن – وعلى ذلك فرت « اليسا » مع جماعة من المخلصين لزوجها خفية إلى قبرص ، وبعد أن قدموا فروض الطاعة والولاء للآله ملقارت انضم إليهم (Juno) كاهن استارته (عشتارت) شريطة أن تكون الكهانة في البلاد التي سيستعمرونها وراثية في عائلته – وقد اصطحبت كذلك ثمانين فتاة من أجل الدعارة المقدسة حفاظاً على العقيدة الفينيقية ، ثم ابحر الجميع مباشرة إلى المكان الذي ستؤسس فيه قرطاجة .

ومن الطريف أن إحدى الأساطير تشير إلى دهاء «اليسا» فيما يختص بالمساحة

التي ارادتها لهذه المدينة إذ انها ساومت على شراء قطعة من الأرض لا تزيد عن مساحة جلد ثور، وطبقاً للاتفاق جاءت بجلد ثور وقطعته إلى شرائح رفيعة جعلتها في شريط متصل طويل احاطت به الأرض التي تريدها. وهذه الأسطورة تكررت مرة أخرى في صدر الإسلام في مصر حيث نسب إلى عمرو بن العاص انه لجأ إلى مثل هذه الحيلة عندما أراد أن يحصل على رقعة مناسبة من الأرض لبناء المسجد في القسطاط - وهكذا استطاعت « اليسا » ان تستولي على كل التل الذي احتلته قرطاجة فيما بعد.

وقد استقبل المستعمرون بالترحاب وجاء الرسل لهم من اوتيكا محملين بالهدايا من مواطنيهم. وقد وقع «هيارباس» (Hiarbas) الملك المحلي، الذي سمح للمنفيين أو الهاربين بالاستمرار في اقليمه، وقع في غرام « اليسا » وأراد ان يتزوجها وصارح أحد المشاهير بأنه سيعلن الحرب عليها إذا لم تقبل الزواج منه ولكن « اليسا » التي أرادت ان تخلص لذكرى زوجها أقدمت على الانتحار ولذا قدسها القرطاجيون طوال عصر قرطاجة إلى أن زالت من الوجود[1] بعد أن قضى عليها الرومان.

وتشير المصادر الكلاسيكية إلى ان قرطاجة تأسست قبل الاولمبياد الأول[2] بثمانية وثلاثين عاماً، أي في سنة ٨١٤ق. م. ومما يؤيد ذلك أن أحد هذه المصادر يذكر بأنها ظلت قائمة ٦٦٧ سنة وباحتساب تاريخ القضاء عليها وتدميرها سنة ١٤٦ ق. م. يمكن التوصل إلى نفس النتيجة تقريباً على اعتبار أن تأسيسها يرجع إلى سنة ٨١٣ق. م.

ومما يؤيد الأصل الصورى لقرطاجة ما تذكره بعض المصادر عن ارسال قرطاجة سنوياً لسفراء أومبعوثين إلى صور وكان هؤلاء يحملون معهم دائماً

---

(١) Moscati, op. cit. , P. 115

(٢) عقدت الألعاب الاولمبية لأول مرة سنة ٧٧٦ق. م. في « اولمبيا » باقليم « إيليس » (Elis) بغرب اليونان.

قرابين لمعبد هرقل (ملقارت) . وإذا ما كانت هذه القرابين تمثل ١٠/١ (عشر) دخل المدينة، كما تبين بعض المصادر، فإن من الممكن اعتبار هذه القرابين نوعاً من الجزية - ومع أن هذه القرابين (أو الجزية) خفضت فيما بعد إلا أن القرطاجيين في أوقات الخطر كانوا يتذكرون إله صور ويعودون إلى تمجيده ويزيدون من القرابين التي يقدمونها له .

ومن المرجح أن قرطاجة كانت تقع إلى جنوب حصن «بيرسا» (Byrsa) قرب لوكرام (Lekram) حيث أن هذا المكان يحميه موقعه من الرياح كما أن بعض الكشوف الاثرية تؤيد ذلك، ولا بد أن المستوطنين الأوائل حرصوا على أن يكون التل القائم بالمنطقة مشرفاً على البقعة التي اختاروها لاستيطانهم لأنه يوفر الحماية لهم ولسفنهم عند رسوها - ومن اسم مدينة قرطاجة (أي المدينة الجديدة أو العاصمة الجديدة) يمكن ان نستنتج ان الفينيقيين ارادوا ان ينشروا نشاطهم في الغرب وهو الذي كان قد بدأ فعلاً من قبل وامتد إلى أبعد من منطقة قرطاجة ، وسرعان ما وصلت قرطاجة إلى السيادة على كل المستوطنات الفينيقية وكان ذلك بالتاكيد بعد تأسيسها (سنة ٨١٤ - ٨١٣ ق . م) . بوقت كاف .

وقد حتمت الظروف على المستوطنين لهذه المدينة - أن لا يقتصر نشاطهم على قاعدة اوتيكا (Utica) المجاورة ، فموقعها كان ممتازاً سواء بالنسبة لها هي نفسها أو بالنسبة للتوسع منها إلى الداخل - فهي تمتد على لسان طويل بين مسطحين مائيين وبذلك يتهيأ لقواتها مركز دفاع ممتاز ، وهي متصلة بالأرض الرئيسية ببرزخ رملي تسهل حراسته والدفاع عنه - كذلك فإن الامتداد الكبير للأرض القابلة للزراعة والملاحة على اللسان الممتد في البحر يجعل في الامكان عزله والدفاع عنه .

ومن المحتمل أن أسطورة « اليسا » كان لها أساس تاريخي ، وعلى هذا فإن تأسيس قرطاجة يرجع إلى سنة ٨١٤ - ٨١٣ ق . م . وأن المؤسسين لها كانوا من صور وقد قدر لها أن تصبح أهم مركز للفينيقيين في الغرب .

المستوطنات الفينيقية الأخرى :

لا يمكننا تحديد تاريخ تأسيس كل المستوطنات الفينيقية في غرب البحر المتوسط وشمال افريقيا ومازالت معلوماتنا قاصرة عن كثير منها ، ولذا سنكتفي بتعداد المستوطنات التي امكن الاستدلال على مواقعها بما كشف عنه من الشواهد الأثرية ومخلفات أماكن الدفن التي يمكن تحديد تاريخ بعضها من الأواني الفخارية التي وجدت بها - وعند النظر إلى خريطة تبين توزيع المواقع الأثرية[1] نتبين ان تلك المستوطنات لم تخرج في توزيعها عن السياسة التقليدية للفينيقيين في اختيار مراكز ساحلية على أبعاد مناسبة لتأسيس مستوطناتهم .

وإذا ما اتجهنا من الشرق إلى الغرب نجد ان أول مركز هام لهم هو « ليبيتيس ماجنا » (Leptis Magna) حيث امكن التعرف على جبانة (مجموعة من المقابر) يرجع تاريخها إلى القرن الثالث/الثاني قبل الميلاد وعثر على مجموعة هامة من المنحوتات والتماثيل التي لا شك في أنها بونية ويحتمل أنها من العصر الهللينستي .

وتلى ذلك الموقع « أويا Oea » (طرابلس الحالية) حيث عثر في سنة ١٩٥٧ على مقابر منحوتة في الصخر ترجع إلى القرن الثالث/الثاني قبل الميلاد بينما أمدتنا « بوستة » (Bousetta) القريبة بمجموعة من أواني الدفن (Amphorae) والأوعية التي تميزت بعلامات بونية مثل رمز الحماية والإلـهة «تانيت» (Tanit) (التي توصف بأنها « وجه بعل » وتوحد مع الإلهة اليونانية هيرا) - وفي « سبراته » (Sabrata) ثالث المدن الكبرى في منطقة طرابلس (Tripolitanis) عثر على جبانة بونية ضخمة وضريح (Mausoleum) بالاضافة إلى مقابر ترجع إلى القرن الثالث ق . م . وكان من بين الآثار التي وجدت في هذه الأخيرة قلادة بها خرزات ذات طابع مصري في هيئة « حربوخراط » و« العجل ابيس »[2] ورؤوس زنجية وعناقيد عنب وحمام (طيور) وغيرها ،

(١) أهم هذه المواقع مبين بالخريطة رقم (٢) .

(٢) آلهة مصرية ، الأول هو « حورس الطفل » أي ابن إيزيس من أوزوريس بعد مقتله وإعادته للحياة بوساطة إيزيس قبل أن يفضل الذهاب إلى عالم الموتى حسب الأساطير المصرية والثاني هو العجل الذي يرمز للإله « حعبي » إله النيل والخصب وقد حرف اليونان اسمه إلى أبيس .

ومن « سيراته » أيضاً قطع من تماثيل من الحجر الرملي تؤرخ بالعصر البوني الهيلليني .

وفي المنطقة التي تضم تونس الحالية كانت اخولا (Acholla) أكبر المدن البونية وتنسب الأساطير تأسيسها إلى فينيقيين من مالطة – وقد أشارت المصادر الكلاسيكية إلى تابسوس (Tapsos) وحدد موقعها براس ديماسة (Ras Dimasseh) وعثر فيها على مقبرة بونية من القرن الرابع ق . م . ، يبدو منها أنها خضعت للتأثير الروماني فيما بعد – وأكبر جبانة تلي جبانة قرطاجة هي تلك التي عثر عليها في « مهدية » وهي مدينة بونية لا يعرف اسمها القديم وآثارها توحي بأنها ترجع إلى القرن الخامس ق . م . أما « ليبتس الصغرى » (Leptis minor) وهي « لامتا » (Lamta) الحالية فقد عثر فيها على مقابر منحوتة في أعماق الصخر حوت توابيت خشبية ، وتعد « هادروميتم » (Hadrumetum) (صوصة الحالية) أكثر أهمية فقد ازدهرت بعد القرن السادس ، وفيها عثر على لوحات جنزية هامة – وأقدم جزء في الجبانة التي عثر عليها يوجد تحت المدينة الحالية :

أما « كركوان » (Kerkouane) الحالية على « رأس بون » (Cape Bon) فلا تقل أهميه حيث عثر على ما يدل على أنها حوت مناطق سكانية ترجع إلى القرنين الثالث والرابع ق . م . وفي آثارها تظهر الجدران والطوابق والوسائل الصحية – وإلى جوارها منطقة « جبل ملزة » (Djebel Mlezza) التي كشف فيها عن مقابر عديدة حوت تمائم وحلى وقطع فخارية مختلفة وبقايا رسوم .

وبالاستمرار غرباً نجد « اوتيكا » التي تعد من الناحية الاسطورية أقدم مستعمرة فينيقية في شمال أفريقيا وقد تم فيها الكشف على جبانتين ، ترجعان إلى ما بين القرنين الثامن والرابع ق . م . مليئتين بأشياء نذرية تشمل الخواتم والجعارين والتمائم والزهريات (أو الأواني) متعددة الألوان .

ولا يعرف إلا القليل عن « هيبواكرا » (Hippo Acra) (بيزرتا Bizerta) و« هيبو ريجيوس » (Hippo Regius) (بونة Bone) و« فيليبفيل »

(Philippeville) (وهي أيضاً مراكز استيطان بونية) التي تدخل في نطاق الجزائر الحالية . أما « كيرتا » (Cirta) (قسطنطينة الحالية) (Constantine) فمعرفتنا عنها أكثر من تلك المدن فمنها جاءت لوحات كثيرة لا ترجع إلى أقدم من القرن الثالث وكلها تحتفظ بمؤثرات وعناصر من عصور سابقة .

والحصن « الموقع الحصين » تشوللو (Chullu) كذلك لا يمكن إرجاعه إلى أقدم من القرن الثالث بينما يشك في أن «اجيلجيلي Agilgili » أو«جيجيلي Djidjelli» ترجع مقابرها إلى ما قبل القرن الثالث – ونظراً لاتساع مدينة الجزائر الحالية « ايكوزيوم » (Icosium) فلا يعرف عنها إلا القليل ، ومع ذلك فإن العثور على عملات تحمل اسمها باليونانية يدل على أنها ترجع إلى ما قبل العصر الروماني – وفي مدينة « تيباسا » (Tipasa) عثر على مقابر تدل على أنها كانت بونية وأقدم مستوطناتها ترجع إلى القرن الخامس ق . م . وقد وجدت بها حجرات منحوتة عميقاً في الصخر قرب البحر وأخرى منحوتة على عمق قليل من السطح وقد ظل التراث البوني سائداً فيها حتى عصر الرومان . ومما يؤكد ذلك أن اللوحات التي عثر عليها منقوش بها رمز تانيت .

وبالتقدم بعد ذلك غرباً نجد «يـول Jol (تشيرشيل Cherchel)» التي وجدت بها آثار قليلة من العصر البوني المتأخر – وفي « جونوجو Gunugu (جورايا Gouraya» عثر على جبـانـة ترجع إلى القرن الثالث/الثاني ق . م . وجد فيها العديد من بيض النعام المحلي برسوم حمراء وسوداء تمثل أشكالاً هندسية ونباتات وأشكال آدمية أحياناً – وإلى الغرب من ذلك عثر على منطقة سكنية وجبانة وجدت بها أواني فخارية ترجع إلى القرن الرابع – وفي جزيرة « راشجون » (Rachgoun) كشف عن أكثر من مائة مقبرة معظمها لدفن الرماد المتخلف من حرق جثث الموتى وبها أواني للنذور ومصابيح وأسلحة وحلى وتمائم ترجع كلها إلى القرن السابع/السادس ق . م . وتدل على علاقات متينة بجزيرة « موتيا » (Motya) – وعلى بعد أربعين كيلو متراً غرب وهران « مرسي مداخ » (Mersa Madakh) التي وجدت بها انقاض وكمية عظيمة من الفخار يمكن ارجاعه إلى القرن السابع/السادس ق . م .

وإذا ما وصلنا إلى المغرب الحالية فإن أول مدينة بونية تقابلنا هي « روسادير Rusaddir» (ميليلا Melila) حيث عثر على مدافن بسيطة بها صفوف من أواني حفظ رماد جثث الموتى (Amphorae) وهذا المظهر غير العادي يوجد ما يشابهه في «البيا» (Olbia) في سردينيا وهي مثلها ترجع إلى ما بين القرنين الثالث والأول ق . م . – وبعد ذلك غرباً نجد « ايمسا » (Emsa) التي عثر فيها على أنقاض منازل وأواني فخارية ترجع إلى القرن الثالث/ الثاني ق . م . – وتليها غرباً « سيدي عبد السلام » التي تتمثل في طبقاتها الأثرية مخلفات استيطان ترجع إلى الفترة ما بين القرنين الخامس والأول قبل الميلاد – وفي « تامودا » (Tamuda) كشف عن انقاض مدينة شاسعة بها أسوار وميادين وشوارع ومنازل عديدة ولكنها ترجع إلى القرنين الثاني والأول ق.م. – وكانت معلوماتنا عن طنجة أنها ترجع إلى العصر الروماني ولكن الكشوف الحديثة زادت من معلوماتنا عن تاريخها ومن أهم ما عثر عليه نقود نقشت بالفينيقية تذكر اسم المدينة «طنج».

وعلى الساحل الاطلنطي للمغرب نجد «ليكسوس Lexus» (أرزيلا Arzila) وهي أهم المدن التي ترجع إلى ما قبل الرومان ، وقد كشفت بها آثار تدل على مركز استيطان كبير يرجع إلى القرن السابع/السادس ق . م . كما يستدل على ذلك من الجدران والمعبد والجبانتين والنقوش والنقود والأواني الفخارية التي عثر عليها – وفيما بين « ليكسوس » و« موجادور » (Mogador) وجدت بقايا بونية قليلة كما في « مولي بوسيلهام» (Muley Buselham) ولكن المدينة الهامة التالية هي « موجادور » التي عثر فيها على أواني فخارية ترجع إلى القرن السابع/السادس ق . م .

وينبغي هنا أن نذكر بأنه لا توجد فوارق واضحة بين العناصر الفينيقية والبونية – وعلى العموم فإن وصول قرطاجة إلى مكان الصدارة جعلها تحل في استعمار الغرب محل الوطن الأصلي (فينيقيا) ، ولكن بين حين وآخر يعثر على أشياء شرقية الأصل أوتدل على احتكاك بالعالم الفينيقي على أي حال ، ولذا يمكن القول بأن فينيقيا وإن كانت قوتها قد تقلصت فإنها لم تختفي كلية .

الصراع القرطاجي اليوناني

ليس لدينا عن أقدم تاريخ لقرطاجة إلا قدر ضئيل من المعلومات - والواقع أنه ليس لدينا أية معلومات عنها حتى وقت تأسيس مستعمرة في «أبيبزا Ebiza» (٦٥٤ - ٦٥٣ ق.م.) في البليار ومع ذلك فالشواهد التاريخية تدل على أن قرطاجة نمت وتطورت داخلياً وأصبحت أهم مدينة فينيقية في الغرب وفرضت سلطانها على كل المستعمرات - ويرجع الدافع الرئيسي لهذا التحول في مركز المستعمرات الفينيقية المتناثرة في الغرب الى التوغل اليوناني في البحر المتوسط، فبعد القرن الثامن قبل الميلاد أكد هذا التوغل وجوده بنشاط متزايد ونافس اليونان الفينيقيين كما شكلوا خطراً كبيراً على المستعمرات الفينيقية.

ومن الواضح أن هؤلاء الوافدين الجدد كانوا يتوخون في أول الامر أضعف الاماكن مقاومة، فاتجهوا الى الاماكن التي لم تكن بها مستعمرات فينيقية مثل جنوب ايطاليا وكورسيكا والغال (Gaul)[1] ولم يجرؤوا على الاتجاه الى الساحل الافريقي فيما بين سيرتس (Syrtes) وجبل طارق حيث كانت المستعمرات الفينيقية أكثر أمناً وسلطاناً، ولم يكن ذلك التوزيع في النفوذ نتيجة اتفاقات ودية بين الفينيقيين واليونان حيث أن الصراعات التي نشبت في صقلية وكان من نتيجتها انسحاب الفينيقيين إلى أقصى الشمال الغربي للجزيرة تؤكد أن مثل هذه الاتفاقات الودية لم تكن ممكنة أو سهلة.

لم يكن اليونان هم الخطر الوحيد الذي يهدد المستعمرات الفينيقية بل إن

---

(١) وهي تقابل فرنسا الحالية

صغر هذه المستعمرات وتباعدها كان يعرضها لهجمات السكان المحليين وخاصة حينما تبدو في حكومتها بوادر الضعف ولا تكون لديها القدرة على الرد على مثل تلك الهجمات . وهكذا وجدت نفسها مضطرة الى التحالف مع المدن الكبيرة التي هيأت لها طبيعتها أن تكون مستعمرات قوية – فارتبطت المستعمرات الفينيقية الصغرى في الغرب مع قرطاجة – ومن الممكن أن نضيف الى ذلك أن صور كانت قد انحدرت الى الضعف ، ومع أن هذا الضعف كان بطيئاً وتتخلله فترات من القوة ، إلا أن ضعفها كان أكيداً ولا يجعلها قادرة على تقديم العون الفعال الى المستعمرات البعيدة في الغرب وخاصة لأن التوسع اليوناني قد وقف حائلاً في طرق المواصلات المؤدية بينها وبين تلك المستعمرات . ولذا كان من الطبيعي أن تتجه هذه المستعمرات الى دعم علاقاتها مع قرطاجة لتضمن لنفسها حليفاً قوياً يساندها عند الحاجة .

ولاشك في أن فترة نشأة العلاقات بين المستعمرات الفينيقية هي والفترة التي تعقدت فيها العلاقات بين قرطاجة والدول التي ظهرت كقوى منافسة لها وخاصة الرومان ، وهي الفترة التي تعرف بالدور اليوناني ، من المشاكل التي تواجه المؤرخين إذ لا ندري هل تقبلت المستعمرات الفينيقية في أفريقيا سيادة قرطاجة والاعتراف بضرورتها عن طيب خاطر؟ أوأن هذه السيادة تعرضت لأزمات ومحاولات للانفصال من جانب المستعمرات التي ارتبطت بقرطاجة ، وخاصة لأن المادة التاريخية والاثرية التي لدينا ليست من التفصيل بحيث تكفي لبيان فكرة واضحة عنها .

وأول الاشارات في المصادر الكلاسيكية عن نشاط القرطاجيين في تأسيس المستعمرات يرجع الى ديودور الصقلي الذي ذكر بأن « ابيزا » (Ebiza)) تأسست في البليار بعد ١٦٠ عاماً من تأسيس قرطاجة أي في ٦٥٤ – ٦٠٣ ق . م . ، وبتأسيسها أمنت قرطاجة لنفسها ميناءاً على الطريق بين سردينيا وأسبانيا – ولا نعرف مدي النفوذ القرطاجي في البليار ولكن مما هو جدير بالملاحظة أن ميناء « ماهون » في مينورقا لا بد وأنه كان يتصل بالاسم الفينيقي « ماجون » .

ومن المحتمل أن القرطاجيين استقروا في سردينيا وصقلية حوالي ذلك الوقت أيضاً، أوعلى الأقل زادوا من روابطهم مع المستعمرات الفينيقية المحلية فيها - وتدل شواهد الاحوال على أن قرطاجة اتخذت مستعمرات في هاتين الجزيرتين بعد بضعة عشرات من السنين، وعلى ذلك يمكن القول بأن التوسع القرطاجي في البحر المتوسط وحلول قرطاجة محل صور وانتزاع مكانتها في قيادة المستعمرات الفينيقية باستمرار، فضلاً عن تأسيسها لمستعمرات جديدة أو إعادة احتلالها لنفسها قد تم خلال القرن السابع قبل الميلاد. وقد ذكر أحد الكتاب الكلاسيكيين «تيوكيديدس» (Thucydides)(1) أن القرطاجيين حاولوا عبثاً الحيلولة دون تأسيس يونانيين من أيونيا (بعد استيلاء كورش على بلادهم) مستعمرة لهم في مرسيليا. فقد منيت قرطاجة بهزيمة منكرة ولكن لا يعرف مكان الموقعة التي نشبت بين الفريقين حوالي سنة ٦٠٠ق.م. ولا شك في أنها كانت ذات نتائج بعيدة المدى حيث أتاحت لليونانيين أن يتحكموا في مركز ملاحي هام في البحر المتوسط، وهو في نفس الوقت المنفذ لوادي نهر الرون - وقد أدى نجاح اليونان في الحصول على هذا المركز الملاحي الى التقارب الوثيق بين القرطاجيين والاتروسكيين في محاولة للوقوف في وجه التوسع اليوناني.

وقد نجح القائد القرطاجي «مالخوس» في الانتصار على اليونانيين في صقلية حوالى سنة ٥٥٠ ق. م. وأخضع جزءاً من الجزيرة، ويبدو أنه تدخل فيها لتدعيم مركز المستعمرات الفينيقية التي كانت في طرفها الغربي - ثم توجه بعد ذلك الى سردينيا ولكنه مني بهزيمة ساحقة على أيدي السكان المحليين.

وحوالي سنة ٥٣٥ ق. م. اشتبك الاسطول اليوناني والاسطول القرطاجي وأدي ذلك الى طرد اليونان من سردينيا وجعل القرطاجيون حلفاءهم من أهل أترووريا يحلون محلهم، وظلت قرطاجة تشن غاراتها على سردينيا والشاطىء الاسباني حتى استطاعت أن تثبت مستعمراتها فيهما.

---

(1) عاش فيما بين ٤٧١ - ٤٠٠ ق. م. انظر بعد ص١٠٨ هامش

ويشير أحد المصادر الكلاسيكية الى أن « مالخوس » وفلول جيشه قد أبعدوا عن قرطاجة بسبب هذه الهزيمة ، ولكنه ثار وحاصر قرطاجة وتمكن أخيراً من احتلالها إلا أنه مالبث أن أتهم فيها بعد بالاستبداد والاتجاه نحو الطغيان فقتل .

وقد تبعه في الحكم « ماجون » مؤسس الاسرة الماجونية التي حكمت قرطـاجة لمدة ثلاثة أجيال وقامت بسلسلة من الاعمال العظيمة التي أدت الى تطور قوة المدينة ، وأهم أعضاء هذه الاسرة هما «هاميلكار» بن « ماجون » و«هاسدروبال» وقد أسفر تحالف القرطاجيين والأتروسكيين عن هزيمة اليونان الايونيين الذين كانوا قد اتخذوا من «الاليا» (Alalia) في كورسيكا قاعدة لهم ومارسوا القرصنة حتى أضروا بتجارة البحر المتوسط فلم يجد القرطاجيون والاتروسكيون بدا من التصدي لهم وهزموهم في معركة « الاليا » البحرية سنة ٥٣٥ ق . م . ، وكان هذا حدثاً بالغ الاهمية لأنة أوقف التوسع اليوناني في كورسيكا وسردينيا- وقد أبرمت معاهدات لاقتسام مناطق النفوذ بين الاتروسكيين والقرطاجيين أصبحت بمقتضاها ايطاليا، من جبال الالب الى « كامبانيا »(Campania)، من نصيب الاتروسكيين بينما أصبحت المنطقة الواسعة في الجنوب بما فيها المنطقة التي احتلها اليونان من نصييب القرطاجيين ، ويدل العثور على آثار اتروسكية في قرطاجة على الصلات الوثيقة بين الاتروسكيين والقرطاجيين في ميدان الثقافة ، كما كان الحال في الميدان السياسي - وقد استمرت هذه الصلات حتى وقت متأخر حيث يستدل على ذلك من نقش بوني (Punic) يرجع الى حوالي سنة ٥٠٠ ق . م . عثر عليه في « سانت سفيرا St. Severa (بيرجي pyrgi القديمة)» ومن نصين اتروسكيين مشابهين له تماماً إذ أنها جميعاً تدل على تقدمه للالهة « استارته » في معبد بيرجي قدمها «تيفاري فيلياناس أو (فيليوناس) (Veliunas) Thephari Velianas» أمير «كيري Caere (كيرفتيري Cerveteri)» .

ولا شك في أن التحالف بين الاتروسكيين والقرطاجيين قد زاد من روح العداء ضد اليونان في الغرب الذين جاءوا من الشرق في عهد الامبراطورية الفارسية .

وهكذا لم يكن النشاط العلاقات التي نشأت بين القرطاجيين والفينيقيين الشرقيين في ذلك الوقت عرضياً أومصادفة،فحينما أراد قمبيز بعد غزو مصر أن يرسل حملة الى قرطاجة رفض الفينيقيون أن يسهموا فيها كما أن من المؤكد أن البعثات المنتظمة من قرطاجة الى صور لم تكن لمجرد حمل القرابيين لمعبد ملقارت بل لتبادل الرأي في الكفاح ضد اليونان - وكانت أحداث الحملة التي قادها «دوريايوس» (Doriaeus) شقيق ملك اسبرطة أولاً الى أفريقيا ثم الى صقلية تشكل جزءاً من هذا الكفاح ضد اليونان - ففي وقت لا يمكن تحديده من نهاية القرن السادس ق . م . رسا «دوريايوس» في أفريقيا في مكان يبعد ١٨ كيلو متراً جنوب شرقي «ليبتيس» (Leptis) وقد ظل القرطاجيون ، يعاونهم الاهالي ، في كفاحهم ضده ثلاثة اعوام الى أن استطاعوا أن يطردوه ، فعاد الى البلوبينيز ولكنه سرعان ما عاد الى الغرب وهنا نجده لا يذهب الى أفريقيا بل اتجه الى صقلية حيث أسس بالقرب من جبل «ايريكس» (Eryxe) مدينة سماها «هرقليا» ولكن تصدى له القرطاجيون وهزموه وقتلوه ودمروا «هراقليا» وقد عاونهم في ذلك أهل «اليمي»(Elymi) (سكان منطقة صقلية) .

وما لبثت علامات التأزم في التحالف ضد اليونان في الغرب أن ظهرت بوضوح ، وربما كان من أسباب ذلك ضعف الاتروسكيين والثورة ضدهم سنة ٥١٠ ق . م . وظهور روما كجمهورية مستقلة، ففي السنة **٥٠٩** ق . م . أبرمت روما مع قرطاجة معاهدة حددت مناطق النفوذلكل منهما[١] - ويتبين من نصوص هذه المعاهدة أن قرطاجة كانت تمثل قوة لها مكانتها في غربي البحر المتوسط ، غير أن الصدام بين فارس واليونان كان وشيك الحدوث لأن اليونان أرادوا أن يحطموا الحصار المضروب حولهم وأن يؤكدوا سيادتهم على مساحة

---

(١) بعد أن تخلصت روما من قبضة ملوك الاتروسكيين وأعلنت استقلالها كجمهورية عقدت المعاهدة المشار اليها مع قرطاجة لأن هذه الاخيرة أبدت اهتمامها بوسط ايطاليا ولذا أبرمت روما المعاهدة معها ، وبمقتضاها وافقت قرطاجة على عدم التعرض لمدن لاتينية معينة سواء كانت خاضعة لروما أولم تكن وأن لا تبني حصناً في «لاتيوم» (اي الجزء الواقع بين روما شمالاً «وكابوا» جنوباً) .

كبيرة من البحر المتوسط حتى إن كثيراً من المؤرخين القدامى يربطون بين هزيمة الفرس ومعاونيهم من الفينيقيين ، في موقعة سلاميس في الشرق ، وبين معركة هيميرا في الغرب التي فشل فيها القرطاجيون في هجومهم على موقع اليونان الامامي في صقلية .

ولم يكن هذا مجرد مصادفة - فقد ذهب مندوبون عن فارس ومعاونيهم من الفينيقين الى قرطاجة قبل معركة سلاميس مباشرة رجاء ذهاب أقوى أسطول قرطاجي الى صقلية لهزيمة اليونان ومنها الى البلوبينيز وهو رجاء كان القرطاجيون على استعداد لتلبيته لما بينهم وبين اليونان من منافسة على النفوذ في البحر المتوسط ، وهكذا أرسل اجزركسيس رسلاً الى قرطاجة بغية ترتيب هجوم مزدوج على اليونان اتفق فيه على أن يهاجم اليونان في بلادهم بينما يهاجم القرطاجيون اليونان في صقلية وايطاليا إلا أن اليونان نجحوا في تقويض ما دبّر لهم كما نجحوا في تثبيت سيادتهم على جزء كبير من البحر المتوسط بعد فشل القرطاجيين في هجومهم على صقلية .

ومهما كان الامر فإن الموقف في صقلية كان يتطلب تدخل القرطاجيين حيث كان « جيلون »(Gelon) وهو دكتاتور في سيراكيوز قد أسس دولة قوية في شرق صقلية وتحالف مع « ثيرون » (Theron) دكتاتور « أجريجنتوم » وهي دولة أخرى قوية فلما استولى « ثيرون » على « هيميرا » (Himera) طرد حاكمها «تيريللوس» (Terillus) الذي كان حليفاً لقرطاجة - وما أن استنجد بها هذا الأخير لم تجد قرطاجة بداً من التدخل حيث أنها رأت أن قوة اليونان التي لم تتصدع تزداد طغياناً، وعلى ذلك أرسلت حملة الى هيميرا لنجدتها ورأس « هاميلكار » بن « ماجون » الحملة مبحراً من قرطاجة على رأس أسطول كبير ورغم هبوب عاصفة شديدة حطمت السفن التي تحمل الخيول والعربات استطاع أن يرسو في باليرمو ومنها اتجه الى هيميرا - وفي المعركة انتصر ثيرون (Theron) وجيلون (Gelon) ومات « هاميلكار » في المعركة وقتل جنوده أو استعبدوا وحرق اسطوله وكانت سنة ٤٨٠ ق . م . حاسمة في نجاح اليونان في البحر المتوسط شرقاً وغرباً .

ورغم أن هذه المعركة انتهت بمعاهدة سلام فإن بنود السلام لم تكن قاسية كما كان ينبغي فقد أستعاد القرطاجيون ممتلكاتهم في صقلية ، وربما كان ذلك لأن «جيلون» (Gelon) لم يرغب في أن يكون بالقرب منه حليف عظيم القوة في « اجريجنتوم » وهكذا فإن تسلط القرطاجيين في صقلية لم يتوقف الا لفترة قصيرة[1] .

وقد أدت هزيمة قرطاجة في موقعة هيميرا سنة ٤٨٠ ق . م . الى فشل تحالفها (مع الفرس) ضد اليونان ، ورغم الهزيمة التي منيت بها ظل غرب البحر المتوسط في يد القرطاجيين الذين تحكموا فيه - كما دفعتهم إلى اتباع سياسة جديدة فقد نفى القرطاجيون أهم اعضاء أسرة ماجون (هانو Hanno وجيسكو Gisgo) وبذلك غيروا الهيئة الحاكمة التي استمرت ثلاثة أجيال قادتهم الى حروب متواصلة حيث شكلوا هيئة حاكمة من مائة شخص حماية للدولة من تزايد سلطان الفرد، وفي ذلك الوقت أيضاً تغير لقب ووظيفة الملك الى لقب قاضي مما دعا دون شك الى تحديد أوأختصار مدة ولايته ، وهكذا تغير النظام الحكومي في قرطاجة .

وهذه التغيرات السياسية كانت مصحوبة بإصلاح ديني ، فبينما كانت النصوص البونية القديمة تشير الى إله واحد هو « بعل » أصبحت النصوص المتأخرة تشير الى « تانيت » (التي وصفت بأنها « وجه بعل ») والى « بعل حامون » .

ويستدل من الآثار التي وجدت على انخفاض حاد في المواد التي كانت تجلب من اليونان مما يدل على أن حكومة قرطاجة أنهت علاقاتها التجارية مع اليونان مما أدى الى فقر المدينة بطريق غير مباشر إذ أن هؤلاء كانوا يحصلون من قرطاجة على مواد أساسية لقاء ما يمدونها به من سلع كمالية .

وهكذا فإن التغييرات السياسية والدينية والتجارية جعلت القرطاجيين ينفصلون عن العالم الفينيقي مما أدى دون شك الى تعرضهم لأزمة ثقافية أسفرت عن استقلال قرطاجة الثقافي وهو ما لم يحدث في الوطن الأم (فينيقيا بالشرق) .

---

(١) Moscati, op. cit., 120-1

وفي إطار هذه المحاولة أخذ القرطاجيون في التوسع في داخل افريقيا والنهوض بالزراعة خلال القرن الخامس قبل الميلاد ، كما أنهم عملوا على تقوية اتصالاتهم ومدها الى خارج نطاق رقعة دولتهم ، ففي القرن الخامس ق . م . قاموا برحلات طويلة فيها وراء اعمدة هرقل (جبل طارق) ، حيث أبحر هيميلكو (Himilko) بجوار سواحل اسبانيا وفرنسا الى كورنوال (Cornwall) رغبة (على ما يبدو) في الحصول على مواد لم يمكن الحصول عليها من أوروبا بطريق البر مثل القصدير إذ كان اليونان قد قطعوا كل الاتصالات البرية باحتلالهم مرسيليا ، كذلك تشير ترجمة يونانية لأحد النصوص البونية في معبد (بعل حمـون) بقرطاجة الى أن (هانو) أبحر حول افريقيا حيث يحتمل انه وصل الى خليج غينيا كي يضمن الحصول على السلع التجارية الثمينة من المنطقة المجاورة له[(١)] .

كذلك كانت هذه السياسة ترمي الى تأسيس قواعد قوية من الناحيتين الحربية والاقتصادية عندما يحدث صراع لا يمكن تجنبه ضد اليونان ، وقد حدث ذلك بالفعل حينما هددت مدينة سيلينونته (Selinunte) مدينة سيجيسته (Segesta) واستنجدت هذه الاخيرة بقرطاجة التي ارسلت جيشاً الى صقلية بقيادة هانيبال وهو أحد خلفاء هاميلكار الذي فشل في هيميرا مما يوحي بوجود تحالف مقدس بين الجماعات القرطاجية ضد العدو المشترك أوأن الماجونيين ظلوا ببساطة ذوي تأثير كبير على المدينة على عكس ما كان يمكن حدوثه . وقد نجحت حملة (هانيبال) تماماً حيث دمر (سيلينونته) و(هيميرا) وذبح ثلاثة الاف من الاسرى في المكان الذي سبق أن هزم فيه (هاميلكار) ، وبعد وقت قصير قامت حملة قرطاجية جديدة في سنة ٤٠٦ ق . م . بقيادة (هانيبال) أيضاً و(هيميلكو) (Himilko) بن هانو (Hanno) ، هاجمت اجريجنتوم (Agrigentum) وهزمتها ودمرتها بعد حصار طويل ، وقد مات هانيبال بالطاعون ولكن هيميلكو استمر في المغامرة ودمّر بعد ذلك مباشرة مدينة جيلا (Gela)، وهكذا أصبحت صقلية اليونانية مهددة بأكملها .

---

(١) Moscati, op.cit., pp. 87,124, 181-4

وكان رد فعل اليونان يتزعمه ديونيزيوس (Dionysius) السيراكيوزى الذي اختير قائداً (Strategos)[1] عند سقوط (اجريجنتوم) فأنهى حالة السلم مع قرطاجة (سنة ٤٠٥ ق.م.) لكي يقوى من مركزه وتحرك للهجوم فأحرز انتصارات متتالية وأخضع موتيا (Motya) وخربها سنة ٣٩٨ ق.م.، وظلت الحرب غير متكافئة فتدخل الاسطول البوني بقيادة هيميلكو وهزم ديونيزيوس في معركة بحرية بالقرب من كاتانيا (Catania) ثم حاصره في سيراكيوز ولكن (ديونيزوس) استطاع أن ينجو نظراً لانتشار وباء في الجيش القرطاجي سنة ٣٩٦ق.م. ثم حدثت بعد ذلك معارك بينهما في سنة ٣٩٣ق.م.، سنة ٣٩٢ق.م. انتهت بعقد معاهدة نتج عنها إعادة الحالة الى ما كانت عليه سنة ٤٠٥ق.م. وتلت ذلك معارك فيها بين سنة ٣٨٢ق.م. وبين موت ديونيزيوس سنة ٣٦٧ق.م. أدت إلى مد الحدود إلى نهر هاليكوس (Halycus) وظلت كذلك نحو قرن من الزمان وبذلك امتد سلطان قرطاجة الى نحو ثلث صقلية.

وقد ظل تاريخ قرطاجة فترة طويلة غير معروف الا عن طريق الحروب التي نشبت بينها وبين اليونان في صقلية، إلا أن ذلك نتج عن قلة المصادر المتاحة، هذا وينبغي أن لا نعتقد بأن التطور السياسي لقرطاجة لم يقتصر على هذه الحروب. فالمعاهدة الثانية التي أبرمتها مع روما سنة ٣٤٨ق.م.[2] ذات أهمية خاصة في هذا المجال حيث يتبين من نصها الذي أورده بوليبيوس (Polybius)[3] أن نفوذ قرطاجة امتد الى شمال افريقيا واسبانيا.

وقد استؤنفت العداوة بين القرطاجيين واليونان في عهد «تيموليون» (Timoleon) الكورنثي الذي أعاد الديمقراطية الى سيراكيوز وقد دفعته الهجمات القرطاجية الى التصرف بشدة، وفي سنة ٣٤٠ق.م. حاز نصراً كبيراً على نهر (كريميسوس Crimissus) وأبرم في السنة التالية (٣٣٩ق.م.)

---

(١) (Stratregos) : معناها الأصلي خبير في الخطط الحربية.

(٢) حينما وجدت قرطاجة سرعة تقدم روما وقوتها وجدت أن من الضروري عقد معاهدة تجارية معها.

(٣) مؤرخ يوناني عاش فيما بين ٢٠١، ١٢٠ق.م.

معاهدة بمقتضاها أصبحت الحدود عند نهري (هيميرا) و(هاليكوس) فتغير الموقف العام تغيراً طفيفاً .

وفي سنة ٣٣٢ق. م. سدد الاسكندر الاكبر ضربة قاضية لقوة الفينيقيين في الشرق حيث احتل صور بعد حصار طويل ، ولم يتعرض للسفارة القرطاجية التي يفترض أنها كانت موجودة بها ، ومن المحتمل أنه كان يخطط لجعل امبراطوريته تمتد الى شمال افريقيا حيث عثر عند وفاته على وثيقة تبين اعتزامه على انشاء أسطول ضخم لاخضاع قرطاجة والساحل الافريقي الممتد الى أعمدة هرقل ، وهناك أسطورة تروي ان قرطاجة شعرت بهذا الخطر فأرسلت مبعوثاً يدعى (هاميلكار) كي يعمل على كسب ثقة الاسكندر في محاولة للتعرف على نواياه ، وأن هذا المبعوث استطاع ان ينقل معلومات كثيرة ولكنه في طريق عودته الى قرطاجة اتهم بالخيانة وأعدم .

ولا بد أن القرطاجيين خافوا على مستقبلهم ولكن من المؤكد أن وفاة الاسكندر فجأة وضعت نهاية لمشروعاته وبددت مخاوفهم .

ومع ذلك فإن قرطاجة كان عليها أن تواجه خطراً لم يكن متوقعاً ، حيث أن «اجاثوكليس» حاكم سيراكيوز الطاغية الذي بدأ حكمه تحت سيادة القرطاجيين سرعان ما انقلب عليهم ، ولكنهم هزموه وحاصروه في مدينته سنة ٣١٠ق. م. وحينئذ قام بتنفيذ خطة غاية في الجرأة حيث هاجم افريقيا بقوة مؤلفة من ١٤,٠٠٠ رجل تحملها ٦٠ سفينة حربية أبحر بها سراً ليتفادى الاسطول البوني ورسا قرب «رأس بون Cape bon» ثم اشعل النيران في سفنه واتجه بعزم نحو قرطاجة وكانت تلك ضربة لم تتوقعها الحصون القائمة على الطريق ولم يكن الحراس مستعدين لها فلم يلق هو ورجاله أدنى مقاومة ولم تصادفه الا الحقول الخصبة وبساتين الكروم ، وخرب في طريقه مدن «ميجالوبوليس Megalopolis» (التي لم يمكن التعرف على مكانها حتى الآن) وتونس ثم عسكر بالقرب من قرطاجة التي أعدت على عجل (اثناء اضطرابها) جيشاً ارسلته لمقابلته ولكنه أوقع بهذا الجيش هزيمة ساحقة مما أدى الى موقف شاذ بين عدوين فكل منهما يحاصر مدينة الآخر، وبينما كان «هاميلكار» القرطاجي يحاول عبثاً اخضاع سيراكيوز استطاع «اجاثوكليس»

أن يمد منطقة سيطرته الى شرق قرطاجة ويعد لخطة طموحه لتشكيل حلف مع خلفاء الاسكندر في مصر ، فحينما رأى أن «بطليموس الأول» عين «اوفيلاس Ophelas» (وكان من الحرس الخاص بالاسكندر) محافظاً على المدن اليونانية في سيرينايكا (برقة) عرض عليه «اجاثوكليس» أن يتحالف معه ضد القرطاجيين على أن يحكم «اوفيلاس» شمال افريقيا بينما يحكم «اجاثوكليس» صقلية وعندئذ تقدم «اوفيلاس» على رأس ١٠,٠٠٠ رجل الى معسكر «اجاثوكليس» ولكن سرعان ما دب الخلاف بين الحليفين فدبر «اجاثوكليس» مكيدة «لاوفيلاس» وقتله وتملك جيشه .

وفي نفس الوقت تعرضت قرطاجة لأزمة داخلية حيث كان «بوميلكار Bomilcar» يناضل من أجل الحصول على سلطة مطلقة ولكنه قتل وهو على وشك النجاح ، وقد انتهز «اجاثوكليس» هذه الفرصة واستولى على «اوتيكا» و «هيبواكرا Hippo Acra» التي عرفت فيما بعد باسم «بيزرتا Bizerta»، وحينئذ بدأ في بناء اسطول وأبحر في نفس الوقت الى صقلية بجيش صغير ليحرر سيراكيوز ولكن تغيبه أدى الى كارثة فقد هاجم القرطاجيون قواته التي تركها بافريقيا وهزموها وتمكنوا من إعادة حلفائهم السابقين إلى جانبهم، وعاد «أجاثوكليس» مسرعاً إلى افريقيا وحاول عبثاً أن ينقذ الموقف ولكنه فشل ففر إلى صقلية بينما توصلت قواته إلى الإتفاق مع القرطاجيين،وسرعان ما أبرمت قرطاجة (سنة ٣٠٥ق. م.) معاهدة مع «اجاثوكليس» أدت إلى نهاية الحرب بينهما وبمقتضاها احتفظت قرطاجة بكل ممتلكاتها في افريقيا وفي صقلية إلى نهر «هاليكوس» (أي ما يعادل ثلث مساحتها تقريباً) بينما كان يحصل «اجاثوكليس» على كمية من المال كتعويض رمزي عن مناطقه التي يتركها .

وهكذا تنتهي قرطاجة من دور من أعظم أدوارها خطورة في تاريخها يتميز بالاعتدال والحكمة ، وفي هذا الدور جعلت أعداءها يصلون إلى افريقيا إدراكاً من حكومتها بضعف مركزهم في المنطقة الافريقية فلم تحاول إبرام معاهدة مع «اجاثوكليس» حتى في أحرج ظروفها طالما ظل على الارض الافريقية ، ولم يكن ذلك الأسلوب الذي اتبعته من أجل تحقيق سياسة استعمارية ، فهذه

السياسة بالمعنى المفهوم لم تمارسها قرطاجة لأن أهلها قدروا أهمية وطنهم المحدود المساحة ، ولكن بالرغم من أن مغامرة «اجاثوكليس» لم تنجح فإنها أوضحت الطريقة التي يمكن بها هزيمة قرطاجة وهي التي اتبعها فيما بعد « اتيليوس ريجولس Atilius Regulus» و«سكيبيو Scipio» كما سنرى .

وعلى العموم فإن سير الاحداث في القرنين الخامس والرابع ق.م. تبين ثبوت استقلال قرطاجة عن الوطن الأصلي وعن العالم اليوناني وبالتالي تمكنت من تكوين دولة ذات حكم ذاتي لها سياسة خاصة تميزت بها ، وهذه السياسة حسب التقاليد الفينيقية تتمشى مع غرضها التجاري الجوهري ، ومع كل فإن قرطاجة مرت بأدوار جديدة وحتمت عليها الظروف ان تتجه إلى اهتمامات جديدة ، فكما رأينا لم تكن لها مقاصد استعمارية من قبل ، غير أن هذه المقاصد أصبحت فيما بعد ضرورية لها وكان ذلك سبب انهيارها وخاصة عندما واجهت قوى فتية مثل اليونان وروما ، ومع ذلك فإن قرطاجة كانت أول من دفعت بإفريقيا إلى المقدمة في تاريخ البحر المتوسط وأصبحت رمز مقاومة اليونان في الغرب .

ومما هو جدير بالذكر أن معظم هذا الصراع كان يتركز بصفة خاصة على تنازع السيادة على جزيرة صقلية وذلك لما لهذه الجزيرة من أهمية اتسراتيجية في حوض ألبحر المتوسط ، فموقعها يهيىء لها أن تتحكم في الملاحة في جزئيه الغربي والشرقي .

الصراع بين قرطاجة وروما

بالرغم من قيام حروب كثيرة في القرن الرابع قبل الميلاد ظلت قرطاجة تنعم بالرخاء والازدهار كما يستدل على ذلك من الآثار التي ترجع الى ذلك العصر، وتؤيد كتابات الكلاسيكيين هذا الرأي وخاصة ما ذكره «ديودور»[1] عن المنطقة التي اخترقها «اجاثوكليس» في تقدمه نحو قرطاجة كما يجب أن لا يغيب عن الذهن أن قرطاجة، باستثناء حملة اجاثوكليس[2] استطاعت أن تقوم بحروبها كلها في الخارج، وكانت البلاد التي تخضعها تمنى بخسائر جسيمة بينما تجني قرطاجة ثمار انتصاراتها وتحصل على غنائم ضخمة، وفضلاً عن ذلك فإن استخدام المرتزقة (ولو انه أدى فيما بعد إلى حدوث الأزمات) قد أبقى على عدد سكانها دون تناقص يذكر واختزل التزاماتها الحربية إلا فيما كانت تحتمه الظروف الاقتصادية.

غير أن قرطاجة في نهاية القرن الرابع ق.م. لم تتميز بالرخاء فحسب بل تميزت كذلك بانتشار الثقافة اليونانية (أوبالأحرى الهللينية) فيها بعد أن ظلت فترة في عزلة واستقلال نسبياً، ولكن تلك الثقافة عادت اليها في مجال الفن والحياة الإجتماعية، وقد أدى موت الاسكندر إلى موقف غريب تماماً في منطقة البحر المتوسط إذ أنهى خطر تهديده بالهجوم على الغرب بل وأدى إلى تقسيم امبراطوريته ونشوب الصراع الداخلي فيها وبذلك زال كل تهديد يوناني باحتلال عسكري لقرطاجة.

ففي مصر أسس (بطليموس لوجوس) دولة امتدت إلى فينيقيا في جانب والي برقة (Cyrenaeca) في الجانب الآخر، ولذا كان لقرطاجة كل الحق في أن

---

(١) ديودور الصقلي مؤرخ يوناني عاش فيما بين ٨٠، ٢٠ق.م. كتب ٤٠ كتاباً عن تاريخ العالم.

(٢) انظر اعلاه ص٧٠.

تحالف هذه الدولة التي كانت تحرس وتنظم التجارة على طول الساحل الإفريقي للبحر المتوسط دون أن تمارس أي ضغط سياسي ، مما أدى إلى توثيق الروابط بين الشرق والغرب ، وهذا الموقف يتضح من صورة الحياة الثقافية والاجتماعية التي تشير اليها الكتابات المتوافرة ويستدل عليها من الآثار المكتشفة حتى الآن .

ومن جهة أخرى فإن مشاكل الغرب السياسية أخذت تتقلص وأخذت قوته تتزايد ، فلم تعد هناك مواجهة مع العالم اليوناني ، غير أن المواجهة الحاسمة التي حدثت فيما بعد هي تلك التي كانت تختمر بين قرطاجة وروما ، ومع أن قرطاجة تدهورت في أعقابها إلى أن زالت من الوجود إلا أن هذا التدهور كان يرجع في معظمه إلى أسباب أخرى محلية لا تقل أهمية ، فقوة المرتزقة كان لها أثرها كما أن الشعوب المجاورة أخذت تستقل مكونة دويلات افريقية مستقلة وتتحالف مع روما التي كانت عدو قرطاجة العظيم .

قد سبق أن أشرنا إلى المعاهدتين اللتين أبرمتهما قرطاجة وروما[١] ثم عقدت معاهدة ثالثة تجديداً للمعاهدتين السابقتين سنة ٣٠٦ق.م. ، ثم عقدت معها حلفاً ضد عدوهما المشترك «بيروس Pyrrhus» سنة ٢٧٩ق.م.

فحينما تعرضت بعض المدن في الأراضي الإيطالية إلى شيء من المتاعب استنجدت بروما وكان من أثر ذلك أن اتجهت روما إلى زيادة نفوذها السياسي واكتسبت من صراعها الطويل داخل ايطاليا خبرة حربية وزادت من تحصيناتها وأقامت مناطق حراسة في أماكن مختلفة ، ثم أخذت في مد نفوذها في جنوب ايطاليا الذي كان خاضعاً لليونان ولما طلبت مدينة « تارينتم » (الواقعة في جنوب ايطاليا) النجدة لبى «بيروس Pyrrhus» حاكم «ايبيروس» (شمال غرب البلقان) طلبها إذ كان يطمع في تدعيم السيادة اليونانية على جنوب ايطاليا وصقلية وفي إيقاف النفوذ الروماني والقرطاجي في غرب البحر المتوسط ، وقد انتصر «بيروس» في أول الأمر في معركتي «هرقليا» سنة ٢٨٠ق.م. و«اسكولوم» سنة ٢٧٩ق.م. التي استخدم فيها الفيلة مما أثار الرعب في

(١) أنظر الصفحات ٧٥، ٧٩.

نفوس الرومان ، وبدلاً من أن يتقدم نحو روما اتجه إلى صقلية لمساعدة اليونان فيها ضد القرطاجيين وكاد أن ينتصر عليهم لولا أن حلفاءه اليونان تخلوا عنه خوفاً من خطره عليهم فيما بعد ، فترك صقلية وعاد إلى ايطاليا ولكنه هزم في سنة ٢٧٥ق.م. ثم عاد إلى اليونان ، وبذلك تحققت سيادة روما على شبه جزيرة ايطاليا ، ونشأ عن ذلك موقف جديد حيث أصبحت روما من القوة بحيث تنافس قرطاجة في السيادة على غرب البحر المتوسط -وكان لا بد من اصطدام قوتيهما ودارت بينهما حروب اشتهرت بالحروب البونية .

الحرب البونية الأولى (٢٦٤ - ٢٣١ ق. م.)

أرادت روما أن تقصى نفوذ قرطاجة عن صقلية بعد أن رأت أن قرطاجة عقب عودة « بيروس » إلى اليونان تبسط سيادتها على جزيرة صقلية بأكملها بما فيها مدينة « مسينا » المقابلة لجنوب إيطاليا ، إذ رأت روما في ذلك خطراً يتهددها ، هذا بالاضافة إلى أن قرطاجة كانت تبسط نفوذها على سردينيا مما يجعلها تتحكم في غرب البحر المتوسط - وقد تهيأت الظروف للصدام بين الدولتين حينما تمكنت جنود مرتزقة ايطالية في خدمة سيراكيوز (التي كانت حليفة لقرطاجة) من دخول « مسينا » والاستيلاء عليها حيث اتجه حاكم سيراكيوز والقرطاجيون لإنهاء هذا الوضع الشاذ من وجهة نظرهم . ولما استنجد المرتزقة بروما هبت هذه لنجدتهم وتقدمت نحو سيراكيوز فتحول حاكمها من تحالفه مع قرطاجة إلى التحالف مع روما ، واضطر القرطاجيون للانسحاب من صقلية استعدادا لمناوأة النفوذ الروماني في البحر بعد أن رأوا أن الرومان أخذوا يتجهون إلى تكوين قوة بحرية لهم ، وسرعان ما حدثت المواجهة بين القوتين وتمكنت القوة البحرية الرومانية الناشئة من الانتصار في سنة ٢٦٢ ق. م. ولكنها هزمت سنة ٢٥٩ ق. م. - وظلت المناوشات بين الفريقين سجالا إلى أن عزمت روما على نقل الصدام الى الأرض الأفريقية سنة ٢٥٦ ق. م. حيث توجه الرومان إلى المغرب ونجحوا - رغم تعرض القرطاجيين لهم - في النزول بموقع شرق « عنابة » الحالية وأصبحوا بذلك يهددون أمن قرطاجة ولكنهم تنبهوا من جهة أخرى إلى أن من الصعب إمداد هذا الموقع بالتموين والامدادات اللازمة لمدة طويلة فلم يستمروا طويلا في المغرب - وكان القرطاجيون قد أعدوا أنفسهم لمواجهة الخطر فاستدعوا « هملكار » من صقلية واختاروا قائدين جديدين كما استدعوا الاسطول لتدعيم الدفاع عن قرطاجة عندما نجح الرومان في الاستيلاء على تونس - وتأزم الموقف بالنسبة للقرطاجيين عندما ثار البربر عليهم بسبب سوء معاملة جنودهم المرتزقة ، ولكن بالرغم من الصعاب التي تجمعت ضدهم تمكنوا من هزيمة الرومان في المغرب وأسروا القائد الروماني « رجولوس » سنة ٢٥٥ ق.م. واستعادوا سيادتهم في المغرب ، وهكذا تبدل الموقف مرة أخرى فأصبح للدولة القرطاجية نفوذها في المنطقة - وحاول الرومان مرة أخرى سنة ٢٥٢ق.م.

النـزول الى السـاحـل القـرطـاجي ولكنهم فشلوا في ذلـك فتحـول اهتمامهم إلى صقلية حيث تمكنوا من الانتصار على القرطاجيين الذين أرادوا أن يعيدوا نفوذهم اليها ، واختل توازن القوى من جديد وعاد الصراع إلى المجال البحري ، وهنا نجد أن القرطاجيين ينجحون في أسر عدد من السفن الرومانية - ثم اتجهوا إلى تدعيم قوتهم في صقلية حيث أرسلوا إليها قوة جديدة تصدى لها الرومان وأوقعوا بها الهزيمة سنة ٢٤١ ق. م. واضطرت قرطاجة الى عقد اتفاقية سلام مع روما التي أملت على القرطاجيين شروطاً قاسية منها الجلاء عن صقلية وعدم مهاجمتها ودفع غرامة مالية كبيرة لورما على مدى عشرين عاماً - وكان ذلك سببا في ضعف مركز قرطاجة على الساحل الأفريقي فتمرد عليها بعض حلفائها الليبيين كما تمرد جنودها المرتزقة فحاربتهم بقيادة «هاميلكار» لمدة ثلاث سنوات حتى أخضعتهم ، وفي أثناء ذلك انتهزت روما الفرصة وبسطت سلطانها على سردينيا وكورسيكا وفرضت مزيدا من الجزية على قرطاجة .

الحرب البونية الثانية (٢١٨ - ٢٠٢ ق. م.) :

أرادت قرطاجة أن تعوض ما فقدته من نفوذها في إثر الحرب البونية الأولى فاتجهت الى بسط نفوذها في اسبانيا ، واختارت قائدها « هاملكار » لينفذ هذه السياسة - وفي سنة ٢٣٧ ق. م. ذهب «هاميلكار» ومعه ولده « هانيبال » (الذي كان في التاسعة من عمره) إلى اسبانيا ، وفي نيته أن يهاجم ايطاليا برا بالاتجاه من اسبانيا إلى جنوب فرنسا فإيطاليا - ومن الأساطير ما ينسب اليه أنه جعل ولده يقسم في المعبد على أن ينذر حياته للانتقام من روما .

وقد نجح «هاميلكار» في نشر نفوذ قرطاجة في اسبانيا بعد كفاح ثمانية أعوام اعتمد فيها على الدبلوماسية أكثر من اعتماده على الأساليب الحربية حيث استطاع أن يعلم القبائل التي كانت تقطنها حياة الاستقرار والنظام واستطاع أن ينمي موارد البلاد الاقتصادية الى درجة كبيرة ، وهكذا سار على السياسة التقليدية للقرطاجيين من الحرص على تأسيس مراكز لهم يمكن أن تمدهم بالمؤن والعتاد والرجال اللازمين لجيوشهم .

وفي سنة ٢٢٩ قتل «هاميلكار» وخلفه زوج ابنته « هسدرو بعل » الذي سار على نهج سياسته وبنى مدينة قرطاجنة (أو قرطاجة الجديدة) في سنة ٢٢٨ ق. م. وفي سنة ٢٢٦ ق.م. أخذت روما تبدي قلقها من تطور الموقف في اسبانيا حيث كانت لها مصالح في شمالها الشرقي ، كما كانت لها علاقات قوية بمدينة « مساليا » التي كانت مستعمرة اغريقية قديمة في جنوب الغالة وتربطها بروما معاهدة – ولما امتد النفوذ القرطاجي في اسبانيا شمالا ازداد قلق مدينة مساليا وأرسلت الى روما محتجة على أعمال « هسدرو بعل » ، فقامت روما بإرسال بعثة لتحري الحقائق وتم الاتفاق على أن لا يتعدى هسدرو بعل نهر « إبرو» شمالا وعلى السماح لروما بأن تحتفظ بحلفها مع مدينة « ساجنتوم » على الساحل الشرقي لأسبانيا جنوب بهر « إبرو» في صميم منطقة النفوذ القرطاجي . وهكذا كان هذا الاتفاق بمثابة اعتراف من روما بقيام ولاية قرطاجية في اسبانيا ، وعلى ذلك استمر القرطاجيون في تقوية المنطقة ، غير أن « هسدرو بعل » قتل وخلفه « هانيبعل » (هانيبال) بن هاملكار الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره وقتئذ ولكنه كان يتمتع بنفوذ كبير في اسبانيا وفي قرطاجة ذاتها وخاصة بين الجنود ، وتجمع بعض المصادر الكلاسيكية على أنه كان يتمتع بقوة الشخصية وقوة التحمل والجلد ـ هذا وقد عثر في اسبانيا على عدد من العملات القرطاجية وعلى أحد وجهي كل منها صور ثلاثة رجال يحتمل أنهم « هاملكار » و« هسدرو بعل » و« هانيبعل » .

وحينما تولى « هانيبعل » القيادة في اسبانيا أخذ يتحين الفرص لشن حرب على روما ومهاجمة ايطاليا ، وسنحت له الفرصة بعد أن تذرع ببعض الأسباب وهاجم مدينة « ساجنتوم » التي كانت حليفة لروما داخل منطقة النفوذ القرطاجي سنة ٢١٩ ق. م. وحاصرها لمدة ثمانية أشهر حتى سقطت في يده فلما احتجت روما على ذلك رفض احتجاجها مما أدى الى اعلانها الحرب على قرطاجة سنة ٢١٨ ق. م.

وبدأت الحرب بين الفريقين وكل منهما يتجه في عملياته العسكرية اتجاها مختلفا حيث أراد « هانيبعل » أن يجعل حربه برية في أساسها ويغزو شمال ايطاليا ثم يتوغل فيها جنوبا آملا أن يحصل على مساعدة القبائل الغالبية في

شمال ايطاليا وأن يؤلب حلفاء روما عليها في الجنوب حتى تضطر إلى التسليم آخر الأمر ، وبالطبع أعد اسبانيا لتكون القاعدة الأساسية لإمداد جيشه بما يحتاج - أما روما فكانت تهيىء لحرب خارج ايطاليا في اسبانيا وشمال أفريقيا وأن تعمل على طرد قرطاجة من أسبانيا ، وبالطبع كانت الحرب فيهما تتطلب الاعتماد على قوة بحرية الى جانب قوة برية كذلك .

غـزو « هانيبعل » لايطاليـا :

ترك هانيبعل أخاه الذي كان يدعى « هسدرو بعل » ايضا في اسبانيا للاشراف عليها وليرسل له الإمدادات بانتظام على أن يلحق به فيما بعد ، وفي سنة ٢١٨ ق. م. خرج من اسبانيا قاصدا ايطاليا على رأس ٤٠,٠٠٠ جندي من المشاة و٩,٠٠٠ من الفرسان وعددا من الفيلة التي اعتاد القرطاجيون استخدامها ضمن قواتهم العسكرية ، وبعد أن عبر البرانس اتجه مسرعا شرقا الى جبال الألب - ولم يكن الرومان يتوقعون ذلك وأرسلوا بالفعل جيشا الى صقلية ليبحر إلى أفريقيا بقيادة « سمبرونيوس Sempronius » وآخر الى اسبانيا سار بمحاذاة الساحل الى مرسيليا (التي كانت تعرف باسم ماسيليا) وما أن علم قائد هذا الأخير (اسكيبيو Scipio) بتوجه « هانيبعل » الى ايطاليا حتى أرسل أخاه الى اسبانيا مع جيش آخر كي يحطم من قوة القرطاجيين بها قدر الامكان وأرسل الى السناتو في ايطاليا يخبرهم بتحركات «هانيبعل»، وأرسل السناتور يستدعونه من صقلية ، وعلى ذلك أسرع بالعودة إلى ايطاليا ليصل اليها قبل « هانيبعل » .

وبعد أن وصل « هانيبعل » إلى ماسيليا (مرسيليا الحالية) لم يستمر في تقدمه على الساحل ، حتى لا تتعثر خطته في الهجوم على ايطاليا اذا ما قابله الرومان ، بل اتخذ طريقا وعرا استنفذ منه جهدا كبيرا في نقل قواته وعتاده عبر جبال الألب ، واستطاع بعض التعرض لكثير من المتاعب وقسوة المناخ أن يعبرها في خمسة أشهر وتعد هذه العملية من أعظم الأعمال العسكرية في التاريخ ولم تتكرر إلا مرة واحدة هي التي قام بها نابليون عند غزوه لايطاليا - وقد تعرض « هانيبعل » لكثير من المكائد التي دبرها له سكان المنطقة

من قبائل الغالة والكلتيين التي أصابت قواته بالكثير من الأذى إذ كانوا يلقون على جنوده الاحجار وهم في مخابيء لا يلاحظها الجنود .

ولما عبر جبال الألب نزل إلى حوض نهر «البو» حيث كان الرومان يتجمعون للقائه وكانت جيوشهم تفوق جيوشه عدة أضعاف.

موقعة « تريبيا – Trebia » (ديسمبر سنة ٢١٨ ق. م.) :

انتظر اسكبيو (Scipio) عند أحد روافد نهر بو الشمالية استعدادا للقاء « هانيبعل » عند وصوله ولكنه لم يستمر طويلا وانسحب إلى رافد آخر في جنوب النهر المعروف باسم نهر «تريبيا» وهناك وجد جيشا رومانيا آخر عند موقع مناسب تحميه الجبال – ونظرا لاصابة اسكبيو (Scipio) بجرح فقد اضطر جيشه للتوقف ، ولم يبدأ الرومان المعركة نظرا لأنهم اعتقدوا أن « هانيبعل » بعد عبوره الألب سيحتاج الى فترة راحة طويلة مما يجعلهم في وضع يسمح لهم بتحديد وقت المعركة الذي يتراءى لهم حينما تكون ظروفهم مواتية لذلك ، فانتظروا بعض الوقت حتى تحين لهم فرصة الانقضاض على « هانيبعل » ، غير أن « هانيبعل » أدرك بذكائه ما يدور بخلدهم وبادرهم بالهجوم في أقرب فرصة أتيحت له – وفي يوم قارس البرودة من شهر ديسمبر أيقظ جنوده لتناول الافطار وجعلهم يدهنون أجسامهم بالزيت وقاية لهم من البرد الشديد ثم أرسل فرقة من الفرسان عبر النهر ليغري الرومان بالالتحام معه في معركة – وكان القائد الروماني متعطشا لإحراز نصر سريع طلبا للمجد فقاد جنوده لتعقبهم دون تناول افطارهم وحينما عبروا النهر شلت المياه الباردة أجسامهم عن الحركة وخاصة لأنهم كانوا جوعى – وقد أرسل « هانيبعل » أخاه « ماجو » ليفاجيء الرومان من الخلف بينما جعل فرسانه تهاجم جناحي الجيش الروماني وبعد قتال عنيف حطم قوة الجيش الروماني فلم ينج منه سوى خمس عدده فقط ، أما بقية رجال هذا الجيش فكانوا بين أسير وجريح كما قتل القائد « كورنيليوس اسكيبيو – Cornilius Scipio » و« سمبرونيوس لونجوس – Sempronius Longus » – وهكذا احتل هانيبعل الموقع الروماني بعد أن انتصر على الرومان انتصارا باهرا مما كان له أثره البالغ على موقف « هانيبعل » ، فبعد

أن كان يتعرض لكيد القبائل الغالية في شمال ايطاليا أعلنوا له ولاءهم وبذلك اكتسب صداقتهم واطمأن إلى أنه سيستعين بهم كجنود في جيشه وإلى أنه سيضمن سلامة الاتصال بينه وبين اسبانيا حيث أصبح طريقه اليها آمنا لا تهدده هذه القبائل .

موقعة بحيرة « ترازيمين – Trasimene » (سنة ٢١٧ ق. م.) :

انتاب الرومان الذعر والقلق لتقدم هانيبعل واسرع السناتو باتخاذ الخطوات التي رأوا أنها كفيلة بوقف تقدم الجيش القرطاجي فعينوا القنصلين[1] «فلامينيوس جايوس – Flaminius Gaius » و« جنايوس سيرويليوس – Gnaeus Servilius » ليقف كل منهما على رأس جيش في أحد الطريقين الأساسيين المؤديين الى روما ، ولكن هانيبعل أفلت منهم بمهارة حيث اتخذ طريقا وعرا غير مطروق عبر مستنقعات وأوحال لمدة أربعة أيام وثلاث ليال ملهبا حماسة رجاله الذين مناهم بأنهم في طريقهم إلى روما ثم وصل إلى سهل صغير تحيطه الجبال قرب بحيرة « ترازيمين » ، وبعد راحة قصيرة فاجأ الجيشين الرومانيين بالانقضاض عليهما الواحد تلو الآخر فقضي على جيش « فلامينيوس » الذي قتل في المعركة ودمر جيش « سيرويليوس » وبذلك أصبح الطريق إلى روما مفتوحاً أمامه .

معركة « كاناي – Cannae » (سنة ٢١٦ ق. م.) :

تسببت هزيمة روما في المعركة السابقة في حدوث أزمة حادة في المجتمع الروماني وعم الشعور باليأس اذا ما ظلت روما تخضع لنظام القناصل فقرر السناتو العدول عن هذا النظام وانتخاب دكتاتور يتمتع بسلطان مطلق على الدولة واختاروا لذلك (فابيوس – Quintus Fabius » الذي اطلق عليه لقب « المعطل » نظرا لاتباعه استراتيجية تهدف إلى عدم مجابهة « هانيبعل » في معركة كبيرة خشية الهزيمة لأن ذلك يعرض مستقبل روما لخطر داهم ، وفي نفس الوقت حرص على أن يبعد « هانيبعل » عن روما بقدر الامكان فأخذ يهاجم

(١) القنصل ممثل الدولة داخل روما .

جيشه ومعسكره بجماعات صغيرة ، أي أنه اتبع أسلوبا أشبه بحرب العصابات مما عرقل تقدم « هانيبعل » وأزعج جنوده - وقد نجحت هذه الخطة حيث جنبت روما هزيمة كبيرة ثالثة كذلك لم يستطع هانيبعل أن يحاصر روما لعدم توفر أسلحة حصار للمدن معه ، فاتجه إلى الجنوب رغبة في الاستيلاء على ايطاليا بأكملها وأن يفصل بين روما وحلفاءها ، ولكن الوضع أصبح في غير صالح هانيبعل حيث اتسعت المنطقة التي توغل فيها وبذلك طالت خطوط مواصلاته مما أتاح الفرصة لنجاح حرب العصابات ، وبالرغم من ذلك ضاق الرومان بأسلوب « فابيوس » حيث أرادوا أن يحقق نصرا سريعا ولذا عكف السناتو على تجنيد أكبر عدد ممكن من الجنود وقرر أن يعود إلى النظام القنصلي وعين « لوكيوس اميليوس باولوس - Lucius Aemilius Paulus » و« جايوس ترنيتيوس فارو - Gaius Terentius Varro » قنصلين أوكلت إليهما مهمة الحرب ضد « هانيبعل » على رأس جيش من ٨٠,٠٠٠ جندي ، فاتجه هذا الجيش إلى الجنوب لمقابلة الجيش القرطاجي المكون من ٥٠,٠٠٠ جندي - والتقى الجيشان عند « كاناي » في جنوب شرق ايطاليا ، ولكن « هانيبعل » نصب كمينا للجيش الروماني حيث وضع قوة صغيرة من الغاليين والأسبان أمام قوات « فارو » وأمرها بالتراجع تدريجيا عند مهاجمتها وحينما أخذت جيوش الرومان تتبع هذه القوة تراجعت نحو وسط جيش « هانيبعل » حيث وضعت القوات الليبية على الجانبين - ولما وصلت القوات الرومانية الى مكان ملائم فاجأها « هانيبعل » بهجوم عاصف من الفرسان أعقبه هجوم شامل بجميع الأسلحة ، فأسقط في يد الرومان الذين احيطوا من كل جانب وفقدوا السيطرة على حركتهم واستعمال الأسلحة التي بأديهم استعمالا مجدياً - ولم ينج منهم بالفرار سوى ١٠,٠٠٠ من الرجال ومعهم فارو ، بينما قتل الآخرون هم والقنصل « باولوس » وثمانين عضوا من أعضاء السناتو .

وبعد هذه المعركة نصح أحد القواد القرطاجيين « هانيبعل » بالهجوم مباشرة على روما ولكن هذا الأخير أبى إلا أن ينفذ خطته من الاستيلاء على ايطاليا أولا وأن يشجع حلفاء روما على التمرد عليها حتى تضطر إلى التسليم في النهاية ، وربما كان عدم وجود اسلحة حصار معه هو الذي جعله يتمسك بهذه الخطة .

تغير ميزان القوى في البحر المتوسط

رغم ما بذله السناتو من جهود لإثارة حماسة الرومان في مقاومة غزو « هانيبعل » ورغم تحصين المدن الرومانية فإن معركة « كاناي » كانت ذات أثر بعيد المدى ، فأكثر حلفاء روما من الايطاليين وخاصة في الجنوب ثارت على روما ، وكذلك انسلخت سيراكيوز في صقلية عن حلفها مع روما ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن فيليب الخامس ملك مقدونيا أعلن أنه سيعقد حلفا مع « هانيبعل » لأن السناتو الروماني حاول التدخل في شؤون شبه جزيرة اليونان ، وأمام هذه المتاعب اجتهد الرومان في منع قيام هذا الحلف واستطاعوا إثارة حرب أهلية في اليونان تحالفت فيها « إيتوليا » و« أسبرطة » و« برغاما » ضد مقدونيا وشغلت هذه الحرب مقدونيا نحو تسع سنوات انتهت بهزيمتها سنة ٢٠٦ق.م. وأرغم فيليب على الصلح .

وقد وجد « هانيبعل » نفسه في موقف صعب إذ عجز عن فتح المدن الايطالية المحصنة التي ظلت على ولائها لروما ، وفي نفس الوقت كان عليه أن يدافع عن المدن التي ثارت على روما وانحازت إليه مما اضطره إلى تشتيت جهوده وقواته العسكرية ، وانقلب الوضع حيث أصبح مدافعا عن هذه المدن بدلا من أن يستمر مهاجما ففقد أمجاد النصر التي كان ينعم بها - واستغل الرومان الفرصة فبدأوا يسترجعون المدن التي ثارت ضدهم مبتدئين بتلك التي في صقلية لأنها كانت أبعد من الاحتكاك المباشر مع جيوش « هانيبعل » ، وبالفعل سقطت سيراكيوز في أيدي الرومان بعد حصارهم الطويل لها - ويقال أن العالم الرياضي الشهير أرشميدس اخترع آلات استخدمها المدافعون عن المدينة دون جدوى ، كما أن هذا العالم سقط قتيلا في آخر مرحلة من مراحل

الدفاع عن المدينة سنة ٢١٢ق.م.، ثم انتقل الرومان بعد ذلك إلى جنوب ايطاليا حيث حاصروا مدينة «كابوا» بثلاثة جيوش فحاول «هانيبعل» أن يفك حصارها بتحويل أنظارهم للدفاع عن روما، التي نصب خيمته على بعد ثلاثة أميال منها، وبدأ الهجوم عليها ولكنه لم ينجح في حصارها لعدم وجود آلات حصار معه، وسقطت «كابوا» بعد قتال مرير راح ضحيته كثيرون من الطرفين سنة ٢١١ق.م.، وفي العالم التالي تمكن الرومان من استرداد «تارينتوم» أيضا.

وهذه الانتصارات التي أشرنا إليها أتاحت الفرصة للرومان كي يستخدموا جيوشهم في حرية فنقلوا جزءا من جيوشهم إلى إسبانيا التي كان موقفهم فيها حرجا.

وفي تلك الأثناء ابتدع الرومان نظام تعيين قواد من كبار الموظفين السابقين برتبة «بروقنصل» أو «بروبريتور» [1] لمدد مختلفة بدلا من الالتزام بنظام الوظائف الدائمة - فعينت روما اثنين من كبار أسرة «اسكبيو» لقيادة الجيوش الرومانية في اسبانيا ولكنهما هزما وقتلا سنة ٢١١ق.م. على يد «هسدروبعل» القائد القرطاجي في اسبانيا وهو أخ ل«هانيبعل» وأصبح الموقف خطيرا بالنسبة لروما خشية أن يؤثر ذلك على سير القتال في ايطاليا حيث يصبح في الامكان إرسال مدد من اسبانيا إلى «هانيبعل» في ايطاليا - لذلك أصدرت روما قرارا بتعيين ابن أحد القائدين اللذين سبق أن قتلا في اسبانيا قائدا لجيشها رغم أنه لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره، وقد تطلب ذلك استصدار قرار خاص بمنحه سلطة الامبيريوم[2] (Imperium) من جمعية المائة وذلك لأول مرة في تاريخ روما، وهذا القائد الجديد هو الذي عرف باسم «اسكيبيو الافريقي».

أظهر القائد الصغير مهارة فائقة في قتاله في اسبانيا مما عوض الرومان

---

(١) «بروقنصل» له صلاحية القنصل خارج روما، كذلك «بروبريتور» له صلاحية (Imperium) أي له صلاحية القيادة خارج روما.

(٢) له صلاحية القيادة

كثيرا من خسائرهم وأعاد الثقة الى نفوسهم ، ففي سنة ٢٠٩ ق.م. هاجم « هسدروبعل » هجوما خاطفا كانت نتيجته أن استولى على مدينة قرطاجنة (قرطاجة الجديدة) عاصمة القرطاجيين في اسبانيا - غير أن « هسدروبعل » تمكن من الافلات بجيش كبير وإمدادات كثيرة واتجه الى ايطاليا برّا ليقف إلى جوار أخيه هناك لعلمه بأنه في حاجة لمزيد من الجنود والامدادات ، وأدرك الرومان خطورة انضمام الجيشين القرطاجيين معا في ايطاليا حيث يصبح أمل روما في النصر ضعيفا جدا وخاصة لأن حروبها الطويلة استنزفت مواردها ودمرت أراضيها ، بل وأصبح حلفاؤها يرفضون تقديم المساعدة لها - ولحسن حظ روما وقع الرسول (الذي أرسله « هسدروبعل » إلى أخيه ليخبره بوصوله) في قبضة الرومان فاستعدوا لذلك بجيش كبير قابل جيش «هسدروبعل» وانتصر عليه سنة ٢٠٧ ق.م. عند نهر « ميتاورس » (Metaurus) ورغم حرج موقف « هانيبعل » استطاع أن يصمد في ايطاليا بعد ذلك عامين ولكنه لم يحرز نصرا بالطبع لعدم وصول مدد له وأصيب باليأس فاستجاب لدعوة وطنه بالعودة وعاد الى قرطاجة بعد أن قضى في حروبه خمسة عشر عاما دون هزيمة واستولى على ايطاليا بأسرها ودمر نحو ٤٠٠ مدينة . أما « اسكيبيو » القائد الروماني الصغير فقد أخضع اسبانيا بأسرها واتجه الى قرطاجة لمحاربة « هانيبعل » في عقر داره ، وساعده الحظ بثورة الجنود المرتزقة في جيش قرطاجة أثناء المعركة التي دارت عند «زاما Zama» بالقرب من قرطاجة وهجروا « هانيبعل » الذي مني بهزيمة فادحة سنة ٢٠٣ق.م. وكانت هذه أول وآخر مرة يهزم فيها ، وعلى أثرها فر « هانيبعل » الى الشرق حيث تعاون مع ملك ليديا في حربه ضد الرومان ولكن هؤلاء انتصروا على الليديين فانتحر « هانيبعل » سنة ١٨٢ق.م.

وقد فرضت روما شروطا قاسية على قرطاجة بعد هزيمتها في معركة«زاما Zama» منها :

١ - تسليم اسبانيا

٢ - أن تدفع قرطاجة لروما غرامة ضخمة .

٣ – أن تتخلى عن استخدام الفيلة في قواتها العسكرية وأن تتخلى عن سفنها الحربية فيما عدا عشرة منها .
٤ – أن لا تعلن في المستقبل حربا في داخل ليبيا أو خارجها دون إذن من روما.

وفي هذاالشرطالأخير ما يفيد تبعية قرطاجة لروما، وقد استغلته فيما بعد أحسن استغلال في التضييق على قرطاجة ، وفي إثارة جيرانها عليها حتى تقلص نفوذها في شمال أفريقيا إلى أن وجدت روما أن الفرصة سانحة لاعلان الحرب على قرطاجة للقضاء عليها نهائيا في الحرب البونية الثالثة .

وحينما عاد اسكيبيو من معركة «زاما Zama» استقبلته روما بأقواس النصر ومنح لقب « اسكيبيو » الافريقي تخليدا لانتصاره .

الحرب البونية الثالثــة :

كان من نتائج الشروط التي أملتها روما على قرطاجة التي سبقت الاشارة إليها أنها جعلت قرطاجة مشلولة الحركة من الناحية العسكرية حيث أن الشروط التي أمليت عليها ألزمتها بأن لا تشن حربا إلا بإذن من روما حتى ولو أجبرتها الظروف على خوض غمار تلك الحرب ، وفي نفس الوقت أخذت روما تؤلب جارات قرطاجة لمهاجمتها والاستيلاء على بعض أراضيها ، واستغلت بعض الدول مساندة روما أو تغاضيها فتحالف «مـاسينيسا Masinissa» ملك « نوميديا » (التي كانت تابعة لقرطاجة) مع روما وأخذ يطالب بتوسيع رقعة بلاده وكثيرا ما هاجم الأراضي القرطاجية متذرعا بهذا السبب أو ذاك ، ولم تستطع قرطاجة رد هجماته بل كانت مضطرة لأن تقدم شكوى إلى مجلس السناتو في روما فكانت روما تكتفي بإرسال لجنة للتحقيق كانت عادة تبرر مسلك ملك نوميديا .

وفي إحدى المرات أرسلت روما أحد المحاربين القدامى وهو سياسي متزمت يدعى « كاتو Cato» فلاحظ أن قرطاجة استعادت قدرا من الرخاء وانتشرت تجارتها ، واعتقد بأن ذلك قد يساعد قرطاجة على أن تصبح قوة عسكرية وسياسية كما حدث في الماضي ، ولذا بادر بتنبيه روما إلى أنها قد تعود

لتهديدها من جديد وأخذ يدعو للقضاء عليها وبروج الشعار الذي ينص على أنه «لا بد من أن تدمر قرطاجة» فكان يردد ذلك في كل خطبة في مجلس السناتو، وبمرور الزمن أصبح أعضاء من السناتو يؤمنون بهذا الشعار ويعتقدون بوجوب تطبيقه، واستطاع أن يقنع السناتو الذي قرر إرسال حملة لمحاربة قرطاجة سنة ١٥١ق.م. متذرعا بالرغبة في معاقبتها لخلافاتها مع نوميديا .

وفوجيء القرطاجيون بالحملة التي لم يكونوا قد استعدوا لها ولم يرغبوا في أول الأمر خوض غمار الحرب وعرضوا على روما أن تأخذ ثلاثمائة طفل من أبناء أسرها الكبيرة كرهائن ولكن الرومان لم يقبلوا وطالبوا القرطاجيين أن يجلوا عن مدينتهم الى مسافة عشرة أميال بعيدا عن الساحل ليتمكنوا من تدميرها فأدرك القرطاجيون أن الرومان يرغبون في القضاء عليهم وعلى مدينتهم نهائيا وآثروا أن يقاتلوا بدلا من الاستسلام .

ومع عدم استعداد القرطاجيين مسبقا لهذه الحرب إلا أنهم استطاعوا أن يهيئوا أنفسهم لها على وجه السرعة واستبسلوا في الدفاع عن وطنهم مستميتين في القتال إلى درجة أثارت اعجاب الرومان أنفسهم، ومما يروى في هذا الصدد أنهم حولوا كل معبد وكل حانوت إلى مصنع لانتاج الأسلحة وأدوات القتال وظلت تقاوم ثلاثة أعوام، ثم رأت روما أن تغير قائدها فعينت قائداً جديداً يدعى «اميليانوس» (Aemelianus) استطاع بعد حصار مرير أن يقهر قرطاجة سنة ١٤٦ق.م.وأن يدمرها عن آخرها ثم أحرقها وبيع سكانها كرقيق .

الحضارة الفينيقية

أولاً : المدن الفينيقية وتأسيسها

من الموضوعات التي يهتم بها الدارسون المحدثون نظام تخطيط المدينة وبناء المنازل القديمة، باعتبارهما من المظاهر الحضارية. وإذا كانت هذه الدراسة أساسية بالنسبة للشعوب المختلفة ، فهي أكثر لزوماً بالنسبة لقوم لم يعرفوا سوى حياة المدينة من الناحيتين السياسية والاجتماعية ، مثل الفينيقيين ، شأنهم في ذلك شأن الأغريق . ولكن إذا كانت المصادر الاغريقية ونتائج الحفائر الأثرية قد امدتنا بمعلومات قيمة عن طريقة بناء المدن وتخطيطها عند الأغريق . فإن معلوماتنا عن العمران الفينيقي لا تتعدى بعض الأوصاف الجزئية التي وصلتنا في عبارات عامة متفرقة جاءت في كتابات المتاخرين من الأغريق واللاتين ، وما أمدتنا به الكشوف الأثرية من حقائق أسفرت عنها جهود الأثريين في المواقع الفينيقية القليلة التي وجدت بها بعض الآثار أو في آثار البلاد الأخرى التي كانت لها بعض العلاقات مع فينيقيا .

وأول ظاهرة نلحظها في هذا المجال هي أن كل مدينة فينيقية - صغيرة أو كبيرة - كان يحيط بها سور ويظهر ذلك جلياً من النقوش التي زينت بها البوابات البرونزية التي أقامها الملك الاشوري « شلمنصر الثالث » (٨٥٩ - ٨٢٤ ق . م) . في « بلوات Balawat» (بالقرب من نمرود بالعراق) ، مسجلاً حملاته المختلفة . ويمثل هذا النقش وفداً من مدينة صور ، يعبرون البحر من جزيرتهم إلى الساحل ليقدموا الجزية إلى الملك الأشوري - ويهمنا من النقش بصفة خاصة أن الجزيرة قد صورت كقلعة يحيط بها سور منيع وقلاع واضحة تمام الوضوح .

ومن نقش آخر أقامه الملك «سنحريب» في مدينة نينوي العاصمة الأشورية نرى منظراً يمثل « لولي » ملك صور وصيدا وهو يفر من مدينة صور إلى قبرص من وجه الملك الأشوري (سنة ٧٠١ق . م .) - ونرى أن « لولي » وأسرته يركبون المراكب من باب خلفي في سور المدينة ، وإن كان الفنان الذي صمم النقش لم يفصل بين السور ومنازل المدينة ، وأصبح السور بقلاعه وتحصيناته جزءاً من المنازل ذات الطابقين ولكنه يغطي الطابق الأول منها فقط - كذلك نرى أسوار مدينة صيدا بقلاعها وتحصيناتها مصورة على بعض عملات المدينة التي ترجع إلى الجزء الأول من القرن الرابع قبل الميلاد .

وكانت المدن الفينيقية صغيرة الحجم عادة ، شأنها في ذلك شأن المدن القديمة بصفة عامة ، ولهذا كان الطابع الغالب عليها هو ضيق الطرق والممرات وازدحامها بالمنازل وتكاثرها إلى درجة تلاصق بعضها البعض - ونظراً لأن مساحة المدينة كانت محدودة بسور فإن كل زيادة في السكان في فترات الازدهار لا يصحبها اتساع وراء الاسوار ، في بداية الأمر ، ولكن كان ينعكس في الاتجاه بالمساكن إلى أعلى ولهذا كان الغالب على المنازل أن تتكون من أكثر من طابق - ويؤكد هذه الحقيقة ما يرويه الكتاب من الاغريق القدماء ممن وصلت إلينا اعمالهم مثل « استرابون » الجغرافي من القرن الأول ق . م . حيث يذكر أن منازل صور وأرواد كانت تتكون من عدة طوابق ، وأن منازل صور كانت أكثر ارتفاعاً من المنازل في روما ذاتها[1] .

وكذلك يذكر « ابيانوس » وهو من مؤرخي القرن الثاني الميلادي ، بأن المنازل في بعض أحياء مدينة قرطاجة كانت تتكون مما لا يقل عن ستة طوابق ، ولكن هذه المنازل العالية وجدت فقط في الأحياء التجارية وقرب الميناء - أما في أماكن أخرى وفي المدن الفينيقية الأخرى الصغيرة فإن الطابع الغالب على المنازل هو المنازل ذات الطابقين فقط كما يتضح ذلك من رسم على مقبرة في

(١) استرابون : ١٦ : ٢ ، ١٣ ، ٢٣ .

شمال افريقيا ، يمثل بلدة منازلها جميعها من طابقين وكذلك من نقش سنحريب (بمدينة نينوي) عن مدينة صور الذي سبقت الإشارة إليه .

أما عن تخطيط البيوت نفسها في المدينة الفينيقية ، فإن الآثار لم تمدنا بعد بمادة كافية لاصدار آراء أوأحكام عامة ومع ذلك فهناك بعض النماذج القليلة مثل منزل كشف عنه في « موتيا » في جزيرة صقلية ، فهو بيت حسن البناء والنظام يشتمل على عدد من الحوانيت والمخازن ملحقة به . وإن كانت به مناظر مصنوعة من فسيفساء في طراز وأسلوب يوناني مما يرجح أن البناء يوناني الطابع وليس فينيقيا ، ومع ذلك فالصور الممثلة في الفسيفساء لحيوانات تتصارع يظهر فيها التأثير الشرقي ولعل المنزل كان لرجل فينيقي أدخل في بنائه بعض العناصر اليونانية .

أما الموقع الأخير الذي عثر فيه على منازل فينيقية فهو في شمال أفريقيا بالقرب من موقع قرطاجة «بدار الصافي» بجزيرة «رأس بون Cape Bon» وهي بلدة صغيرة ترجع إلى القرن الرابع حتى الثاني ق . م . من المرجح أن سكانها كانوا جماعة من صيادي السمك أو المشتغلين بالأصباغ القرمزية الألوان – وقد اشتمل أحد هذه المنازل على حمام به مغطس ذي مقعد ، وفي بناء آخر نجد حماماً قد بقي لنا في حالة جيدة وبه نظام متقن لتصريف المياه ، وللحجرات أرضية من السمنت الوردي اللون قد ثبتت فيها مكعبات صغيرة من الرخام ، وهي طريقة شاع استخدامها في أماكن مختلفة من البحر الأبيض المتوسط في ذلك الوقت أي قبل استخدام الفسيفساء الحقيقية في العصر الامبراطوري . وهذه المساكن لم يكن يغطي جدرانها الخارجية أية زخرفة أورسم(١) وكان المسكن يطل على الداخل حيث يحيط بفناء صغير ، وهي طريقة ظلت مألوفة في العصور الوسطى أيضاً واستمرت إلى القرن التاسع عشر .

ولقد عثر حديثاً في مدينة قرطاجة ذاتها على منازل ترجع إلى العصر الفينيقي المتأخر ويتضح من بعضها أنها بنيت على قطع مربعة من الأرض

---

(١) Donald Harden, «The Phoenicians», pp. 133—5 .

تحيط بها شوارع مستقيمة جيدة الرصف – وتصميم المنازل بسيط إذ تتكون من مجموعة من الحجرات المستطيلة الخالية من المبالغات الهندسية بغرض الزخرفة والجدران ، التي ما زال بعضها قائمًا إلى ارتفاع متر أو أكثر ، مبنية من الطوب أو الطمي فوق أساس من الحجر وتغطيها طبقة من القار لتمنع تسرب الماء – وقد استخدمت قوالب من الحجر أحياناً بين الطوب والطمي لتقوية الجدران التي كثيراً ما كانت تغطي بطبقة من الجص كما هو واضح من آثار كثير من المباني القرطاجية.

أما عن طريقة إمداد المدينة بالماء فتقوم على خزانات إذ أن الكنعانيين منذ بداية عصر الحديد تمكنوا من تغطية خزانات الماء بطبقة من الجص تمزج على نحو تجعلها عازلة للماء فلا يتسرب منها – وبتقوية واتقان البناء والمادة العازلة تمكنوا من جمع مياه الأمطار وحفظها في خزانات لفترات طويلة ، وبفضل هذه الطريقة لم يحرص المهاجرون الفينيقيون دائمًا على اتخاذ مواقعهم بالقرب من عيون الماء أو مجاري الأنهار – وكانت قرطاجة تعتمد على نبع رئيسي عرف باسم « الألف وعاء » ، أقامت حوله خزانات هائلة لحفظ مياهه وتنظيم إمداد المدينة بها – واستخدم الفينيقيون فيما بعد مادة أفضل من الجص وهي السمنت الحقيقي الذي يحتمل أنهم أخذوه عن الاغريق واستخدموه بكفاءة عالية تدل عليها الخزانات الكثيرة التي عثر عليها في قرطاجة وترجع إلى السنوات الأخيرة قبل القضاء على المدينة .

ولا شك في أن المعابد كانت من أهم المباني التي وجدت في كل مدينة فينيقية ولكن ، مما يدعو إلى الأسف ، أن ما عثرنا عليه من بقاياها قليل لا يفيد كثيراً في تكوين فكرة كاملة عن أنماط الهندسة الفينيقية لبناء المعبد ، ولكن في استطاعتنا ان نتصور ما كانت عليه بصفة عامة من نقوش على بعض العملات التي ترجع في تاريخها إلى زمن متأخر (من العصر الروماني) وهي تمثل نماذج لمعابد وهياكل فينيقية ، وإن كانت هذه النقوش عادة لا تمدنا بالتفاصيل ولا تفيدنا في فهم التكوين الداخلي لأنها تصور عادة الواجهة أو المظهر الخارجي فحسب[1] (كما في شكل ١) وربما كان خير وصف ورد لنا عن

(١) Moscati, op. cit., fig 4, p. 48



شكل «١» عن **Moscati, op.cit., fig 4, p.48**

طريقة بناء المعابد الفينيقية هو الوصف التفصيلي الذي تورده التوراة لمعبد سيدنا سليمان في بيت المقدس (شكل ٢) ، فمن المعروف أن الذين قاموا ببناء هذا المعبد عمال ومهندسون فينيقيون ولا بد أنهم أقاموه على نحو ما ألفوا في بناء المعابد الكبرى في المدن الفينيقية – ويتضح من الوصف أن معبد سليمان كان يتكون من ثلاثة أجزاء أو أقسام رئيسية هي : قدس الأقداس وبهو ثم ردهة للمدخل الأمامي ، وله أيضاً غرف جانبية ترتفع إلى ثلاثة طوابق ، وأمام المعبد يقف عامودان مغطيان بطبقة من البرونز. ويختلف الدارسون فيما إذا كان هذان العمودان قائمين بمفردهما أو أنهما يكونان جزءاً من بناء الواجهة .

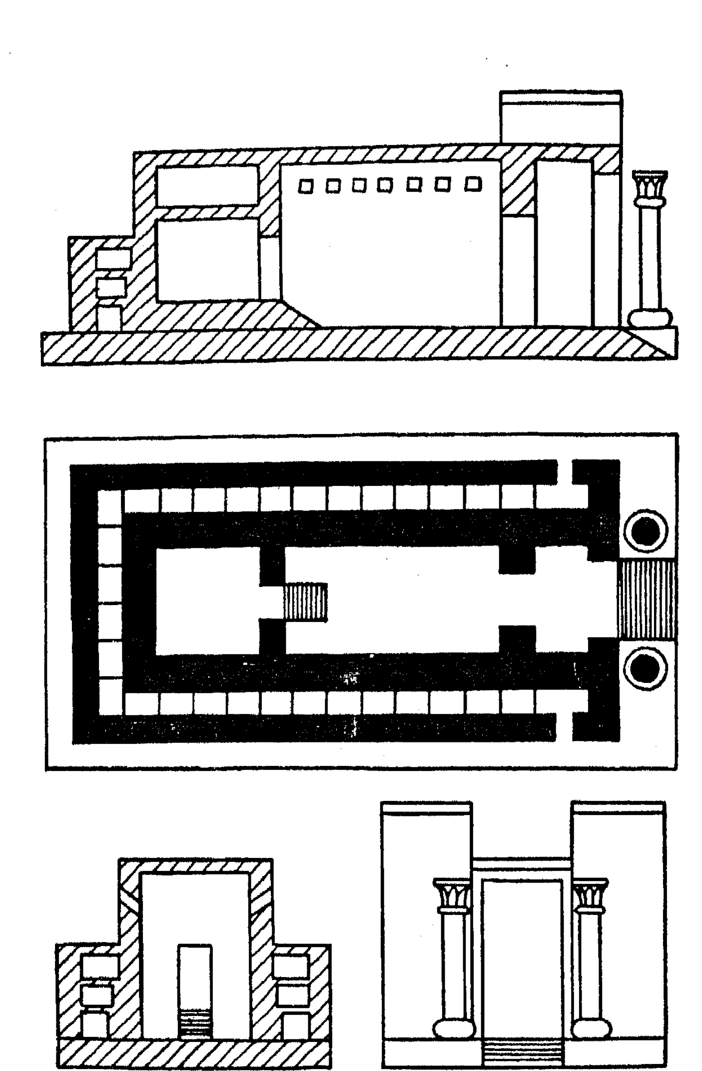
ومما يؤكد أن هذا النظام في بناء المعابد يتفق مع الطراز الفينيقي أن معبداً آخر عثر عليه في موقع حازور بفلسطين يشتمل أيضاً على هذا التقسيم الثلاثي مع ملاحظة أن ردهة المدخل الأمامي أضيق من الأجزاء الأخرى ، وتشتمل ردهة المدخل على عمودين أيضاً بقيت منهما القاعدتان وهما من حجر البازلت . ومما يؤيد ذلك الوصف أن معابد عثر عليها في كل من تركيا وسوريا تتميز أيضاً بنفس الطريقة في التصميم والبناء ، ولا شك في أن مثل هذه المباني وجدت في جميع المدن الفينيقية أو في معظمها على الأقل .

ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن هذه المعابد كان يحيط بها عادة فناء مكشوف – ويبدو أن العمودين في مقدمة المعبد كانا ظاهرة مألوفة ، إذ يذكر هيرودوت أن معبد الإله ملقارت في صور اشتمل على عمودين : واحد من الذهب والآخر من الزمرد .

وبالإضافة إلى هذه المعابد الكبرى ، وجدت نماذج من الهياكل الصغيرة ، التي كانت أبسط تكويناً وبناء ، وخير مثال لهذه هو الهيكل الذي عثر على انقاضه في ماراتوس (عمريت في سوريا) وهو عبارة عن مقصورة تقوم على قاعدة مرتفعة تبلغ مساحتها خمسة أمتار مربعة . ويعلو المقصورة

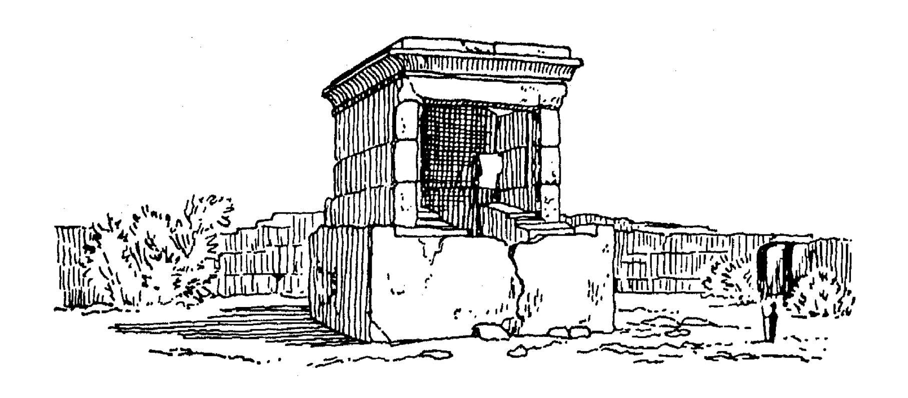
---

(١) انظر : Moscati, op.cit., fig. I, p. 45.
Harden, op. cit., p. 19, p.92.



شكل (٢) عن Harden, op.cit., p.92

افريز بالطريقة المصرية ويحيط بهذا البناء فناء مسور يبلغ مساحته خمسين متراً[1] (شكل ٣)، وإن كانت نقوش العملة التي من عصور متأخرة تدل على أن بعض الهياكل لم تكن بمثل هذه البساطة فبعضها له واجهة من الأعمدة وفي مكان ظاهر منها أقيم تمثال الإله المعبود . ولعل خير مثال على ذلك هو عملة مدينة (ببلوس) جبيل التي ترجع إلى القرن الثالث الميلادي وقد رسم عليها نوع من الهياكل الأكثر تعقيداً[2] .



شكل (٣) عن **Harden, op.cit., p.93**

(١) Harden, op. cit., fig, 20, p. 93.
Moscati, op. cit, fig, 2, p. 46.

(٢) أنظر ص١٠٢، ١٠٣ .

ثانياً: النظم السياسية

من المعروف أن المدن الفينيقية الشرقية بقيت من الناحية السياسية مستقلة عن بعضها البعض ، وكل واحدة منها تهتم بمصالحها الذاتية المباشرة ، وحول كل منها مساحة من الأرض تكون « إمارتها أو مملكتها » . وهذه كانت عادة صغيرة الحجم ، لا تزيد عن الأرض اللازمة لانتاج الغذاء لحاجة السكان . ولا بد أن المدن الكبرى ، وخاصة صور وصيدا ، مارست نوعاً من السيادة على مدن أخرى في بعض الاوقات على الأقل .

ومما لا شك فيه أن المدن الفينيقية لم تتحد فيما بينها كما أن الفينيقين لم يتطوروا الى مرحلة تكوين دولة فينيقية موحدة تضم العناصر الفينيقية كما يتضح ذلك مما ذكره هيرودوت من أنه وجد ثلاث رؤساء للأسطول الفينيقي في أسطول أجزركسيس الفارسي أثناء حملته على اليونان سنة ٤٨٠ ق . م . وهم « تيترا منيستوس Tetramnestos» الصيدوني « وماتان Mattan » الصوري و« مار بالوس Marbalos» الاروادي فلو أنه كان هناك اتحاد فينيقي لكانت مجموعة السفن الفينيقية تحت قيادة موحدة .

ولم تكون مدينة قرطاجة دولة امبراطورية بمعنى الكلمة مع أنها أخضعت لسلطانها أكثر المدن الفينيقية الاخرى في الغرب نظراً لتفوقها التجاري والعسكري ، فهي لم تنظر الى هذه المدن على اعتبار أنها ممتلكات لها ، ولم تعتبر مواطني هذه المدن مواطنين قرطاجيين - ومن جهة أخرى فإن هذه المدن أصدرت عملتها المستقلة عن عملة قرطاجة كما هو الحال في مدن صقلية

الفينيقية وفي « قادس » بأسبانيا «وايبيزا» بالبليار حتى في أوج سلطان قرطاجة . ولدينا نقش من جزيرة مالطة يدل على أن هذه الجزيرة كان لها كيان سياسي مستقل ، يحكمها حاكمان (Suffetes) ومجلس شيوخ ومجلس شعبي كما كان لقرطاجة تماماً ، كما وردت إشارات من مصادر أخرى عن وجود « سوفيتيس » في مدن أخرى مثل « ثاروس » « وقادس »، ومن ناحية أخرى كان لهذه المدن أسوارها وحصونها الأساسية للدفاع عنها ولكن لم يكن لها إلا في حالات نادرة جيش وأسطول ، ويبدو أنها اعتمدت أساساً على قرطاجة لتسرع إليها في وقت الضرورة إذا ما اعتدى عليها معتد ، وتتضح هذه الحقيقة مما ذكره المؤرخ توكيكيدس[1] فيما يختص بعلاقة المستعمرات الفينيقية في صقلية حيث أشار إلى أنها تركزت بالقرب من قرطاجة التي كانت تقوم بدور الحامية والزعيم لها .

أما عن مدينة قرطاجة ذاتها ، فكانت مثل غيرها ، تسيطر على مساحة من الأرض الزراعية التي تحيط بها ويسميها الرومان (Territorium) (أي إقليم أوولاية) ، وفي القرن الخامس امتدت مساحة هذه الارض حتى شملت مساحة كبيرة من شمال شرق تونس بما فيها من بعض المدن الصغيرة الأخرى التي كانت مستقلة من قبل .

وفي بعض المراحل كانت هذه المساحة من الأرض محاطة بخندق ، ويهمنا أن نعرف حدود هذا الخندق لأنه يمثل الحدود السياسية لدولة قرطاجة في أعقاب الحرب البونية الثانية أي سنة ٢٠١ ق.م. ، على أن امتلاك قرطاجة لمثل هذه المساحة من الأرض لم يحولها من مدينة الى دولة ولكنه هيأ لها مساحة كبيرة من الأرض الزراعية كافية لإعاشة جميع سكانها على نحو يحميهم من المجاعة في حالة انقطاعهم عن العالم الخارجي بسبب ظروف الحروب المختلفة - ومع ذلك يبدو أن قرطاجة مارست الحكم المباشر خارج حدود أرضها في جزيرة سردينيا وفي أسبانيا فقط ، فنحن نعرف أنها ضمت إليها

(١) مؤرخ وفيلسوف عاش في الفترة (٤٧١ - ٤٠٠ ق ز م . تقريبا وقد اشترك في حرب البلوبينيز في بدايتها انظر فيما سبق ص ٦٣.

سهول المناطق الجنوبية والغربية في سردينيا في شكل ولاية وأنها نقلت إليها أهالي من أفريقيا لزراعة الأرض هناك وأنها أبعدت التجار الأجانب من منطقة نفوذها ، وقد أصرت قرطاجة على أن تزرع الأرض الخصبة بالغلال كما أنها أحسنت إستغلال المناجم فيها استغلالاً مجزياً من الناحية الاقتصادية وخاصة مناجم الرصاص والفضة .

وبعد الحرب البونية الاولى حدث شيء شبيه بذلك في أسبانيا نتيجة لغزوات «هاميلكار» «وهسدرو بعل» «وهانيبعل» - ومن العسير علينا أن نحدد مساحة المنطقة القرطاجية في أسبانيا ، ولكن لا بد وأنها كانت مترامية جداً ونعرف أنها بناء على اتفاقية بين «هسدروبعل» وروما سنة ٢٢٨ق.م. بسطت نفوذها فيها إلى نهر «إيبرو» وأن هذه المساحة الشاسعة كانت تحكم وتدار من قرطاجة وأنها كانت تدفع الجزية لها، وتمدها في وقت الحرب بالامدادات العسكرية والمعونة والمؤن شأنها في ذلك شأن الأراضي التابعة لقرطاجة في أفريقيا - ويمكننا أن نتصور أن سلطان قرطاجة في غير هاتين المنطقتين في الغرب كان ينتشر بطريق غير مباشر ، ومع ذلك فلا بد أنها تمتعت بسلطان أدبي كبير في جميع المدن الفينيقية في غرب البحر الابيض المتوسط طوال فترة قوتها وسيادتها التجارية والعسكرية ، أي قبل أن تتحطم قوتها أمام روما ، ولم تجرؤ مدينة واحدة منها على معارضة سياسة أو أعمال قرطاجة ، ولكن بما أن هذا النفوذ وهذا السلطان كان ذا طابع أدبي بحت ولا تسنده حامية عسكرية ولا وسائل التحكم السياسية المختلفة فإن الامبراطورية القرطاجية لم تكتسب صفة الارتباط والاندماج الوثيق ، وسرعان ما تفككت وانفرط عقدها حينما حلت بها أيام الضعف والهزيمة .

هذا من حيث شكل الدولة في المدن الفينيقية سواء في الشرق أو في الغرب ومدى توسعها ونفوذها - أما عن نظام الحكم فيجب أن نذكر أن سكان هذه المدن باعتبارهم كنعانيين أصلاً ، فهم من العنصر السامي ، الذي كانت البداوة من صفاته وكان يخضع لنظام القبيلة في أول الأمر . ونحن نعرف أن النظام الاساسي للقبيلة السامية يتلخص في وجود رئيس أو شيخ للقبيلة

يختار من بين الأسر العريقة القوية التي تنقسم إليها القبيلة ، وكثيراً ما تنحصر الرياسة في أسرة معينة بعض الوقت حين يعظم شأنها ، وإلى جانب رئيس القبيلة هناك عادة مجلس من شيوخها ورؤساء عشائرها الذين هم أصحاب الرأي في القبيلة ، ثم هناك كذلك مجلس عام لرجال القبيلة – هذا النظام القبلي المعروف بين القبائل السامية عرفه كذلك الكنعانيون ، ولا بد أن سكان المدن الساحلية مروا أيضاً بهذه المرحلة في فترة تاريخهم الأولى ، ولكنهم بعد أن استقروا في المدن اتخذوا نظاماً سياسياً متطوراً عن النظام القبلي حيث أصبح منصب ملك المدينة بديلاً عن منصب رئيس القبيلة ، ويبدأ هذا النظام الملكي يظهر في الوثائق التاريخية ابتداءً من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، كما هو واضح من رسائل تل العمارنة التي تشير بصورة دائمة الى وجود ملوك أوأمراء على رأس هذه المدن ، أما قبل ذلك فإن قصة سنوحي الذي عاش في القرن العشرين قبل الميلاد تدلنا على أن المنطقة التي اتصل بها كانت لا تزال في مرحلة أقرب الى البداوة ويسودها النظام القبلي .

ويتضح من قراءة الوثائق المصرية والأشورية أن النظام الملكي الذي ساد في مدن الساحل الفينيقي ابتداء من القرن الرابع قبل الميلاد كان وراثياً من حيث المبدأ ولو أنه لم يكن كذلك دائماً في الواقع بسبب التطورات والاحداث الطارئة سواء بفعل ظروف داخلية أوخارجية ، وباستطاعتنا أن نصوغ قوائم بأسماء بعض الملوك لعدد من المدن وإن كانت لا تخلو من فجوات ، ومن هؤلاء الملوك «حيرام» العظيم ملك صور وأسرته ، « ولولي »(Luli) ملك صيدا وصور وغيرهما – ولا تنحصر معرفتنا عنهم في مجرد أسمائهم بل لدينا معلومات تاريخية وافرة عنهم بفضل ما خلفوه من نقوش وعن طريق مصادر أخرى ، فقد ورد ذكرهم في التوراة وفي السجلات الاشورية وفي كتابات مؤرخي الاغريق والرومان المتأخرين – ومن جهة أخرى نجد ما يشير الى تأسيس أسر مالكة في بعض المدن ولكن لا نعرف شيئاً يذكر عن ملوكها – فلا شك في أن « اليسا » (Elissa) (والتي تسمى أيضاً لدى اللاتين ديدو) (Dido) قد أنشأت عند هجرتها الى قرطاجة أسرة ملكية ولكن ليس لدينا سجل بحكام هذه الأسرة – أما الاسرة الملكية التي وجدت بقرطاجة بعد ذلك بأعوام كثيرة فإننا نعرف أن من بين ملوكها « هاميلكار »

الذي غزا صقلية سنة ٤٨٠ ق . م . وكذلك المكتشف حنون [١] فكل منهما أطلق عليه لقب ملك .

ولكن ينبغي أن نذكر دائمًا أن سلطان الملك في المدن الفينيقية كان يحد منه مجلس الشيوخ . وهو في واقع الأمر تطور لمجلس شيوخ القبيلة . ولكنه في المدن الفينيقية كان يؤلف من أكثر التجار ثراء في المدينة . وهذا النظام ذاته أي سيادة طبقة من الأغنياء وجد أيضاً في قرطاجة ولعله ظاهرة طبيعية في دولة تعتمد في مواردها الرئيسية على التجارة ، فالطابع التجاري غالب على جميع مظاهر الحياة في المدن الفينيقية سواء في الشرق أوفي الغرب – ولقد ألقت نصوص رأس شمرا ضوءاً جديداً على هذه الناحية حيث أشارت إلى وجود وكالات للأقمشة المصبوغة باللون القرمزي وذكرت أصناف الحرف المختلفة الموجودة بالمدينة ، ولكل من هذه رؤساء يديرون أمورها ويشرفون عليها ويسمى الواحد منهم « رب الحرفة » أورئيس محترفيها – وعلى هذا الأساس نفسه كان رؤساء القوافل من أعظم الشخصيات عند أهل تدمر الذين كانوا شعباً تجارياً كالفينيقين ولكنهم تخصصوا في الطرق البرية – وبمرور الزمن ونشاط التجارة وانتشار حركة الاستعمار الفينيقي ازدادت الأسر التجارية الكبرى ثراء من ناحية وقوة وسلطاناً من ناحية أخرى وانعكس ذلك كله في مجلس الشيوخ حيث وصل الكثيرون منهم الى عضويته فإذا به يصبح هيأة لها خطورتها في توجيه السياسة ويكاد يساوي سلطة الملك نفسه ، فكان في مقدور أعضاء مجلس الشيوخ في مدينة صور مثلاً أن يتخذوا قراراً في غيبة الملك ، وفي مدينة صيدا كان في استطاعتهم متى شاءوا أن يتخذوا قرارات ضد قرارات الملك – وكان عدد أعضاء مجلس الشيوخ في صيدا مائة عضو ، كما ورد في التوراةذكر لوجود مجلس الشيوخ في مدينة جبيل أيضاً ولكنه لم يذكر عدد اعضائه[٢] .

هذا التطور الذي طرأ على مجلس الشيوخ في مطلع الألف الأول قبل الميلاد

---

(١) أنظر فيما بعد ص١٢٢–١٢٦ .

(٢) حزقيال ٢٧/٩ .

بلغ مداه بعد ذلك، وحدث تطور سياسي على نحو ما حدث في المدن اليونانية أيضاً إذ استطاع رؤساء الأسر الثرية ممن يمثلون الارستقراطية في المدن الفينيقية من أن يستولوا على الحكم وأن يتخلصوا من النظام الملكي .

وهكذا قامت في المدن الفينيقية حكومات الأقلية أو الاوليجاركية وكما حدث في المدن اليونانية وفي روما بعد خلع الملوك ، أصبح مجلس الشيوخ هو الهيئة الرئيسية في البناء السياسي للدولة ، ولكننا لا نعرف على وجه التحديد متى حدث هذا التحول من الملكية الى الجمهورية الاوليجاركية وإن كان من المرجح أنه حدث بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد - ومن المرجح أيضاً أن هذا التحول حدث في مدينة قرطاجة في القرن الخامس ق . م . ، وأصبح النظام العام للحكومة يقوم على ثلاثة أركان هي : حاكم أو أكثر ينتخب لمدة سنة وإلى جانبه مجلس للشيوخ ثم مجلس للعامة .

ثالثاً: النشاط الاقتصادي

(أ) الصناعة :

ما من شك في أن الكنعانيين تحولوا في أول الأمر من البداوة إلى قوم زراعة ، وتدل على ذلك عقائدهم الدينية ، كما صورتها نصوص رأس شمرا ، ولكن حين استقرت جماعة منهم على الساحل في المنطقة الواقعة بين الجبل والبحر ، نجد أنها اتجهت الى الاستفادة من البحر من ناحية ومن الغابات القريبة من ناحية أخرى ، وسرعان ما تمكنوا من بناء السفن ، كما ألفوا البحر والتجارة ، وبصفة خاصة مع مصر ، منذ عصور سحيقة كما أشرنا الى ذلك عند الحديث عن تاريخ جبيل[1] كما أن ضيق السهل الساحلي الصالح للزراعة فرض عليهم أن يعوضوا نقص انتاجهم المحلي بالاستيراد ، سواء من مصر أم من بلاد النهرين ولكن حين ازداد نشاطهم التجاري ، وجدوا أنهم في حاجة الى إنماء. صناعات محلية تدعم هذه التجارة وتقويها ، وهكذا أخذت تنمو صناعات محلية تعتمد أولا على المواد الخام المتوفرة محليا سواء من الأرض أو من البحر ، ولكن سرعان ما وجدوا أن المواد الخام المحلية غير كافية فاستوردوا مواد أخرى من الخارج وصنعوها في مدنهم حتى أجادوا صناعات معينة واشتهروا بها ، مثل السفن من أخشابهم والمنسوجات التي استخدموا فيها انتاج محلي من أرضهم أو من الضأن ، وزادوا على ذلك الكتان من مصر والصوف من بلاد النهرين .

واشتهرت منسوجاتهم بنوع معين من الصبغة كانوا يستخلصونه من

(١) انظر ص٢٩ وما بعدها.

بعض الأصداف والقواقع البحرية - وإلى جانب هذه الصناعات الكبيرة مارسوا أيضا صناعات دقيقة من مواد مستوردة مثل العاج والمعادن والأحجار الكريمة للمجوهرات وأفادوا من تصدير هذه المنتجات كلها .

وحين انتقل بعض الفينيقيين إلى الغرب نقلوا معهم ما اكتسبوه من خبرة وتجربة في أوجه النشاط الاقتصادي وعملوا على ازدهارها حسب ظروف البيئة الجديدة . ففي شمال أفريقيا وهي أكثر المناطق الغربية معرفة لنا - وجدنا القرطاجيين يفيدون كثيرا من خصب التربة في منطقة تونس الحالية . وظهرت المواهب الكنعانية الموروثة من جديد ، وتقدمت الزراعة وتربية الحيوان تقدما عظيما . وظهر بينهم خبراء، مثل «ماجو»، يؤلفون الكتب في تربية الحيوان والزراعة- وعن هؤلاء الخبراء القرطاجيين أخذ الرومان وترجموا معلوماتهم كما فعل « فارو » و« كولوميلا »[1] . والى جانب الزراعة ، لابد أن بناء السفن كان من أهم الصناعات في قرطاجة ، هذا الى جانب صناعات اخرى مثل الفخار والنسيج .

ولم يقتصر الفينيقيون على مجرد تصدير الأخشاب بل صنعوا منها المراكب الممتازة ومن أشهرها وأقدمها المراكب المسماة « سفن جبيل»، ولم يقتصر استخدام الأخشاب في صناعة السفن بل تفوق الفينيقيون في الصناعات الخشبية المختلفة ، ومما يذكر أن قدس الاقداس في معبد سليمان كانت تغطي جدرانه بأخشاب الأرز ، كما بني سقفه من نفس الخشب أيضا ، ولكن من سوء الحظ لم نعثر بعد على آثار خشبية في بقايا المدن الفينيقية المختلفة لتبين لنا ما اشتهر به الفينيقي القديم من تفوقه في الصناعات الخشبية المختلفة .

صناعة النسيج :

وتكتسب أهميتها الفريدة بسبب الصبغة التي اشتهر بها الفنيقيون ، ومن

---

(١) ماجو عاش في وقت الحروب البونية تقريبا وهو كاتب قرطاجي كتب عن الزراعة - أما فارو(Varro) وكولوميلا (Columella) فمن الرومان الذين نقلوا عنه وأولهما عاش فيما بين ١١٦، ٢٨ق.م. والثاني عاش في القرن الأول الميلادي.

سوء الحظ أننا لم نعثر حتى الآن على أي قطعة من النسيج الفينيقي حتى في مصر التي عثر فيها على قطع من النسيج من أنواع وعصور مختلفة ، ولكن هناك إشارات مختلفة في بعض المصادر القديمة تعطينا فكرة عامة عن بعض أوصاف هذه المنسوجات الفينيقية ومن ذلك الأرواب المتعددة الألوان التي اشتهر بصناعتها أهل صيدا بالذات ووردت إشارات عنها في شعر هوميروس ، كما أن النقوش والمناظر الأثرية المتعلقة بتاريخ الشرق الأدنى قديما تبين لنا أنه بينما كان يغلب في ثياب المصريين الأردية البيضاء الخفيفة ذات الكسرات المتعددة، كانت تغلب في ملابس الفينيقيين الثياب المزركشة المطرزة ذات الألوان العديدة التي كانت أكثر شبها بالملابس الأشورية ، ومع ذلك فقد كانت الملابس الدينية للكهنة الفينيقيين أميل للأسلوب المصري بصفة عامة .

أما عن صناعة الأصباغ فقد كانت شائعة في جميع المواطن التي استقر فيها الفينيقيون، ومن أشهرها بطبيعة الحال صور وصيدا - ويبدو أن الفينيقيين قد احتكروا هذه الصناعة ولكن الأصداف التي استخدموها لهذا الغرض قد اختفيت تقريبا الآن من شواطىء الفينيقيين في الشرق ، وربما كان ذلك من جراء كثرة استغلالهم لها قديما - وقد عثر على كميات من هذه الأصداف في بعض المواقع الأثرية التي تم التنقيب فيها حديثا مثل راس شمرا على الساحل السوري ، وكذلك في مواقع أخرى على ساحل شمال أفريقيا مما يثبت قيام هذه الصناعة في المستعمرات الفينيقية أيضا .

والنـظرية التي أقيمت عليها صناعة الصبغة في المدن الفينيقية هي أن بعض الأصداف البحرية بعد أن تموت وتتعفن الكائنات بداخلها يتكون فيها سائل أصفر اللون من خصائصه أن يعطي حسب قوة تركيزه - مجموعة من الألوان تندرج بين اللون الوردي والأرجواني القاتم ، ومن أجل الحصول على الألوان القاتمة ، كان لا بد من تعريض الصبغة لضوء الشمس لمدة كافية - وكانت الطريقة المتبعة في الصناعة هو تكسير الأصداف واخراج الحيوان الذي بداخلها ووضعه في أحواض حيث تسيل منه الصبغة ، ويبدو أن معامل هذه الصبغة كانت تقام عادة في موقع جانبي من المدينة غير مواجه لهبوب الرياح لأن الرائحة الناتجة عنه كانت كريهة جدا .

وليس من اليسير أن نتحدث في إفاضة عن أنواع الصناعات المختلفة التي عرفتها المدن الفينيقية القديمة ولكن يكفي أن نشير إلى أنهم مارسوا صناعة المعادن مثل البرنز الذي استوردوه من قبرص ومثل الفضة والذهب اللذين حصلوا عليهما من إثيوبيا[1]، ثم هناك صناعة الفخار الذي بقيت آثار منه في المواقع الفينيقية المختلفة، وأخيراً صناعة الزجاج والعاج - وإنتاج الفخار بالذات كان يخدم دائماً غرضين في وقت واحد، الأول هو الوفاء بحاجة السوق المحلية ليقللوا من كمية الاستيراد من دول أخرى مثل مصر، التي كانوا يفضلون أن يستوردوا منها المواد الغذائية، أما الغرض الثاني فهو خدمة تجارة التصدير التي احتاجت الى كثير من الأوعية - وكانت الأواني الفخارية خير أوعية لنقل الزيوت والخمور التي كانوا يصنعونها من منتجات الزيتون والكروم .

(ب) التجارة والاكتشافات الجغرافية :

أ - **التجارة** : اشتهرت منطقة جنوب غربي آسيا المحصورة بين النيل وبلاد النهرين بأنها منطقة التقاء الحضارات القديمة التي ظهرت في هذا الجزء من العالم، وقد تأثر سكان هذه المنطقة بطبيعة موقعهم فأفادوا كثيرا من النقل التجاري بين الدول الكبرى القديمة مثل مصر وبلاد النهرين وبلاد اليونان، وقد تخصص سكان المدن السورية الداخلية في النقل البري واحتكروا القوافل التجارية الكبرى التي جلبت المنتجات الآسيوية والأفريقية المختلفة إلى البحر الأبيض المتوسط - أما سكان المدن الساحلية فإنهم، بحكم موقعهم على ساحل البحر، اتخذوا طريق النقل البحري مجالا لنشاطهم التجاري منذ أقدم العصور - وقد مارست إحدى هذه المدن وهي جبيل التبادل التجاري مع مصر منذ الالف الثالث قبل الميلاد - واستمر سكان هذه المنطقة منذ هذا التاريخ المبكر في ممارسة هذا النوع من النشاط الاقتصادي حتى عصر

---

(١) Harden, op, cit, p, 146.

ازدهارهم وتفوقهم في الألف لأول قبل الميلاد ، وبالرغم من أن هذه المدن في أكثر فترات تاريخها كانت خاضعة سياسيا لسلطان مصر أو لسلطان غيرها مثل الأشوريين والبابليين والفرس إلا أن هذه الدول عموما لم تقف ابدا في سبيل حرية التجارة والنقل الفينيقي لما فيه من مصلحة للدول صاحبة السلطان - وبالرغم من ذلك فقد ظل نشاط المدن الفينيقية البحري محصورا في شرقي البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ولم تتمكن من التوغل في البحر المتوسط والوصول الى مناطق نائية في الغرب إلا بعد سقوط الحضارة الميكينية في بلاد اليونان إثر هجمات المتبربرين من الدوريين حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

ويبدو أن الفينيقيين حين اتجهوا بقواربهم إلى الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط، لم يتجهلوا إليه في أول الأمر بغرض الاستعمار والاستيطان، وإنما بغرض التجارة لأن كل مانعرفه عن تاريخ الفينيقيين حتى قيام حركة الاستعمار يدل على أنهم لم يألفوا الهجرة قبل ذلك بالرغم من امتداد تجارتهم إلى كثير من البلاد ، فنحن نعرف مما تذكره التوراة أن سفنهم لم تقتصر على سواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية وإنما اتخذوا لهم أسطولاً في البحر الأحمر أيضاً وجلبوا من المناطق المطلة عليه الذهب والعاج بكميات كبيرة[١].

أما في البحر الأبيض المتوسط فإن بعض المصادر اليونانية أشارت الى نشاطهم الجم فيه حيث ورد في الالياذة ان مباريات أقيمت في الاحتفال بجنازة أحد أبطال اليونان ويدعى (بتروكلوس) وكانت الجائزة فيها إناء من الفضة صنع في صيدا ، وفي الأوديسة يذكر « أوديسيوس »[٢] أنه أثناء تنقلاته ومغامراته وقع في يد أحد التجار الفينيقيين الذي يصفه بأنه متمرس في الخديعة ، موصوف بالجشع والمكر، آذى كثيرا من الناس وأنه (أي أوديسيوس) بقي في فينيقيا سنة وبعد ذلك نقل مرة أخرى في مركب تجارية فينيقية ميممة شطر ليبيا[٣]- هذا الأسلوب الذي استخدمه أوديسيوس في وصف التاجر

---

(١) ملوك ٢٢/١٠ ، الأيام ١٧/٨ ، ٢٧/٩ .

(٢) ملك إيثاكا في حرب طروادة كما ترويها الأوديسة .

(٣) (Harden). op-cit, pp, 160-161.

الفينيقي يكشف عن أثر المنافسة التجارية العنيفة التي كانت قائمة بين الفينيقيين والأغريق من حقد كل من الطرفين ضد الآخر وهي المنافسة التي يرى المؤرخ هيرودوت أنها السبب الحقيقي لقيام الحروب الفارسية في مطلع القرن الخامس ق . م . – كما أنه يذكر في مطلع تاريخه أن الفينيقيين بعد أن استقروا على الساحل الفينيقي نظموا رحلات تجارية كبيرة ، فكانوا يأتون بسفنهم الى المدن اليونانية مثل « أرجوس » محملة بالبضائع المصرية والأشورية – وبعد أن يفرغوا من بيع ما لديهم من بضائع كانوا يخطفون بعض النساء الأغريقيات ويفرون بهن[١] .

ولكن هذا الاتصال التجاري المباشر بين المدن الفينيقية والمدن اليونانية توقف في أعقاب النهضة اليونانية في القرن الثامن ق. م. ثم بدأت منافسة اليونان القوية لقرطاجة في مجال الاستعمار حتى أصبحت حركة الاستعمار اليوناني في غرب البحر الأبيض المتوسط تشكل خطرا على المستعمرات الفينيقية في تلك المنطقة – وبالرغم من قيام تبادل تجاري بين الجانبين في جزيرة صقلية فإن المنافسة والغيرة كانت تمثل الشعور المتبادل بينهما ، وسرعان ما تحولت الى حروب طاحنة في القرن الخامس ق.م. من أجل السيادة في صقلية، أما في اسبانيا فكانت الغلبة للقرطاجيين.

ويبدو أن هذه المنافسة بين الفينيقيين والأغريق أو بين الآسيويين والأوروبيين ، كما يعبر عنها هيرودوت ، قد أدت الى تقسيم مناطق البحر الأبيض المتوسط إلى منطقتي نفوذ واستمر ذلك حتى فتوحات الاسكندر الأكبر في الشرق ، ومن المحتمل أن الاسكندر كان ينوي مهاجمة قرطاجة للقضاء على نفوذها ولكن موته المبكر انقذها سياسيا ، كما أنها من الناحية التجارية قد أفادت في العصر الهلليني من إعادة فتح طرق التجارة المباشرة مع اليونان – ومما يؤكد قيام هذه العلاقة التجارية المباشرة بين قرطاجة واليونان موضوع مسرحية لاتينية تسمى «Poenulus» كتبها الشاعر «بلوتوس Plautus»[٢] في مطلع القرن الثاني ق.م. ولكن من المعتقد أنه نقلها

---

(١) Harden, op-cit. , p. 161 .

(٢) ولد سنة ٢٥٤ ق.م. وعاش حتى سنة ١٨٤ق.م. وهو كاتب مسرحي اشتهر بالكوميديا.

أو حاكى فيها مسرحية يونانية من مطلع القرن الثالث قبل الميلاد تسمى « القرطاجي » ، وتدور حول تاجر قرطاجي يسمى « حنون » كان يتاجر في الأطفال ، وهي تجارة نسبها هوميروس للفينيقيين من قبل - وتدل النقوش الكتابية التي عثر عليها في بلاد اليونان وترجع إلى القرن الرابع ق. م. وما بعده والتي خلفها فينيقيون أو قرطاجيون على وجود علاقات تجارية منتظمة بين اليونان والمدن الفنيقية الشرقية والغربية في العصر الهلليني[١].

ولم يقتصر الفينيقيون في تجارتهم على تصدير المواد الخام مثل الأخشاب من جبل لبنان ، أو المعادن من أقصى الغرب ، أو أصباغهم الأرجوانية المشهورة ولكنهم تاجروا أيضاً، كما سبق ان ذكرنا، فيما كانت تنتجه صناعاتهم من منسوجات دقيقة ، وأواني ومصنوعات معدنية ومصنوعات من مواد خام أخرى[٢]، هذا الى جانب نقل المصنوعات والمنتجات المصرية والأغريقية. فقد عثر في قرطاجة على تمائم وحلى مصرية في كميات كبيرة ترجع الى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد وخاصة من عصر الأسرة السادسة والعشرين المصرية ولكنها تقل بعد ذلك وتحل محلها أنواع أخرى هي تقليد فينيقي للمصنوعات المصرية.

أما فيما يتعلق بالسلع اليونانية ، فإنها تمثل مشكلة من نوع آخر ، فقد سبق أن ذكرنا أن التجارة المباشرة بين المدن الفينيقية والعالم اليوناني توقفت بعد نهضة اليونان في القرن الثامن ق. م. بينما كانت تجارة المدن اليونانية وبصفة خاصة مدينة «كورنثه» تأتي بكثير من السلع اليونانية إلى المستعمرات اليونانية في جنوب ايطاليا ومنها إلى سائر أنحاء شبه الجزيرة الايطالية. وكان الأتروريون ، الذين كانت لهم السيادة السياسية والحضارية قبل قيام روما ويحتلون إقليم أتروريا الواقع في شمالي «لاتيوم» الذي تقع فيه روما ، يقبلون عليها كما دلت على ذلك الحفائر الحديثة ، ومن جهة أخرى وصلت إلى نفس الإقليم «اتروريا» منتجات فينيقية مثل الزجاج والأواني المعدنية المنقوشة

---

(١) Harden, op-cit., p. 162

(٢) انظر ص ص١١٣ وما بعدها.

والعاج والحلى ابتداء من القرن السابع ق.م. ويتضح من ذلك أن كلاً من فينيقيا واليونان تاجرت مع ايطاليا .

ومنذ نهاية القرن السابع ق.م. نجد أن فخاراً ومصنوعات برونزية إغريقية وإترورية قد وجدت طريقها إلى المستعمرات الفينيقية في غرب البحر الأبيض المتوسط بما فيها قرطاجة حيث عثر على كميات كبيرة من هذه المصنوعات في المقابر القرطاجية ، وما من شك في أن سيطرة اتروريا على المنطقة الغنية بالمعادن في ايطاليا قد أدت إلى أن تصبح المصنوعات المعدنية أو المعادن الخام جزءاً من هذه التجارة ، ولا يمكن الجزم هل كان الأتروريون أو التجار الفينيقيون هم الذين قاموا بهذه التجارة ؟ ولكننا كذلك نستبعد أن يكون الإغريق هم الذين قاموا بها حيث أن كلاً من اتروريا وقرطاجة أمة بحرية قوية تعاونتا معاً من أجل وقف المستعمرات الإغريقية في مناطق نفوذهما ، ومع ذلك فإن هذا التعاون لم يمنع القرطاجيين من أن يقاوموا انتشار النفوذ الإتروري في اسبانيا أو ما وراء ذلك في المحيط الأطلسي .

ولم تقتصر علاقات قرطاجة بايطاليا على اتروريا فنحن نعرف أن روما في العام الأول من تاريخها الجمهوري ، أي سنة ٥٠٩ق.م. عقدت معاهدة مع قرطاجة ، وعقد هذه المعاهدة يدل على وجود مصالح لقرطاجة في وسط ايطاليا ، فحسب بنود هذه المعاهدة التي حددت مناطق النفوذ التجاري للجانبين نجد أن قرطاجة تتعهد بألَّا تتعرض للمدن اللاتينية التي نصت عليها المعاهدة ، سواء كانت تابعة لروما أو مستقلة عنها ، وألَّا تقيم حصناً في إقليم «لاتيوم» - وبالرغم من أن بعض الدارسين يشكك في قيمة هذه الإتفاقية من الناحية التاريخية إلَّا أنها تدل من غير شك على أن القرطاجيين كانوا قد ألفوا الذهاب إلى أقاليم وسط ايطاليا ، وعلى ذلك فيحتمل أن السفن الإترورية والقرطاجية معاً هي التي نقلت الأشياء اليونانية والإترورية التي عثر عليها في قرطاجة والمستعمرات الأخرى الغربية وأن ايطاليا كانت السبيل الأساسي ولعله الوحيد الذي حصلت بواسطته قرطاجة على المستوردات اليونانية ، وهذا يفسر أنه حينما اضمحلت اتروريا واشتد العداء بين قرطاجة والإغريق أثناء

القرنين الخامس والرابع ق.م. توقف ورود المصنوعات الأثينية واليونانية إلى قرطاجة في حين أنها استمرت تتدفق على ايطاليا، فالمنافسة السياسية أثناء هذين القرنين في الواقع هي التي أدت إلى عدم قيام اتصال مباشر بين القرطاجيين والإغريق .

ولم يقتصر الفينيقيون في علاقاتهم التجارية مع الشعوب المتحضرة على شعوب البحر الأبيض المتوسط أوعلى جيرانهم الآسيويين، وإنما ذهبوا إلى ميادين أخرى في الجنوب عن طريق البحر الأحمر كما سبق أن أشرنا[1] أوعن طريق قوافل الصحراء الكبرى أو المحيط الأطلسي كما فعل القرطاجيون، فإن الصحراء الكبرى في ذلك الوقت كانت أقل جفافاً مما هي الآن وكان يسكنها بعض أقوام من الجنس الليبي أصحاب البشرة البيضاء إذ لم توجد العناصر الزنجية إلا جنوبي الصحراء، وكانت طرق القوافل تصل بين ساحل شمال افريقيا ونيجيريا جنوباً، وبين مصر شرقاً وموريتانيا غرباً، ومما لا شك فيه أن الفينيقيين وليس الإغريق ولا المصريين هم الذين نقلوا منتجات هذه المنطقة من وسط غرب افريقيا الغنية بالذهب والعاج والحيوانات المفترسة والعبيد إلى البحر الأبيض المتوسط، ويظن البعض أنه ربما سلك القرطاجيون إلى مصر طريقاً برياً متجنبين المستعمرة اليونانية في برقة المسماة «قورينة» لنقل تجارتهم اليها .

وتذكر لنا مصادر أخرى جوانب عن ضروب التجارة التي مارسها الفينيقيون، ومن ذلك ما يذكره هيرودوت من أنه علم من القرطاجيين أنهم في تجارتهم مع الليبيين، القاطنين في الغرب فيما وراء جبل طارق، كانوا يتبعون أسلوب المقايضة ويصف هذه الطريقة وصفاً شيقاً بقوله: «إنهم ينزلون إلى الساحل ويضعون عليه بضاعتهم ثم يعودون إلى سفنهم ويرسلون منها دخاناً. فيأتي الأهالي إلى مكان البضائع ويضعون إلى جانبها الذهب حسب ما يعتقدون أنه قيمة للبضاعة، ثم ينسحبون إلى مسافة بعيدة، وتتكرر هذه العملية

---

(١) ص١١٧ أعلاه.

من الجيئة والروحة حتى يرضى القرطاجيون بالثمن الذي يقدمه الليبيون» - ثم يضيف هيرودوت بأنه لم يحدث غش من الجانبين ، فلا يمس القرطاجيون الذهب إلّا حين يقنعون به ثمناً ، ولا يمس الأهالي البضائع حتى يقبل القرطاجيون الذهب .

وربما كان من أثر نشاطهم التجاري إقدامهم على محاولة الوصول إلى أماكن لم تكن مطروقة واتجاههم إلى اكتشاف مناطق بعيدة.

(جـ) الإكتشافات الجغرافية :

لم يعرف القدماء من وسائل تحديد الجهات الأربع الأصلية سوى الوسائل الطبيعية وهي الشمس بالنهار والنجوم بالليل - ويبدو أن الفينيقيين ، وهم أهل ملاحة ، حذقوا علم الفلك وألفوا الإهتداء بالنجوم إلى درجة أن الإغريق اسموا مجموعة النجوم المعروفة باسم الدب الأصغر باسم المجموعة الفينيقية - ومما هو معروف أن الفينيقيين، شأنهم في ذلك شأن سائر الشعوب القديمة ، كانوا في مسالكهم البحرية يسيرون بحذاء الساحل فلا يزجون بأنفسهم طواعية في عرض البحر إلّا إذا كان السبيل مأموناً ومعروفاً لهم من قبل ، وأن هبوب الرياح موثوقاً منه حسب فصول السنة المختلفة . ولهذا كانت مدنهم القديمة غير متباعدة ، بحيث لا تستغرق الملاحة بين إحداها والتي تليها إلّا ملاحة يوم واحد كي تجد سفنهم مساء كل يوم ملجأ تأوي اليه، وشيئاً فشيئاً استطاعوا أن يقوموا برحلات أكثر جرأة واستطاعوا أن يصلوا غرباً إلى جبل طارق .

ولكن رحلات الفينيقيين في البحر الأبيض لا يمكن أن يطلق عليها اكتشافات لأنه منذ عصر البرنز على الأكثر ، إن لم يكن قبل ذلك ، كانت جميع مسالك البحر الأبيض قد عرفت معرفة جيدة - وللتعرف على اكتشافاتهم يجب أن نتتبع المخلفات الأثرية الدالة على نشاطهم في المناطق النائية التي كان لهم فضل السبق في الوصول إليها من جهة وما ورد في النصوص الكلاسيكية من الأخبار عن نشاطهم في هذا المجال من جهة اخرى.

فمثلاً يذكر هيرودوت أن بعض الفينيقيين استقلوا سفناً في البحر الأحمر

وساروا بها جنوباً بتكليف من ملك مصر نخاو (٦٠٩-٥٩٣ق.م.) ليبحروا حول قارة افريقيا، وأنهم أتموا هذا العمل في أقل من ثلاث سنوات، وأنهم كانوا يتوقفون أثناء رحلتهم في كل عام في الفترة الواقعة بين زمن بذر القمح وموسم الحصاد، حتى يتمونوا من المحصول قبل استئناف الرحلة، ولسنا نملك أي دليل آخر نناقش به صحة خبر هذه الرحلة إلّا ماذكره هيرودوت نفسه وهو يشك فيها ولا يصدقها هو نفسه، ولكن بعض الدارسين الحديثين يميلون إلى صحتها التاريخية على أساس عبارة وردت في وصف هيرودوت من أن هؤلاء الرحالة من الفينيقيين حين وصلوا إلى ليبيا من الغرب كانت الشمس على يمينهم.

وهناك رحلتان أُخريان تمتا في وقت واحد تقريباً إحداهما رحلة «هيملكو Himilco» التي قامت من «قادس» في اسبانيا إلى سواحل أوروبا الغربية، والثانية هي رحلة «حنون» المشهورة التي تحركت من قادس ايضاً وتحركت نحو الجنوب على طول الساحل الغربي لإفريقيا، واذا عرفنا أن أحد كتب الرحلات اليونانية التي كتبت في منتصف القرن الرابع ق.م. وتنسب «لإسكيلاكس Scylax» يذكر مستعمرة أسسها حنون اسمها «تيمياتيريا Thymiateria» وأن هيرودوت الذي كتب في منتصف القرن الخامس ق.م. لم يذكر شيئاً عن هاتين الرحلتين في حين أنه اهتم بذكر رحلة نخاو حول افريقيا فإن من المرجح أن الرحلتين لم تكونا قد تمتا حتى عهده، ومن الممكن أن نستنتج انهما تمتا بين زمن هيرودوت وزمن كتاب الرحلة المنسوب إلى «اسكيلاكس» (أي بين ٤٥٠، ٣٥٠ق.م. تقريباً) - ومن الدارسين من يرجح أن الرحلتين حدثتا في الربع الأخير من القرن الخامس ق.م.

هذا فيما يتعلق بتاريخ الرحلتين وقد ورد ذكرهما فيما كتبه «بلينيوس الكبير»[1] ولكنه كان يشك في صدق رحلة حنون - أما عن موضوعهما فما نعرفه

(١) بليني الكبير مؤلف روماني عاش فيما بين ٢٣، ٧٩ م أتم كتبه العشرة المعروفة باسم التاريخ الطبيعي سنة ٧٨ م.

عن رحلة هيملكو قليل ، ولا يتعدى وصف مقتضب مشوه ورد في قصيدة من القرن الرابع الميلادي من وضع «فستوس افيينوس Festus Avienus»[٢].

ومهما يكن من أمر فيبدو أن القرطاجيين أقدموا على هاتين الرحلتين في الوقت الذي كانوا يحاولون فيه تقوية نفوذهم ومصالحهم في الغرب نتيجة لمنافسة الإغريق لهم في البحر الأبيض ، وما من شك في أن رحلة «هيملكو Himilco» كانت تهدف إلى فتح الطريق إلى مناجم الصفيح في الغرب في وقت ربما لم يكن فيه انتاج المناجم الاسبانية كافياً ، ويبدو إجمالاً مما نعرفه عن هذه الرحلة من مصدرها الوحيد المتأخر «وهو افيينوس» أن «هيملكو» لم يتوقف عند سواحل فرنسا الغربية (وهي المنطقة المعروفة باسم بريتاني) إنما تعداها شمالاً وغرباً فعبر القنال الانجليزي ومهد بذلك السبيل أمام قرطاجة لتشارك في تجارة الصفيح من إقليم «كورنوول Cornwall» بإنجلترا ، خاصة وأنه من المحتمل أن تجارة الصفيح من كورنوول كانت معروفة من قبل بالنسبة لتجار البحر الأبيض المتوسط ولكن عن طريق البر عبر الغالة ، ومع ذلك فنحن لا نملك لسوء الحظ أي دليل أثري معاصر يثبت وجود اتصال مباشر بين قرطاجة وبريطانيا في ذلك الوقت لتأييد قصة «هيملكو» بالرغم من العثور على عدد من المخلفات الأثرية من عصر الحديد[١] في كورنوول تدل على وجود علاقات مع اسبانيا ، أما الحملات القرطاجية القليلة التي على آثار لها في بريطانيا فترجع إلى تاريخ أكثر تأخراً، كما أنها وحدها لا تكفي لتأكيد وجود اتصال مباشر ومنتظم بين قرطاجة وبريطانيا.

أما معلوماتنا بالنسبة لرحلة «حنون» فأوفى وأقيم ، فبالرغم من أن المخطوط الوحيد الباقي لها يرجع إلى القرن العاشر الميلادي وأن هذا المخطوط قد أفسده كثرة النقل والنسخ إلاّ أن القصة في حد ذاتها بالغة القيمة في مضمونها وتفصيلاتها ، وقد اهتم بها كثير من العلماء في العصر الحديث وتناولوها بالنقد والدراسة والتحقيق ، وهي في مجملها مقبولة لدى أكثر

---

(١) يوناني وضع قصيدة جغرافية في القرن الرابع ق . م .

(٢) يقدر ان عصر الحديد استمر من القرن ١٢ ق. م. إلى القرن الرابع ق.م.

العلماء ، ولكنهم يختلفون فيما بينهم أشد الإختلاف في بعض التفاصيل مثل تحديد الاماكن الجغرافية التي يذكرها «حنون» وأقصى منطقة وصل اليها ، بل ويذهب بعض العلماء إلى أن النص الذي لدينا أكثره مزيف ، ومع أن هذا القول مبالغ فيه فإن القصة بها كثير من الأخطاء والمتناقصات ، فنص هذه القصة الذي وصل إلينا هو عبارة عن ترجمة يونانية للوصف الذي كتبه «حنون» نفسه ووضعه في معبد الإله «بعل - حمون» في قرطاجة ، وترجع الترجمة اليونانية إلى نهاية القرن الرابع أو بداية القرن الثالث ق . م . ، وكانت معروفة للجغرافي «استرابون» في القرن الأول قبل الميلاد الذي قرأها واعتقد أنها محض خرافة ، ومع ذلك فمما لا شك فيه أن الرحلة حقيقة تاريخية وأن هدفها كان كشف اسواق جديدة ، وأنها تقررت ونفذت بناء على قرار من مجلس الشيوخ القرطاجي ، ومما يؤكد صحة هذا القول ما هو معروف من وجود مستعمرات فينيقية في غرب افريقيا ، ولو أن هذه المستعمرات زالت بعد الحروب البونية ولكن ذكرى النفوذ الفينيقي ظلت باقية في غربي افريقيا بعد ذلك بمدة طويلة . ويؤكد القديس «اوغسطين St. Augustin» (٣٥٤ - ٤٣٠م) أن الناس في زمانه في بعض بقاع الشاطيء الغربي الإفريقي كانوا لا يزالون يتكلمون اللغة الفينيقية .

ويبدأ النص اليونانني بهذه العبارات :

« هذه قصة الرحلة الطويلة التي قام بها «حنون» ، ملك القرطاجيين إلى الأراضي الليبية وراء أعمدة هرقل (جبل طارق) والتي سجلها على ألواح وأقامها في معبد كرونوس (بعل حمون)» .

« قرر القرطاجيون أن يبحر حنون وراء أعمدة هرقل وأن يؤسس مدناً للفينيقيين في ليبيا ، وقد أبحر في ستين سفينة وأخذ معه ثلاثين الف رجل وامرأة ومؤن وغير ذلك . . . الخ » .

وواضح أن الرقم مبالغ فيه على ما هو مألوف في المصادر القديمة ، ويستمر النص بعد ذلك في ذكر مراحل الرحلة وأسماء المستعمرات التي أسسها حنون للفينيقيين، ومن بينها «ثيمياتريون»، ولعلها تقابل بلدة «مهدية»

(قرب الرباط) حالياً . ويذكر بعد ذلك نهراً أطلق عليه اسم «ليكسوس Lixos» الذي يظن أنه نهر درعا حالياً على الحدود بين مراكش والصحراء الكبرى في الجنوب – وبعد إبحار استمر ثلاثة ايام جنوبي نهر ليكسوس ، أسس حنون مستعمرة «قرنة Cerne» على إحدى الجزر – وتحديد موقعها له أهميته لأنها اقصى مستعمرة دائمة أقامها الفينيقيون جنوباً على الساحل الغربي لأفريقيا ورد ذكرها في المصادر القديمة ، وهناك من يعتقد بأنها جزيرة «هرنة Her ne» الحديثة نظراً لأن المسافة بينها وبين جبل طارق تماثل المسافة بين قرطاجة وجبل طارق وهو ما يذكره «حنون» نفسه في تحديد موقعها . وهناك من يقترح موقعاً آخر هو جزيرة «ارجوين» وهي أبعد جنوباً ولكن كلاً من هرنة وارجوين تقعان مواجهتين للصحراء الكبرى ولا تصلحان كأسواق كبرى ولهذا اقترح البعض أن تكون قرنة بالقرب من مصب نهر السنغال . حيث أشار «حنون» إلى نهر كبير باسم «خريتيس Chretes» كما وأن كتاب الرحلة المنسوب لأسكيلاكس الذي كتب حوالي ٣٥٠ق.م. يذكر مدينة كبيرة كان يبحر اليها الفينيقيون ويتبادلون التجارة مع السكان الافريقيين ، ويذكر حنون أيضاً أنه سار بسفنه في أعلى النهر حتى رأس الدلتا ثم عاد ثانية وأن النهر كان مليئاً بحيوان فرس النهر والتماسيح ، وبعد هذا اقتصر عمل حنون على اكتشاف السواحل الأفريقية، ويصعب تتبع رحلته بعد ذلك ولكن في الرحلة إشارة الى جبل يسمى عربة الآلهة، ولعله ينطبق على جبل الكمرون (٤٠٠٠ متراً) لأن أهل البلاد لا يزالون يسمون قمته بهذا الإسم حتى الآن .

هذه هي أهم الاكتشافات الفينيقية التي لدينا عنها معلومات لا بأس بها أما الكشوف الأخرى فأقل أهمية ومعلوماتنا عنها أقل ويشوبها الشك في كثير من نواحيها .

(د) الزراعة :

كانت الزراعة وتربية الحيوان أقدم وأكثر أنواع النشاط الاقتصادي انتشاراً بين الفينيقيين. وتظهر لنا المصادر المختلفة أنهم لم يقتصروا في ذلك على تربية القطعان وزراعة الحاصلات الغذائية فحسب، بل زرعوا أيضاً الكتان بقدر ما سمحت لهم رقعة الأرض المحدودة في الشرق.

أما بالنسبة لقرطاجة فإن الفقرات الأربعين التي وردت في الكتابات اللاتينية نقلاً عن «ماجو»[1]، تتعرض لجميع أنواع الزراعة والانتاج الحيواني، فقد أشارت هذه إلى الحبوب والكروم والزيتون وتربية النحل إلى جانب تربية الضأن والقطعان، ولا بد أن الحياة الزراعية في قرطاجة كانت منظمة وتشمل هذه الحاصلات، وإلاّ لما تحدث عنها ووصفها «ماجو» ويؤكد هذه الحقيقة ما يورده «ديوردور الصقلي» من أن «اجاثوكليس» حاكم سيراكيوز حين غزا الساحل القرطاجي وجد البلاد تنتشر فيها القرى الريفية وحظائر تربية الحيوان ومزارع الكروم والزيتون. أما عن الحبوب وكثرتها في شمال افريقيا فيجب أن نذكر أن ولاية شمال أفريقيا أصبحت واحدة من أهم مصادر الغلال لروما. وفي نهاية القرن الثالث قبل الميلاد حينما غزا «اسكبيو» الساحل القرطاجي سنة ٢٠٣ ق.م. اقترح صلحاً ينص على أن تقدم قرطاجة لروما ٥٠٠,٠٠٠ كيل من القمح و٣٠٠,٠٠٠ كيل من الشعير.

إلى جانب هذه المحاصيل يبدو أن النخيل لعب دوراً هاماً ايضاً في الحياة الزراعية في شمال أفريقيا ويتضح ذلك من أن بعض المدن اتخذت من النخلة شعاراً لها حيث نقش رسمها على بعض العملة والأختام واللوحات الجنائزية.

أما عن تربية الحيوان، فكان الشائع هو تربية الابقار والاغنام والماعز. ولعله من الطريف أن نورد فقرة كتبها «ماجو» في صفات البقرة القرطاجية الجيدة :

---

(١) انظر أعلاه ص١١٤.

« يجب أن تكون صغيرة السن ، ممتلئة الجسم ، ضخمة الاطراف ، (وثورها طويل القرون) قوية ذات لون ضارب للسواد ، كثة وعريضة الحاجبين ، متهدلة الأذنين سوداء العينين والشفتين ، مفتوحة معقوفة الأنف ، طويلة وعضلية الأعضاء يتدلى من عنقها لغد كبير يصل إلى الركبتين تقريباً ، عريضة الصدر ، ضخمة الكتفين ، ممتلئة البطن ، مثل بطن الحيوان الحامل ، طويلة الجانبين ، كبيرة الفخذين ، مستقيمة الظهر ، مستديرة الفخذين ، ممتلئة الرجلين ، أقرب إلى القصر منها إلى الطول ، ذات ركب حسنة التكوين ، كبيرة الحوافر ، لها ذيل طويل قوي ، وشعر قصير كث على الجسم ، أحمر اللون أوبني ، ناعم الملمس » .

هذه الفقرة لا تهمنا لأوصافها فحسب ، ولكن لأنها تمثل لنا كتاباً ضخماً كتب باللغة الفينيقية وكان يتكون من اثنى عشر جزءاً في فرع من أهم فروع المعرفة ذات القيمة العملية ، وقد اهتم قدامى الكتاب بهذا الميدان من التأليف كما فعل الإغريق فكتب «أرسطو» عن الحيوان وكذلك فعل الرومان حيث كتب (فارو) و(كولوميلا) عن الحيوان وربما تأثرا في ذلك بما كتبه «ماجو» وبعد ذلك اهتم العرب أيضاً بهذا الميدان فكتب الجاحظ كتابه المعروف عن الحيوان .

ولا ينبغي في هذا الصدد أن نغفل أخشاب جبل لبنان التي كانت موجودة في الغابات بوفرة تفوق كثيراً حالتها الآن . ولقد اشتهرت المدن الفينيقية منذ أقدم العصور بتصدير هذه الأخشاب ، وكانت مصر من أكبر الدول المستوردة لها ومن أهم الأمثلة التي يمكن أن نذكرها في هذا المجال المركب الضخمة التي عثر عليها في إحدى الحفر المجاورة لهرم خوفو والتي ثبت أن جميع أخشابها من خشب الأرز، وترجع إلى القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد.

رابعاً: العسكرية

عاش الفينيقيون في ظروف وبيئة جعلت منهم بحارة أكثر منهم جنودا ، وربما يبدو ذلك غريبا لما تمتعت به الجيوش البونية من مميزات قتالية تحت قيادة « هانيبعل » ، ولكن واقع الأمر يؤيد ما ذهبنا إليه حيث أن جيوش « هانيبعل » لم تكن بأكملها مؤلفة من البونيين (الفينيقيين) بل كانت تضم أيبيريين وليبيين وغاليين وايطاليين .

ولما كانت بلاد الفينيقيين في المشرق تقع على الطريق البري بين مصر وبين أعظم أقطار غرب آسيا فإنها كانت دائما في طريق الغزاة ، وفي أغلب الأحيان كان عليها إما أن تقاوم ما يفرض عليها من حصار أو أن تفتح أبوابها للغزاة دون مقاومة ، فهذه البلاد حتمت عليها الضرورة أن تكون جيدة التحصين ، ومما يؤيد ذلك ما يظهر في النقوش الاشورية على بوابات « بالاوات »[1] البرونزية التي من عهد شلمناصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٤ ق.م. حيث نتبين فيها منظر سور مدينة صور ذو الأبراج والشرفات فوق جزيرتها الصخرية، كما نتبين أسوار هذه المدينة في نقوش سنخريب (٧٠٥-٦٨١ق.م.) في «كيونجك» وتمثل «لولى» ملك صور وصيدا وعائلته عند هربهم من المدينة ، وتظهر صورة المدينة الفينيقية المحصنة على بعض عملات صيدا التي ترجع إلى أوائل القرن الرابع ق.م.- ويمكننا أن نتصور ما يؤدي إليه حصار مدينة فينيقية محصنة مثل صور على ضوء ما ورد في نبوءة حزقيال [2] . حيث

---

(١) « بالاوات » قرية بالعراق على بعد ٢٥ كم جنوب شرقي الموصل عثر فيها سنة ١٨٧٨م على هذه البوابات وهي الآن بالمتحف البريطاني .

(٢) حزقيال ٢٦/٧ - ١٢ .

جاء فيها :

« . . . . هكذا ، قال السيد الرب : هأنذا أجلب على صور نبوكدونصر ملك بابل . . . . فيقتل بناتك في الصحراء بالسيف : ويجعل عليك مترسة ويركم عليكم تلا ويرفع عليك المجنب ويلقي على أسوارك صدمات منجنقه ويهدم بروجك بأدوات حربه . . . . وحوافر خيله تطأ جميع شوارعك ويقتل شعبك بالسيف وأنصاب عزتك تهبط إلى الأرض ويسلبون ثروتك وينهبون تجارتك وينقضون أسوارك ويهدمون بيوتك الشهية ويلقون حجارتك وخشبك وترابك في وسط المياه » .

ولا نعرف إلا القليل عن أي عملية عسكرية برية اشترك فيها الفينيقيون الشرقيون أو منظماتهم، ولو أن مثل هذه العمليات قد حدثت بالفعل حيث أننا نعرف مثلا أن «شلمناصر الثالث» هزم ملك « أرواد » هزيمة ساحقة كما يبدو ذلك في نقوش بوابات « بالاوات » سالفة الذكر - أما معلوماتنا عن أساطيل هؤلاء الفينيقيين فهي أكثر من ذلك كثيرا ، فمن المعروف أن القوى العظمى التي كان على الفينيقيين أن تتعامل معها كانت قوى برية (غير بحرية) فإذا ما احتاجت هذه القوى إلى أساطيل بحرية فإنها كانت تلجأ إلى الفينيقيين ليمدوهم بها ويزودونها بالرجال والعتاد ، وقد استخدمهم « سرجون الثاني » حينما هاجم قبرص كما ساعدت أساطيل الفينيقيين الفرس في حروبهم ، حيث استعان بهم « دارا » في حربه ضد اليونانيين الأيونيين كما أن أسطول «أكزركسيس » في سلاميس سنة ٤٨٠ق.م. كانت به ٣٠٠ سفينة ذات الصفوف الثلاثة من المجاذيف من بين ١٢٠٧ سفينة ، وكان بحارتها يرتدون خوذات ومشدات للخصر من الكتان ويحملون دروعا خفيفة ونبال - وحارب جزء الأسطول المكون من الفينيقيين (الذي كان يعد أحسن أقسام الاسطول) على الجناح الأيسر في مواجهة الأثينيين وأبلى بلاء حسنا كالمعتاد ، ولم تكن سفنهم ذات الصفوف الثلاثة من المجاذيف التي استعملوها حينئذ من طراز السفن الحربية الحديثة في ذلك العهد رغم أن كل السفن التي استخدمت في الحروب حتى موقعة « الاليا » [1] (٥٣٥ق.م.) كانت خمسينية (أي تحمل كل

---

(١) معركة بحرية هزم القرطاجيون فيها الفوكايين (الذين كانوا قد تركوا مدينتهم في ايونيا بعد أن فرض كورش سلطانه عليها ، وأسسوا مستعمرة « الاليا » في كورسيكا) ودمروا مستعمرتهم سنة ٥٣٥ ق.م .

منها ٥٠ مجدافا) (Pentecontrs) فهذه الأخيرة أقدم كثيرا وأصغر حجما حيث يقول ثيوكيديس [١] أن الكورنثيين كانوا أول من بنى السفن الثلاثية الصفوف من المجاذيف (حوالي ٧٠٠ ق. م.) بين اليونانيين ويمكن أن نتصور بأن رواية « كليمنت السكندري »[٢] عن أن الصيدونيين هم الذين اخترعوها لها نصيب من الصحة بينما كان نخاو[٣] ملك مصر يستعمل سفنا ثلاثية صنعت في مصر سنة ٦٠٠ ق. م. حسب ما رواه هيرودوت - والظاهرة العامة في كل السفن الحربية في ذلك الوقت تتمثل في مقدماتها المدببة لتدك أعداءها أو لتقصف ريش (نصال) مجاديفها عندما تمر بجوارها ، ويقول البعض أن ذلك كان اختراعا فينيقيا ولكن شيئا مماثلا وجد في السفن الممثلة على نصل خنجر يرجع إلى عصر البرونز المبكر عثر عليه في « دوراك » بفريجيا في آسيا الصغرى مما يوحي ، من جهة أخرى ، بأنه اختراع « إيجي » نقله الفينيقيون عن الميكينيين .

ويبدو أن الموانى الفينيقية الشرقية كانت بصفة رئيسية مرافىء (مراسي) تحتمي بها السفن، فحينما رأى حيرام العظيم ملك صور أن موقع مدينته أمام جزيرتين غير بعيد عن الشاطىء يهيىء فرصة طيبة لإنشاء مرفأين بينهما وبين المدينة أحدهما شمالي والآخر جنوبي ليكفل حماية السفن بهما مهما كان اتجاه الرياح وهو نظام أصبح معتاداً في فينيقيا وما زال المرفأ الشمالي باقياً تستعمله القوارب المحلية بينما ردم المرفأ الجنوبي بفعل حاجز الأمواج الذي أقامه الاسكندر، ومع ذلك يبدو أن الفينيقيين الشرقيين لم يعرفوا الأحواض الداخلية . (Cothons) .

ومن الروايات المفصلة التي تركها « بوليبيوس » [٤] و « ليفى » [٣]

---

(١) مؤرخ أثيني عاش حوالي ٤٧١ - ٤٠٠ق. م. وكتب عن الحرب بين أثينا واسبرطة - انظر ما سبق صفحة ٧٣، ١٠٨ .

(٢) عاش حوالي ١٥٠ - ٢٢٠م ، وقد ولد من أبوين وثنيين في أثينا ولكنه اعتنق المسيحية وعاش بالاسكندرية .

(٣) ثاني ملوك الأسرة ٢٦ المصرية .

(٤) عاش (٢٠٤ - ١٢٢ق. م. وكتب أربعين كتابا عن التاريخ في اليونان ختمها سنة ١٣٣ق. م.

(٥) عاش (٥٩ ق. م. -١٧م) كتب تاريخاً عن روما توقف ٩ق. م. وقد تضمّن فترة تأسيسها.

وغيرهما عن حروب صقلية وروما عرفنا عن عادات القتال التي مارسها الفينيقيون الغربيون قدرا أكبر كثيرا مما نعرفه عن تلك التي مارسها الفينيقيون في المدن الشرقية - فقرطاجة بما وراءها من بقاع داخل القارة وجدت بمرور الزمن أن رعاياها الافريقيين يشكلون جنودا ممتازين فاستخدمتهم إلى أقصى حد ، ولكن ذلك أدى الى ضرورة إعداد القرطاجيين أنفسهم كذلك للقتال برا في أوقات الثورات الأهلية .

وبحلول حرب «مالخوس» وخلفاؤه من أسرة «ماجون» في القرن السادس ق.م. لا بد وأن صار لقرطاجة جيش قوي من كل من المدنيين ومن الرعايا الذين لم يكونوا غير مدربين على القتال وقد كون هذا بالاضافة إلى تعزيزات من المدن الحليفة في صقلية ومن المرتزقة قوة هائلة ، وقد اشتبكت قرطاجة منذ أواخر القرن الخامس ق.م. حتى هزيمتها الأخيرة سنة ١٤٦ق.م. في حروب متكررة ولكنها لم تنشيء جيشا دائما (تحت السلاح) ولم يكن ذلك شأن اليونان أو الرومان في ذلك الوقت أيضا حيث أن قوات الرومان الدائمة لم توجد قبل القرن الأول ق.م.

ولم يكن لقرطاجة كذلك هيئة للضباط المحترفين وكان قوادها يعينون لمدة عام - وحينما يكونون ناجحين وأقوياء يظلون في القيادة سنوات طويلة كما حدث بالنسبة لعائلة «بارسيد Barcid» أثناء الحرب البونية الثانية فقد ظل كل منهم في القيادة سنوات طويلة ولا بد أن ذلك قد مكن قرطاجة من التفوق على خصومها وبالمثل حين كان يتفوق الخصوم الناجحون فإنهم كانوا يظلون في مراكزهم فترات طويلة مثل «ديونيزيوس» حاكم سيراكيوز (مات سنة ٣٦٧ق.م.) و«تيموليون Timoleon» القائد اليوناني (الذي أرسله الكورنثيون لتنظيم شؤون المستعمرات اليونانية التي استنجدت بالوطن الأم أي اليونان بسبب الحروب الدائمة التي تتعرض لها)، و«اسكيبيو افريكانوس» (مات سنة ١٨٢ق.م.) الذين استطاعوا هزيمة قرطاجة.

وقد لعب استخدام الجند المرتزقة دورا هاما في حروب قرطاجة الكبيرة ولم يكن ذلك فكرة جديدة بل شاع في الشرق منذ زمن طويل ويشير سفر

حزقيال إلى ذلك في كلامه عن صور في القرن السادس ق.م. حيث ورد فيه : « كانت فارس ولود (ليديا) وبوت (بونت) في جيشك ، رجالك المحاربين »[1] ثم نشط استخـدامهم بعد ذلـك سريعـاً في القـرن الخـامس ق.م. عامة حيث يذكر ديـودور بأن هاميلكار استخدم في جيشه مرتزقة من ايطاليا وغالة واسبانيا في معركة « هيميرا » بصقلية (سنة ٤٨٠ق.م.) – وقد حارب اليونان أنفسهم فيما بعد كمرتزقة للقرطاجيين ضد اليونان ، وفي بعض الأحيان مثلاً كما حدث عند استيلاء «ديونيزيوس» على «موتيا» (بصقلية) سنة ٣٩٨ق.م. لقـوا اهتمامـاً ضئيلاً من آسيـرهم أبنـاء جنسهم غـير أن القـوة القتـاليـة الرئيسية في الجيوش البونية كانت من أهل قرطاجة أنفسهم ومن رعاياها وأهمهم الليبيون والاسبان وهو ما يمكن توقعه ، ورغم أن تكاليف المرتزقة كانت باهظة فقد ظلت قرطاجة لا تستغني عنهم إلى آخر الحرب البونية الثانية في معاركها الكبيرة مع أنها كانت ذات امبراطورية واسعة يمكنها أن تجند منها . كذلك لم يكن مثل هؤلاء الرجال أيضا مطيعين (ليني العريكة) كما تحققت من ذلك في حرب المرتزقة [2] عندما عجزت عن دفع أجورهم في نهاية الحرب البونية الأولى .

وقد استخدمت الجيوش البونية في معاركها مشاة مزودين بأسلحة ثقيلة ، ولا بد أن جنود اليونان والجنود المرتزقة (ومعظمهم من اليونان في الجبهتين المتعارضتين) كانوا متشابهين في المظهر – فهذه القوات كانت تسلح بالسيف العادي وحربة ، وفي أول الأمر كانوا يحملون دروعا مستديرة ، وبعدئذ دروعا مستطيلة ، ومثل هذه استخدمها الرومان والغال في نفس الوقت تقريبا – وفضلا عن ذلك كانوا يزودون ببزة (عدة) حربية ، وقد وجدت صدرية وحامية للظهر من البرونز جميلة الزخرف من القرن الثالث قبل الميلاد بمقبرة في قصور الصف (Ksour-es-saf) في تونس وهي من انتاج « كمبانيا » (في جنوب ايطاليا) يحتمل أنها كانت ملكا لمرتزقة من ايطاليا .

---

(١) حزقيال ١٠/٢٧

(٢) أنظر أعلاه ص٨٧.

وقد استخدمت جيوش ذلك الوقت قوات من الفرسان والرماة بالمقلاع ورماة السهام وقوات خفيفة التسليح ولم يشذ القرطاجيون عن ذلك، ولما توسع الغزاة المقدونيون، فيليب والاسكندر، في استخدام الفرسان المقدونيين والتيساليين حـذت قرطاجة حذوهم فشكلت قوات من خيالة « النوميديين » الممتازين ثم من الاسبان والغاليين فيما بعد حيث كانت منهم قوات خيالة « هانيبعل » حينما دخل الى ايطاليا التي شكلت نحو ربع جيشه بأكمله - وقد استخدمت قرطاجة إلى وقت اندلاع الحروب البونية كثيرا من العجلات الحربية حيث أنها كانت ترسل مع جيوشها قوات من العجلات الحربية إلى الخارج عبر البحار، إلى صقلية وغيرها - ويروي « ديودور » أن عدد العجلات الحربية التي يجر كلا منها زوج من الخيل يصل في كل مرة تستخدم فيها إلى ٢٠٠٠ عربة، وبفرض أن هذا العدد مبالغ فيه فإنه على الأقل يدل على أن العربة الحربية كانت سلاحا رئيسيا في القوات القرطاجية - ولا بد أنهم جلبوا استعمالها من الشرق حيث كان قتال العربات اعتياديا، والعربات الحربية الشرقية كانت إلى زمن السلوقيين تزود أحيانا بسيوف أو مناجل ومن المحتمل أن العربات القرطاجية كانت كذلك أيضا.

ويبدو أن إقلاع القرطاجيين عن استعمال العربة يتفق ووقت إدخال الفيل كحيوان للقتال، ولكن لا يجب أن نفهم وجود صلة مباشرة بين ادخال أحد الأسلحة والاقلاع عن استعمال الآخر - وقد أدخلت الفيلة في حروب البحر المتوسط بعد أن التقى بها اليونان في حروب الاسكندر بالهند. ولما كان لقرطاجة مورد قريب في شمال أفريقيا فإنها جعلتها عنصرا في جيوشها ابتداء من أوائل القرن الثالث ق.م.حيث استخدموها في صقلية واسبانيا، وقد نجح هانيبعل بمهارته في العملية الشاقة التي قام بها في جعل أكثر من ثلاثين فيلا تجتاز جبال الألب في سنة ٢١٨ق.م. عبر بها كلها ولم يمت سوى واحد منها من البرد فيما بعد- وفي المعارك الكبرى كان العدد المعتاد للفيلة الذي تحت إمرة القائد يتراوح بين الخمسين والمائة، ومن المؤكد أنها كانت سلاحا ناجحا فمن بين نصوص معاهدة السلام سنة ٢٠١ ق.م. التي أبرمت بعد معركة « زاما » ما يحتم على قرطاجة عدم استخدامها ويوجب عليها أن تتوقف حتى عن اصطياد

وأسر فيلة شمال أفريقيا – وفي الشرق كانت الفيلة تحمل المقاتلين في هوادج محصنة ، أما في الغرب فإن دورها ينحصر في أن يسوقها سائق بمنخس ، وكان الفيل يزود بنوع من الدرع الواقي لجسمه ثم يدفع لاقتحام صفوف العدو فيثير فيها الرعب والاضطراب – وقد أحبط « اسكيبيو » ذلك بأن فتح ممرات بين صفوف جيشه فكانت الفيلة تندفع فيها دون أن تحدث أضرارا ولم تكن هذه الحيوانات نعمة خالصة إذ كانت أحيانا تصاب بالذعر فتهاجم صفوف جيشها

أما عن فن الحصار الحربي فقد بلغ درجة عظيمة من التقدم خلال القرن الرابع قبل الميلاد وحدث الكثير من هذا التطور في صقلية ، ولكن كثيرا من الخطط التي كانت تبدو في ذلك الحين حديثة عهد في غرب البحر المتوسط لا بد وأنها كانت معروفة منذ زمن طويل في الشرق حيث عرف الأشوريون الكثير عن وسائل الحصار الحربي المعتادة مثل المنجنيق أو المـدق وروابي (أو آكام ترابية) الهجوم والأبراج وتقويض المنشئات من أعلى أو حتى من أسفل الأسوار ومع ذلك فربما كان سلاح وحيد وهو المنجنيق (الحدافة) قد اخترعه « ديونيزيوس » أو اخترع من أجله لأن « ديودور » يذكر بأن استخدامه لأول مرة كان بواسطته في « موتيا » عام ٣٩٨ ق.م. وكان يلقي بكرات المعدن والأثقال لمسافة عدة مئات من الأمتار ، وكان أثره حينئذ فوريا ولم تعد المدن تشعر بالأمن داخل سور واحد بل كان لا بد لها من أسوار في صفوف متعاقبة لتبعد المهاجمين فلا تكون في مدى مرماهم ولذلك فإن « موتيا » بسورها الوحيد المشرف على الشاطيء تعرضت بشدة للأضرار حينما أعاد ديونيزيوس» بناء السد (حاجز الأمواج) الموصل بينها وبين اليابسة واستطاع أن يضع أدوات حصاره ويجعل قذائفه بعيدة المدى تصيبها ، ولا شك أن مدنا أخرى وقعت سريعا في نفس المتاعب .

وقد أفادت قرطاجة من هذا الدرس في القرن الثالث ق.م.حينما قامت ببناء تحصيناتها الشهيرة عبر الجزء الضيق من البرزخ لأنها كانت مكونة من ثلاثة أجزاء : سور سميك ذو أبراج على أبعاد منتظمة واستحكامات (سواتر) للرجال والفيلة والخيول في مرحلتين ومتراس متوسط (يحتمل أنه كان سدا

ترابيا) وخارج ذلك خندق من خلفه سياج ذو أوتاد . وقد كشف عن هذه السلسلة من التحصينات عن طريق التصوير الجوي بواسطة القائد دوفال سنة ١٩٤٩ الذي كشفت تنقيباته بعدئذ عن خندق خارجي عرضه ٢٠ مترا وآخر داخلي عرضه ٥,٣ مترا ذو صفوف من ثقوب الأعمدة (الحفر التي كانت تثبت فيها الأعمدة) وبه كذلك حفر ضيقة هي مواضع فلنكات سياج ذو أوتاد فيما بينها، وكانت هناك دهاليز تصل بين الواجهة والمؤخرة على أبعاد منتظمة كما زودت بعض زوايا الحصن بالطوابي - ويتفق هذا اتماماً مع وصف «بوليبيوس» عن المنشئات الارجية، ولكن لم يكتشف بعد خط السور الأساسي الذي كان من داخل كل ذلك.

ومع أن الأسطول كان يشمل خط الدفاع الأول عن قرطاجة يبدو أن أساطيلها في زمن الحرب لم تكن على درجة من القوة التي كانت تقدر لها حيث أنها هزمت تكرارا ، لا من اليونان فحسب بل ومن الرومان أيضا رغم أنهم ، كما يروى ، لم يكونوا معتادين على القتال البحري في زمن الحرب البونية الأولى حتى أنهم استخدموا مقاتلة (Quinquereme) بونية خمسينية المجاديف أسروها كنموذج لبناء أسطولهم الجديد ، ولمعرفتهم بأنهم لا يضارعون أعداءهم في الملاحة اخترعوا جهازا عبارة عن لوح خشبي سميك ذو كلابة (كوبري متحرك) ليمكنهم من الامساك بالسفن البونية والهبوط إليها وبواسطة هذا الاختراع نجحوا في كسب معركة « ميلاي Mylae» (٢٦٠ ق.م.) على الساحل الشمالي لصقلية، وهي أول اشتباك بحري عظيم في الحرب) وفي ثلاثة معارك أخرى من بينها آخر هذه المعارك الثلاثة وهي معركة جزر « ايجيتس » Aegates» [(١)] سنة ٢٤١ ق.م.

وكان القرطاجيون ما زالوا يعتمدون على الأسلوب القديم من صدام السفينة المضادة بمقدمة سفينتهم أو التجديف بها في محازاة السفينة المضادة لتحطيم مجاديفها وكان مجدفوهم من المواطنين القرطاجيين ، وقد شهد الكتاب القدامى لهم مرات كثيرة بالشجاعة .

---

(١) جزر صغيرة غرب صقلية .

وكانت السفن (Quinquereme) خمسينية المجاديف التي حلت محل السفن ثلاثية صفوف المجاديف في صدارة الصفوف ، حسب ما رواه « ديودور » ، من اختراع ديونيزيوس العظيم ولكن لا شك في أن أحواض بناء السفن القرطاجية سرعان ما صنعت على غرارها وكانت الأساطيل في حروب صقلية تتألف عادة فيما بين ١٠٠ , ٢٠٠ سفينة وفي الحرب البونية الأولى اتجهوا إلى تسيير أكثر من ٢٠٠ سفينة كان من بينها سفن صغيرة أيضا .

والمرفأ (Cothon) القرطاجي المستدير كان به ٢٢٠ حوضا منها ١٦٠ - ١٧٠ يستوعبون سفنا خمسينية المجاديف ، ومن العسير أن نتصور كيف أمكن ، على ضوء الطوبوغرافيا الحالية حول المسطح المائي المستدير ، انشاء مكان يتسع لاستيعاب قدر بهذه الكثرة حتى ولو كانت بعض المراسي جافة ، ولكن الدلائل القديمة لا يمكن نبذها بسهولة فمن الممكن أن تكون إعادة بناء المنطقة على يد الرومان قد طمست المعالم الطوبوغرافية التي يمكن أن تفسر هذا اللغز - والمرفأ (Cothon) الفينيقي الآخر الوحيد المؤكد هو المرفأ الصغير الذي في « موتيا » ومساحته ٥١×٣٧ مترا وقناته المؤدية الى البحر عرضها ٧ أمتار في أضيق أجزائها ، ومثل هذا الحوض يحتمل أنه بني أساسا من أجل السفن الصغيرة حيث أن السفن ثلاثية المجاديف كانت بالكاد تدخل عبر القناة (إذ أن آثار هذه السفن التي كشف عنها في أثينا تدل على أن عرضها كان ستة أمتار وثلاثة أرباع المتر) كذلك لم يكن في الاستطاعة أن يستخدم المرفأ إلا عدد ضئيل في وقت واحد ، ويشير مؤلف (Bellum Africanum) أي حرب أفريقيا [١] إلى أحد المرافيء في « هادروميتوم » Hadrumetum» (سوسة) في سنة ٤٦ق.م. ولكن لم يمكن التعرف على موقعه ويوجد حوض داخلي في «مهدية» فيما بين « سوسة » و«صفاقص » مساحته ٧٢×٥٦ مترا يؤخذ على أنه فينيقي - وقد اعتقد بعض الأثريين بأنه ربما كان من العصور الوسطى ولكنهم ذكروا ذلك قبل النشر عن مرفأ «موتيا» الأصغر منه مما يرجح أن حوض «مهديه» الداخلي هو حوض فينيقي .

---

(١) يحتمل أنه أحد ضباط يوليوس قيصر رافقه في حملته على أفريقيا حوالي ٤٦ ق.م.

خامساً: الدين

من الغريب ان الفينيقين القدماء وهم أصحاب الفضل في تطوير الكتابة قديماً والوصول بها الى مرحلة الحروف الهجائية ، لم يعثر لهم على كتابات كافية تفيد في دراسة تاريخهم أو نظمهم أو دينهم ومعتقداتهم ، فكما حدث عند دراسة تاريخ الفينيقيين أو نظمهم السياسية من الاعتماد على مصادر أجنبية من مصرية أو آشسورية أو يونانية أو لاتينية في أغلب الأحيان لنستنبط جوانب من هذا التاريخ أو تلك النظم كذلك عند دراسة الدين نفعل الأمر ذاته ونلجأ الى هذه المصادر الاجنبية - على علاتها - من أجل استجلاء ملامح الدين والمعتقدات الفينيقية ، والى عهد قريب كنا نقتصر في هذه الدراسة على التوراة وكتابات الاشوريين للمرحلة المتقدمة ، ثم على كتابات الأغريق واللاتين بالنسبة للمرحلة المتأخرة في العصرين اليوناني والروماني - ولكن هذه المصادر أضيفت اليها ثروة جديدة في الفترة بين الحربين العالميتين حين كشف كلود شيفر Claude Schacffer» عن آثار «رأس شمرا» أو «أوجاريت Ugarit» قديماً - على الساحل السوري ولا زالت الحفائر والابحاث مستمرة عند رأس شمرا والدراسات لا تنقطع بالنسبة لنتائجها ، ويهمنا من هذه الحفائر مجموعة النصوص التي ترجع الى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد والتي عثر عليها مكتوبة على ألواح من الطمى المحروق بحروف هجائية في كتابة مسمارية وتدور موضوعات أكثر هذه النصوص (التي أمر بجمعها الملك «نقماد Niqmad» في منتصف القرن الرابع عشر ق . م . حول الدين أو السحر ، وحول عبادة الموتى أو العبادات التي تتعلق بالخصب ، وكذلك مجموعة من القصص والاساطير التي تشبه القصص الدينية في التوراة أو مثيلاتها عند السومريين والبابليين .

وما من شك في أن هذه المجموعة الكبيرة من النصوص هي مصدرنا الرئيسي الآن عن الألوهية والآلهة الكنعانية والتي سادت ايضاً في المدن الساحلية التي كونت مجموعة من المدن الفينيقية وخاصة في الشمال .

ويأتي على رأس أسرة الآلهة الكنعانية الاله « أيل » أو « أيل داجون » (الذي شبهه الاغريق بالاله « كرونوس » ، وهو أبو الاله « زيوس ») ، ويصور أحياناً في صورة الثور أو العجل ، ومقره حقول « أيل » في الغرب ، ويظهر كقرص الشمس ، وهو الاله الذي يرعى الانهار ويقرر المطر .

وللأله « أيل » زوجة هي « عشيرات البحر » ، وهي تمثل أيضاً الالهة الأم . وقد ولد « لأيل » و« عشيرات البحر » ولد هو « بعل » ، وهو رب الجبال والمطر والعواصف ويعد أيضاً إله الجو، فهو إله في عنفوان الشباب، وتمثله التماثيل الصغيرة التي عثر عليها، وقد اتخذ قرنيين وملوحاً بعصا أو ممسكاً بصاعقة (شكل ٤).

وتروى لنا إحدى لوحات رأس شمرا وصفا طريفاً لبناء معبد للأله « بعل » ، قام به الآلهة أنفسهم بناء على أقتراح من والدته « عشيرات البحر » ، ويصف هذا النص كيف قام « بعل » نفسه بقطع أخشاب الأرز من أجل البناء ، بينما يرسل ابنه « عاليان » ضوء السماء ، وتقوم خادمة عشيرات بصناعة قوالب الطوب كما قامت « عشيرات » بمهمة جمع الأموال للبناء وتأسيس خزينة للمعبد .

وتذكر نصوص أخرى صفات اختص بها « بعل » فيما يتعلق بالخصب والزراعة ، ولكن قبل أن نروي تفاصيل هذه الاسطورة يجب أن نذكر أن العلماء لا يتفقون حول تفسير وترجمة جميع جزئيات نصوص هذه الأسطورة ، وأحياناً يختلفون حول أسماء الآلهة نفسها أو ينفون وجودها إطلاقاً . فهناك من العلماء من يرفض وجود ابن للاله « بعل » يسمى « عاليان » ويفسرون ذلك بأن اصطلاح « عاليان بعل » يدل على صفة للاله بمعنى « الرفيع » أو « العالي » ، وليس أسمًا لإبن « بعل » .



شكل ٤ عن **Harden, op.cit., p.192**

أما الاسطورة ذاتها فتدور حول صراع « بعل » (وابنه عاليان) ضد « موت » - الذي يمثل حرارة الصيف - ويبدأ الصراع « ببعل » قوياً قبل وصول « موت » ، ويرسل الصواعق (من برق ورعد) والمطر مدراراً ، والرياح والأعاصير (كما يحدث في شهر شباط) . ولكن سلطان « بعل » لا يصمد كثيراً أمام قوة « موت » . ويضطر « بعل » الى أن يخلي المجال ل « موت » الذي يأمر بأن تسود الحرارة والدفء .

وهكذا يموت « بعل » أولاً ، وينزل الى بطن الأرض . ويبقى ابنه

عاليان » بمفرده بعض الوقت متمثلاً في الثمر على الشجر تحت وطأة حرارة الشمس القوية ، وأخيراً يضطر « عاليان » الى السقوط واللحاق بوالده داخل الأرض ولكنه قبل سقوطه يجتمع بأخته وزوجته « عينات Anat» (عين أونبع الماء) . (وفي تفسيرات أخرى تمثل «عينات» أخت « بعل »نفسه)، واجتماعهما يمثل الربيع .

وتبحث « عينات » بعد ذلك عن أخيها حتى تجده تحت الأرض فتخرج جسمه وتذهب به الى قمة الجبل « سافون »[1] ، حيث تدفنه وتضحي من أجله . ثم تفتش عن « موت » وتسأله أن يرد أخاها الى الحياة ، ويرفض ، فتمسك به « عينات » وتقتله ، وتصف النصوص مشهد قتله متمثلاً في شكل سنابل القمح التي تنضجها حرارة الصيف .

وبعد ذلك أعيد أخوها الى الحياة ، وتستأنف الدورة الزراعية سيرتها من جديد .

وهذه أسطور تتعلق بالخصب الزراعي كما هو واضح مما هو شائع في أكثر الديانات القديمة وأكثر الأساطير شبهاً بهذه الأسطورة الكنعانية ، هي الأسطورة المصرية التي تروي مقتل «أوزيريس» بواسطة أخيه «ست» وتطوف أختهما وزوجة « أزوريس » ، والمسماة « ايزيس » باحثة عن أخيها حتى تجده في « جبيل » وتعود به الى مصر ولكن « ست » يجده مرة أخرى فيقطعه إلى أربعة عشر قطعة ويرمي بكل منها في جزء من أجزاء مصر وتتولى ايزيس مرة أخرى مهمة جمعها واحدة واحدة وتضمها بعضها الى بعض وتقوم بتحنيطه ودفنه ثم يبعث ويولي حاكماً على العالم السفلي .

ونصوص أوجاريت التي تحدثنا عنها حتى الآن تصف دينا عناصره كنعانية من سوريا ، وما من شك في أن هذه الديانة ذاتها والآلهة أنفسهم هم الذين سادوا أيضاً وعبدوا في المدن الفينيقية وخاصة في الشمال ، فالديانة

---

(١) من المرجع أن المقصود به هنا كما يفهم من حوليات سرجون ، قمة جبل في لبنان

الفينيقية كنعانية في صميمها وهذا أمر لا شك فيه ، ولكن ينبغي أن نذكر أن الدين الفينيقي لم يبق كنعانياً خالصاً فإن دوام النفوذ المصري الذي بلغ في بعض الاحيان سيطرة مصرية وعلى مراحل متطاولة متتابعة على الساحل السوري بأسره لابد وأنه كان له أثره في مزج عناصر من الدين المصري بالدين الفينيقي ، ويتضح هذا من تماثيل الآلهة الصغيرة التي تحمل خصائص وتتزين بملابس مصرية (شكل ٥) وكثيراً ما شبهت المعبودات الفينيقية في الاعتقاد الشعبي بشبيهاتها المصرية ، كما حدث في تشبيه الالهة « بعلات » ربة جبيل بالالهة « إيزيس » أو «هاتور» المصريتين ، كما يتضح التأثير المصري في العمارة والمباني الدينية الفينيقية التي اقتبست كثيراً من مصر ، ويمكننا أن نرى هذا الاقتباس واضحاً من ظهور أساليب العمارة المصرية على شواحد القبور ومذابح المعابد سواء في المدن الفينيقية الشرقية أو الغربية .



شكل ٥ عن .Harden, op.cit., p.204

وكذلك كان التأثير البابلي والاشوري أمراً طبيعياً نظراً لوجود أصل سامي لكل من البابليين والكنعانيين ، ويبدو أن التأثير البابلي والاشوري كان أكثر وضوحاً في مجال الطقوس والمراسيم الدينية منه في فن البناء .

ولا بد أنه وجد كذلك تأثير يوناني على الدين الفينيقي منذ العصر

الميكيني ، ولكن التأثير اليوناني من العصر الكلاسيكي لم يجد طريقه الى المدن الفينيقية إلا بعد القرن الخامس قبل الميلاد ، فمنذ ذلك الوقت نجد تأثيرات إغريقية في العمارة الدينية وفي النحت والنقش على المقابر وغيرها - ولعل كثيراً من هذه الأشياء تم صنعها بواسطة فنانين يونانيين .

وفي فترة انتشار الفينيقيين في مستعمراتهم التي عمت الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط كانت ديانتهم وعقائدهم تشتمل على العناصر الكنعانية التي سادت في وطنهم الأصلي مختلطة بمؤثرات من عبادات الاقطار المجاورة التي سبقت الإشارة اليها ، ومع ذلك ظلت ديانتهم كنعانية في أساسها وقد نقلها المستعمرون الفينيقون فيما وراء البحار سواء في قرطاجة أو في « موتيا » أو « قادس » أو في غيرها ، فالآلهة فيها كلها واحدة في خصائصها وإن لم تحتفظ بنفس الأسماء في جميع الحالات، وكانت الطقوس الدينية تمارس بنفس الطريقة التي كانت تمارس بها في المدن الشرقية الفينيقية ، وإذا ماتراءى لنا أحياناً أن بعض التقاليد الدينية في الغرب لم يستدل على مثيل لها في الشرق فلا يمكن التأكيد بأن هذه قد أستحدثت في الغرب بل ربما كان جهلنا بجوانب كثيرة من تفاصيل العبادات في المدن الفينيقية في الشرق هو السبب في ذلك ، فلا يبعد مثلاً أن الاكتشافات الاثرية في المستقبل قد تثبت أن عادة مثل التضحية بالأبناء التي ثبت وجودها في الغرب كانت تمارس أيضاً في الوطن الأم، وإذا لم يثبت ذلك فإن هذا يدعو الى الغرابة .

وقد ذكرنا أن كبير الالهة حسب نصوص رأس شمرا هو الاله « ايل » ، ولكن هذا الاسم ما هو الا الكلمة السامية للاله كما يتضح مثلاً في الوهيم الموجودة في التوراة (وهي جمع إله) ونجدها أيضاً في الكلمة العربية وقد أدخلت عليها أداة التعريف « ال » فأصبحت « ألاله » ، كذلك وجدت كلمات أخرى عامة مثل « بعل » ومعناها « رب أو سيد » و « بعلات » ومعناها « سيدة أوربة » . و « ملك » ومعناها « ملك أو حاكم » و« أدون » (العبرية ادوناي) ومعناها « سيد » وهذه الكلمات العامة يمكن استخدامها منفردة أو متصلة باسم الاله .

ولا تقتصر هذه الظاهرة على المدن الفينيقية في الشمال بل يمكن أن نتتبعها أيضاً في المدن الجنوبية حيث شاعت آلهة أخرى أو أسماء أخرى للآلهة ، فالإله الرئيسي في صور هو « ملقارت » الذي رفع من شأن صور، وهو أحد الآلهة الفينيقية الكبرى وخاصة في قرطاجة التي ينسب تأسيسها الى مدينة صور حيث كان يطلق عليه عادة اسم « بعل ملقارت » وكلمة « ملقارت » هذه تتكون من كلمتين فينيقيتين وهما كلمة « ملك » أي ملك و«قارت» أي مدينة وهذا يعني أنه الاله (بعل) رب المدينة وقد شبه الاغريق ملقارت « بهرقل »– ويبدو أنه في أول الأمر كان يعتبر إلهاً للشمس ، ولكنه بعد ذلك ، وبعد أن أصبح الفينيقيون أهل ملاحة ، اكتسب صفات بحربة أيضاً – وكانت لعبادته في قرطاجة أهمية كبرى حيث أن هذه المدينة ظلت عدة قرون ترسل في كل سنة المكوس وتقدم الولاء لمعبد الاله « ملقارت » في المدينة الأم « صور » ، وقد ظهر اسم هذا الإله في عدد من أسماء الابطال في التاريخ القرطاجي مثل « هاميلكار (= هايلقار) وبوميلكار (= بوملقار) .

وكانت عبادة الإله « ملقارت » شائعة في « قادس » حيث أقيم له معبد بواسطة جماعات من الفينيقيين من مدينة صور يرجع تاريخه، حسب الاعتقاد السائد، الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، وقد ظهرت صورة له على عملة « قادس » في عصور متأخرة – وقد أورد الشاعر اللاتيني « سيليوس ايتاليكوس » (في القرن الأول بعد الميلاد) وصفاً لهذا المعبد حيث يقول إن المعبد باق دون أن يلحق به أذى ولا زال الكهنة يتعبدون فيه ، حسب الطريقة الفينيقية القديمة ، حفاة الاقدام ، يرتدون الملابس الكتانية ، وإن هناك ناراً دائمة الاشتعال دون أن يوجد في المعبد أي تمثال للعبادة .

وكما كان لصور إلهها « ملقارت » كذلك كان لمدينة صيدا إلهها « أشمون » الذي شبهه الأغريق «باسكليبيوس Asclepius» وكان في أصله إلهـا أرضياً يتصـل بالحيـاة الزراعيـة – ولكن كان من خصـائصـه، مثـل «اسكليبيوس»، العناية بأمر الصحة وعلاج المرضى – وبوصفه إله أرضي يتصل بالحياة الزراعية فقد رمز للخصب وجعلوا له زوجة إلهية هي « عشترته »

(Astarte) ويماثلها عند البابليين « تموز » و « عشتار » وعند الاغريق « أدونيس » و«فينوس» وعند المصريين « أوزريس » و«إيزيس».

هكذا كان أشمون أكثر من إله محلي لصيدا ، وهناك ما يدل على أنه اكتسب أهمية كبرى في قرطاجة أيضاً ولعله فاق الإله ملقارت نفسه فقد وقف القرطاجيون في دفاعهم الأخير عن مدينتهم في سنة ١٤٦ ق . م . عند معبد هذا الإله الذي كان موجوداً في قلعة المدينة .

هذه هي أهم الالهة الفينيقية الأولى التي سادت في الشرق ووجددت طريقها الى الغرب أيضاً ، وهناك آلهة غيرها كثيرة مثل « رشف » (Resheph) الذي كان إلهاً للبرق والضوء، وشبهه الاغريق بالإله « أبولو » ، وقد عبد أيضاً في قرطاجة حيث وجد له معبد خاص به وبالإلهة « شبش Shapash» التي تمثل الشمس وتظهر في أسطورة الصراع الذي حدث بين « بعل » و«موت».

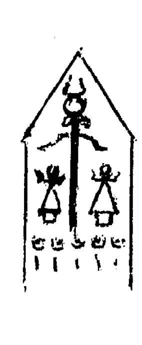
وما دمنا قد أشرنا فيما سبق الى أن مؤثرات خارجية قد أثرت على ديانات ومعتقدات الفينيقيين فلا بد لنا كذلك من أن نبين أن الآلهة الفينيقية لم تكن جميعها سامية الأصل وإنما هي خليط من آلهة سامية وآسيوية شأنها في ذلك شأن الآلهة التي عرفت وعبدت في بلاد النهرين حيث نجد آلهة سومرية الأصل آسيوية مختلطة بآلهة بابلية سامية ، ويكشف هذا الاختلاط في الآلهة الفينيقية الاسطورة التي تروي بشأن بناء معبد للاله «بعل» ، فبينما يبدو أن الاله « بعل » آسيوي الأصل وأنه لم يكن واحداً من أسرة الالهة السامية التي يرأسها الاله « ايل » وهو يقابل عند السومريين وعند البابليين الاله « اداد » أو « حداد » فهو يمثل كبير الالهة الآسيوية الأصل إلا أنه أقحم في أسرة الآلهة الكنعانية السامية حيث تذكر الاسطورة بأنه لم يكن له معبد في أول الأمر في حين أن الآلهة الأخرى كانت لها معابدها ، ثم أذن له الإله « ايل » في أن يتخذ له معبداً وعلى ذلك ينبغي أن نفهم من هذه الاسطورة أنه الحق بأسرة الآلهة الفينيقية مؤخراً .

ولا شك في أن هذا الإله قد انتقلت عبادته إلى الغرب مع الفينيقيين سواء

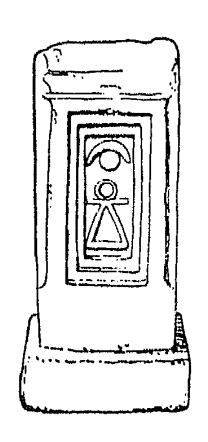
في مدينة قرطاجة أوفي غيرها من المستعمرات - ففي قرطاجة عبد إله كبير له خطره بأسم « بعل هامون » وكان الإغريق والرومان يشبهونه بالإله « كرونوس » الذي كان له معبد في قرطاجة تردد ذكره في بعض النصوص وكان من قبل يشبه بالإله « زيوس Zeus» لأنه هو الإله الذي يظهر في قسم « هانيبال » أمام والده عندما تعهد بعداوة أبدية لروما ، وقد عثرنا على كثير من شواهد المقابر الفينيقية في الغرب مقدمة للاله « بعل هامون » والإلهة « تانيت » المسماة (Tanit Bene Baal) ومعناها الآلهة «تانيت المواجهة لبعل أووجه بعل » . أي أن «بعل هامون» في هذه الشواهد يظهر على أنه الإله الأول. ولكن هناك شواهد أخرى مقدمة اليه وحده مما يدل على مكانة هذا الإله، وما من شك في أن هذا الإله ما هو إلا الإله « بعل » الشرقي الذي يشابه في هيئته الإله «آمون » المصري ، وربما كان ذلك لأن الإله « آمون » كان له معبد ذائع الصيت بالنسبة للساحل الافريقي الشمالي بأسره وهو المعبد الموجود في واحة سيوه ، ومما يزيد في تأكيد هذا التشبيه أن الإله « بعل هامون » كان يمثل بقرني الكبش وملتحياً مثل الإله « آمون » المصري .

أما الآلهة الأخرى ، التي نقابلها في الغرب وهي « تانيت » فتمثل لنا مشكلة ، لأن اسم « تانيت » غير معروف في مجموعة الآلهة التي عبدت في المدن الفينيقية الشرقية . ونظراً لأننا لا نعرف في الشرق إلهة تشبهها شأناً غير عشترته » فقد درج الباحثون الحديثون على تشبيه يصطدم ببعض الصعوبة وخاصة بعد أن عثرنا على شاهد من القرن الثاني ق . م . في قرطاجة أقيم تحية للآلهة « عشترته وتانيت لبنان » فليس من المؤكد إذا أن « تانيت » لبنان هي نفس الالهة « تانيت وجه بعل » ، لأن عشترته كانت رمزاً للخصب ومرتبطة بالأرض بينما كانت «تانيت بعل» ، ربة سماوية مرتبطة أساساً بالقمر ولعل الهلال والقرص اللذان يظهران على كثير من المباني الدينية والجنزية في المواقع الفينيقية الغربية كانا يمثلان الإلهة وزوجها « بعل هامون » وفي بعض الأحيان كان يرمز إليها بيد مرتفعة أوبصولجان أوبما يسمى « علامة تانيت » فاليد تمثل من غير شك المباركة والحماية وهي رمز لا يزال استخدامه شائعاً في كثير من البلاد الشرقية العربية .

وكان الصولجان يتخذ شكلاً مؤلفاً من هلال وقرص فوق عصى ، تتخذ شكل الشرائط (شكل ٦أ) أما علامة «تانيت» فهي رمز غامض يتكون من مثلث على رأسه قرص وينفصل عنه بزراع أفقي ، ولكن كثيراً ما أدخلت على هذا الشكل تعديلات جزئية ، وأحياناً يضاف إليها هلال مقلوب فوق القرص ، والشكل النهائي يشبه الجسم الانساني (شكل٦ب) . وهي شديدة الشبه أيضاً بعلامة «عنخ» المصرية التي ترمز للحياة، ولكن ليس هناك دليل قاطع على أنها مشتقة منها سوى أنها تشبهها في الشكل ، ولم توجد هذه العلامة إلا في الغرب فقط ولا نجد لها أثر قبل القرن الخامس ق . م .



شكل ٦أ عن **Harden, op.cit., p.99**



شكل ٦ ب عن **Harden, op.cit., p.163**

ويؤكد بعض العلماء أن تغيراً جوهرياً حدث في الديانة الفينيقية في قرطاجة أثناء القرن الخامس ق . م . وأنه نتيجة لهذا التغير فقد «ملقارت» و«عشترته» مكانتهما واحتلها «بعل هامون» و «تانيت بني بعل» . ومثل هذا

التغيير يعني انقطاع الصلة الدينية بين قرطاجة والمدينة الأم ، وأنه قد صاحب هذا التغيير انتشار للأفكار الدينية في مصر وليبيا ، وأن التغيير الديني لم يخل من رد فعل سياسي أدى الى انقسام بين بعض الأسر الكبيرة ، فمنها من تمسك بالآلهة الكبرى القديمة مثل « ملقارت » ومنها من تعبد للآلهة الجديدة التي شاعت وانتشرت .

ومما هو جدير بالذكر أن بعض الآلهة المصرية وجدت طريقها الى قرطاجة مثل « هاتور » و « أوزيريس » و « إيزيس » ، ولكن أكثرها إنتشاراً كان « بس » وهو إله ثانوي يمثل في هيئة قزم قبيح المنظر وكانت تماثيله الصغيرة تستخدم كتمائم بعضها صنع في مصر وبعضها صنع في قرطاجة .

وأخيراً يمكننا أن نذكر إلهاً شاعت عبادته في العصر اليوناني الروماني ، ويمثل بذلك آخر مراحل تطور العبادة الفينيقية بعد أن أمتزجت أيضاً بمؤثرات إغريقية ، ونقصد به الإله « أدونيس » الذي تتصل عبادته أشد الاتصال بالإلهة « عشتارت » وتصوره الاسطورة المتعلقة به في هيئة شاب قتله خنزير وحشي كان يصيده وأن عشيقته «عشترته» نزلت الى طبقات الجحيم لتنتزعه من الموت .

أما القصة الثانية في ثوبها الأغريقي الذي يرجع إلى القرن الخامس ق .م . فتـذكر أن « أم أدونيس » كانت قد تحولت الى شجرة عند ولادته ، ولما ولد التقطته «أفروديت» ، وهامت به حباً ، ثم حدث خلاف بين « أفروديت » وربة أخرى بشأنه وكانت « أفروديت » تعرف مصيره المشئوم ، فحاولت منعه عن الصيد فلم تفلح ، ومات « أدونيس » من ضربات الخنزير الوحشي ، ثم أعادته أفروديت الى الأرض .

ويتضح من ميلاد « أدونيس » الغريب أنه أحد آلهة الزراعة والطبيعة فهو روح النباتات المعبود في كل فينيقيا ، وكانت له أعياد سنوية اسمها « الأدونيات » ، ومع ذلك فهناك غموض يكتنف هذا الاله ، إذ لم يعثر على اسمه مذكوراً في أي نص فينيقي أو يوناني أو لاتيني من النصوص المكتشفة في

فينيقيا ، وليس اسمه سوى صيغة متأغرقة من الكلمة السامية «أدون» بمعنى السيد .

ولم تكن التسمية « بأدونيس » شائعة عند غير اليونان ، ففي الشرق (في العبرية والسريانية) كان الإله «تموز» الذي عبد في بلاد النهرين باعتباره المختص بالخصب والانبات، هو المقابل لهذا الاله.

ولكن هناك إشارة متأخرة عن هذا الإله تزيل بعض الغموض عنه ، جاءت فيها ذكره الكاتب « دمسقيوس »(Damscius) (من القرن الرابع الميلادي) حيث يقرن أسطورة « أدونيس » بأسطورة «اسكليبيوس» (إله بيروت) إذ يقول : « ليس أدونيس مصرياً ولا يونانياً ، بل فينيقيا ، وأنه يسمى « ايسمونوس » وإنه ابن «صاديقوس».

وبرغم تأخر هذه الرواية فإنها تلقي بعض الضوء على شخصية هذا الإله الفينيقي ، وتفيد أن اسم أدونيس غطاء أولقب وضع فوق اسم أشمون على نحو يخفي لقب «بعل» وهو الاسم الحقيقي الذي يسمى به الإله الأعظم، وأما ارتباط مولده بشجرة فهو تصور طبيعي في بلد ذي غابات ، وتجارة الخشب كانت من أهم صادراته.

أما الصلة بينه وبين عشتارت فهي انعكاس للبيئة أيضاً . « فأدونيس » رمز الخصب والاخصاب ، وإذا جاء الريح في الصيف القائظ قضى على ذلك الخصب (وتترجم ذلك الاسطورة فتقول قتله خنزير وحشي) كي ينبعث مرة أخرى . أما «عشترت» فكانت تندب موت حبيبها « أدونيس » حتى يعود .

سادساً: الفن

(ا) : الأصول :

لا يخدعنا عن الفينيقيين شيء بقدر ما تخدعنا فنونهم ، فلا يمكن إنكار أن فنانين فينيقيين ولدوا في فينيقيا وثقافتهم فينيقية كانوا يتميزون بهذه الفنون وتألقوا فيها ولكن حينما نتلمس تمييز ابتكاراتهم الفنية أو تحديد مميزات الفن الفينيقي فإننا نواجه صعوبات جمة.

فحوالي نهاية عصر البرونز(١) وجد خليط عظيم من العناصر الفنية على الساحل السوري وما وراءه ، ومنذ عهد الأسرة الثانية عشرة المصرية إن لم يكن قبلها عرفت القطع الفنية المصرية الرائعة لدى السكان الكنعانيين ، أي أنهم قلدوا الأشكال المصرية ومظاهرها على أشياء صنعوها محلياً - وظلت التأثيرات المصرية تنفذ إلى الفن في الليفانت(٢) في عهد ملوك الأسرة ١٨ الأقوياء ، ولذا لا يدهشنا أن هذه الاتجاه ظل قوياً حتى بعد تدهور قوة مصر في عهد الرمامسة المتأخرين .

ولم تكن تأثيرات بلاد النهرين الفنية واسعة الانتشار في الألف الثاني ق.م. كالتأثيرات المصرية، ويلحظ ذلك بصفة خاصة في فن حفر الأحجار الكريمة ففي الاختام الاسطوانية وأختام (الضغط) التي تعرف باسم الاختام

---

(١) انتهى عصر البرونز حوالي نهاية القرن الثاني عشر ق.م. وهو ينقسم إلى : برونز قديم ٣٠٠٠-٢١٠٠ ق.م. ، برونز متوسط ٢١٠٠-١٥٥٠ ق.م. برونز حديث ١٥٥٠-١١٠٠ ق.م .

(٢) الليفانت يقصد بها ساحل الإقليم السوري وما وراءه في الداخل .

السورية الحيثية يظهر في مظاهرها وأسلوبها أنها مأخوذة عن الأشورية والبابلية ولكن مع فوارق واضحة وخليط من بعض المظاهر المصرية تدل على أنها نسخ مقلدة – فلم يكن هناك تأثير ميزوبوتامي [١] قوي على الفنون العظمى في سواحل الليفانت حتى بلغت اشور مركز الصدارة في الألف الأول ق.م.
– وقبل ذلك كانت رسوم الليفانت المنحوتة وطرزها تعتمد أكثر على مثيلاتها في الأناضول – وما كشف عنه في أوجاريت مثل لوحة «إله الجو» الشهيرة (شكل ٤) يبدو فيه الكثير من المؤثرات الحيثية في الزي والسجايا ولكن الأوضاع والمواقف كانت أكثر ميلاً إلى التأثير المصري، وفي القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق. م. جلب الحوريون (الميتانيون)[٢] مؤثرات حضارية مختلفة، ولكن لم يكن لهؤلاء الناس فن متميز خاص بهم – ولا يمكن أن ننسب لهم منتجات فنية سوى بعض الاختام الاسطوانية والفخار الحوري الأسود الملون بالأبيض.

وقد وجدت كذلك مؤثرات إيجية حيث عثر في اوجاريت على لخاف (قطع) من الفخار المتعدد الألوان من العصر المينوي[٣] الوسيط ترجع إلى أوائل الألف الثاني ق. م. فقد عثر مثلاً على جزء من قدح فضي في بيبلوس عليه رسوم حلزونية من طراز كريتي – ولكن ربما يغلب على هذه المؤثرات أنها كانت بطريق غير مباشر، وليس بطريق مباشر، إلى أن حل النصف الثاني من الألف الثاني ق. م. حينما نشر الميكينيون مستوطناتهم شرقاً.

ولم يعثر في التنقيبات الدقيقة بأي موقع كبير على أي شيء يرجع إلى عهد أقدم من القرن السادس ق. م. وليس معنى هذا أن المواقع الأثرية في الوطن الفينيقي لا توجد بها ولن توجد آثار من عهود أقدم، ففد وجدت في

(١) درج بعض الباحثين على اطلاق اسم ميزوبوتاميا الذي يعني أرض الجزيرة (أي ما بين نهري دجلة والفرات) على بلاد النهرين بأكملها على سبيل التجاوز، والمقصود من كلمة ميزوبوتامي هنا أي ينتسب إلى بلاد النهرين.

(٢) شعوب غير سامية ظهرت مند منتصف الألف الثالث ق.م. وأصبح لهم كيان سياسي من منتصف الألف الثاني ق.م. في شمال بلاد النهرين وسوريا.

(٣) نسبة الى الحضارة المينوية التي ظهرت في كريت.

لبنان مقابر في « خربة سلم »[1] و« قريعة »[2] و« خلدة »[3] عثر بها على فخار يرجع إلى أقدم عهود عصر الحديد ، وربما ينتج عن استمرار التنقيب نتائج أفضل ، وفضلاً عن ذلك فإن برونزيات صغيرة وأشياء أخرى صغيرة من طراز فينيقي أمكن الحصول عليها بالشراء وهذه لا بد أنها جاءت من إحدى مدنها ، ويمكننا كذلك أن نستنتج من أشياء طرازها فينيقي جاءت من مواقع فلسطينية ، من أوائل عهد الملكية العبرية ، مثل حازور ومجدو وسامريا وكذلك من مواقع في سوريا واشور أنها ربما كانت من صنع فنانين فينيقيين ، وغالباً ما يكون عسيراً تمييز الطراز الفينيقي الحقيقي عن طراز مماثل خليط من ساحل سوريا الشمالي وما جاوره في الداخل - والفن الفينيقي الحقيقي يشف عن تأثير مصري أقوى مما يمكننا تمييزه من تأثير المنطقة السورية حيث سادت التقاليد الآسيوية (وخاصة الحيثية) فقد توجد به بعض المظاهر الميزوبوتامية ولكنه كذلك يحتفظ بمظاهر ميكينية ولو أن هذه أندر مما كان يمكن توقعه نظراً لما عرف عن قوة التأثير الميكيني في مجالات أخرى من حضارة المشرق.

(ب) عصر البرونز الأخير :

لكي نوضح الفن الفينيقي الناشىء يمكن ان نبدأ بتابوت احيرام من بيبلوس فهو وإن كان من عمل القرن الثالث عشر ق . م . إلا أن احيرام أعاد استعماله في أوائل القرن العاشر ق . م . وأصبح المؤرخون يجمعون على تأريخه بزمن كتابة نقوشه أي (بالقرن العاشر ق . م) . وتمثل المناظر التي على جانبيه الطوليين حاكمًا ملتحياً يجلس على عرش بجانبيه أشكال مجنحة لأبو الهول وأمامه موكب من سبع خدم ومتعبدين يتقدمون نحو مائدة موضوعة أمامه محملة بالأطعمة وفي أعلى المنظر صف من اللوتس ، فالكثير من هذا الطراز مصري ولو أن الأشخاص الممثلين في المناظر يلبسون ملابس ليفانتينية تشد عند الخصر بزنار (حزام) ، وعلى كل من جانبي التابوت المستعرضين أربعة من النساء النائحات عاريات الصدور - وتمثل في أسفل التابوت أربعة أسود كما

(١) جنوب غربي بنت جبيل وشقرا (المنارة) وشمال غربي صور .

(٢) القريعة شمال صيدا بالقرب من دير المخلص .

(٣) خلده جنوبي بيروت .

يمثل اثنان منها على حافة غطاء التابوت ، على جانبيها أشكال رجال ملتحية - وعلى الغطاء من أعلى نقش محفور يمثل شخص الملك بطوله - وتذكرنا الأسود بأشكال مشابهة في الفن الاشوري والحيثي - وأشكال الرجال والأشكال التي على الاطار ليفانتينية سورية أما حزام اللوتس فهو مصري باكمله .

وتبين لوحة عاجية وجدت مع هذا التابوت وتماثل مجموعة عاجيات مجدو الشهيرة[1] ، من أمشاط وصناديق أدوات تجميل وملاعق وتطعيمات الأثاث ، خليط من الاتجاهات الفنية المصرية والليفانتينية - فكثير من الأثاث والزخرفة في المناظر مصري ولكن أشكال الأشخاص آسيوية ومعظمها يلبس زياً محلياً - وصراعات الحيوان التي تزين كثيراً منها تبين خليطاً من الطرز الآسيوية والايجية - وقد عثر على قطعة من حوالي هذا التاريخ في « مينة البيضا » (ميناء اوجاريت) مثلت عليها إلهة على جانبيها حيوانات وهما في مظهرها أكثر شبهاً بالفن الإيجي (إن لم تكن في الواقع من صناعة إيجية) وخاصة في نقبتها المزركشة وجذعها العاري - وهي تدل بوضوح على قوة التأثير الإيجي على شمال سوريا حيث نجد فيها إلهة في زي إيجي بينما تمثل بقية القطعة مظاهر أخرى محلية (شكل ٧) .

ومن طلائع القطع الفنية الفينيقية التي ظهرت فيها بعد تماثيل كثيرة برونزية صغيرة من أوجاريت وبيبلوس و« إينكومي » (في قبرص) ومواقع أخرى من عصر البرونز الأخير ، وقليل من هذه كان من مواقع في الساحل الفينيقي مثل « بيروتوس » (بيروت) أو « انتارادوس » (طرطوس) أومن فلسطين مثل « مجدو » ، ومعظمها سبائك من معدن رقيق عادة وهي سيئة التشكيل وتمثل آلهة أوإلهات (بعل المحلي واستارته) يلبسون أزياء بسيطة أوعراة وكانوا أحياناً يصنعون أزواجاً أوفي مجموعات كل منها أربعة وكل منها تفتقر إلى مزايا خاصة ولكن تجمعها صفات مشتركة - فالأشكال تلتزم وضعاً أمامياً كئيباً وغير جذاب - ويوجد أيضاً طراز أحسن من التماثيل الصغيرة صنع باتقان في مواقع من عصر البرونز المتأخر عثر على أمثلة لها في أوجاريت وأماكن أخرى .

---

(١) مجموعة من أكثر من ٢٠٠ قطعة وجدتها بعثة أمريكية في أطلال ثلاثة غرف من مبنى يظن أنه كان قصر حاكم مجدو - وهي صناعة فينيقية في الغالب.



شكل (٧) عن **Harden, op.cit., p.60**

(جـ)القرن التاسع ق . م . وما بعده في الوطن الفينيقي :

توجد فجوة كبيرة بين طرز عصر البرونز المتأخر وبين طـرز المجموعة التالية إذ أن هذه لا يوجد من بينها ما يرجع إلى ما قبل القرن التاسع ق.م. ولا يمكن أن توجد مثل هذه الفجوة في الشواهد الأثرية الأخرى، فمهما كان الأمر لم يعثر على ما يدل على حدوث فترة توقف طويلة في استمرار المدن الفينيقية نفسها حتى بعد إغارة شعوب البحر على الساحل السوري، وفضلاً عن ذلك فإن المجموعتين تتشابهان فى الطراز ولا يمكن التعرف إلا على فجوة ضئيلة أو لا توجد على الاطـلاق في التقاليد الفنية.

فمجموعة العاجيات من « السامرة » و« ارسلان تاش »[1] والأماكن الاشورية « نمرود » و« خورسباد » التي ليست كلها من طراز واحد يظن أنها تغطي فترة تزيد على مائة سنة من آخر القرن التاسع ق . م . إلى القرن الثامن ق . م . – وطال الجدل بين العلماء حول ما يمكن ،ان نعزوه إلى مدارس فينيقية وما يمكن نسبته إلى مدارس سورية (أي ما يعرف حالياً بأنه آرامي وليس كنعانياً) أو ربما مدارس أشورية .

والبعض يميز بين مجموعتين رئيسيتين : مدرسة فينيقية وأخرى سورية ، والأولى تبين خليطاً قوياً من المظاهر المصرية والآسيوية في أسلوب فينيقي نموذجي ومنها مثلاً لوح وجد في « ارسلان تاس » تمثل عليه « امرأة في النافذة » تتعبد للإلهة « استارتة » وموضوع اللوح كنعاني في جملته ولكن المرأة ترتدي شعراً مستعاراً مصرياً (شكل ٨) وهناك لوح آخر من « ارسلان تاش » أيضاً طرازه أكثر مصرية إذ يبين امرأة في زي ومظاهر أساسها ما تميزت به الإلهة المصرية ايزيس مجنحة وتمسك زهور اللوتس (شكل ٩) ولكنها تواجه شجرة حياة آسيوية ولا يمكن أن يوجد مثال أحسن منه يوضح المؤثرات المصرية .

ومن صيدا وجد إناء من العظام في هيئة امرأة مجوفة الجسم وتلبس رداء ذو أكمام طويلة وتبدو ملامحها آسيوية أكثر منها مصرية وإن كانت تضع شعراً

---

(١) قرية كردية كبيرة على بعد ١٥٩ كم من حلب في الطريق إلى الموصل جنوب شرقي قرقميش .



شكل (٨) عن Harden, op.cit., pl.61



70

شكل (٩) عن Harden, op.cit., pl.70

مستعاراً مصرياً ومن بيروت وجد تمثال صغير من العاج كان جزءاً من إناء للدهون وهو يمثل امرأة تلبس رداء طويلاً بحزام وصدرها عاري في الطراز الآسيوي المألوف .

ومن هذه يتضح أن الفنان الفينيقي (والواقع أن الفنان السوري أيضاً إذا لم يكن فينيقيا ينتج في طراز سوري) كان يتمتع بالتحكم جيداً في المادة وبالإحساس التام بالإنشاء حيث استطاع أن ينفذ منظراً معقداً في فراغ صغير محدود دون أن يبدو فيه اكتظاظ أو حشر، وتشكيله للتماثيل جيد أيضاً وخاصة إذا اعتبرنا عدم طواعية العاج - ومن العسير أن نقرر بأن تصميماته التي تبدو دينية لم يقصد بها إلا أن تكون زخرفية فحسب وليس لها قصد ديني ، ولا ينطبق ذلك على العاجيات فقط بل ينطبق أيضاً على الفنون الفينيقية الأخرى بما في ذلك فن الطرق أو صناعة الاقداح المعدنية ، وهي مثل العاجيات تكاد توجد في كل مكان فيما عدا فينيقيا ، فهي تأتي من أماكن في اشور ومن قبرص (بكميات وافية) ومن اليونان ومن اترووريا - بل وكثير منها مصري في مظهره أكثر من العاجيات والبقية ليفانتينية أوحتى أشورية أكثر في مظهرها ولو أنه لا توجد واحدة منها تخلو من مسحة مصرية - وقد أدى عدم العثور عليها في فينيقيا إلى اعتقاد البعض بأنها يمكن أن تكون قبرصية ولكن يبدو أن الطرز المصرية الأشورية الخليطة في زخارفها تدل على موطنها الأصلي الرئيسي لأنه إذا كانت هذه قبرصية فإنها تكون أقل تأثراً بالمؤثرات المصرية وأكثر تأثراً بالطرز اليونانية الهندسية الشبيهة بالميكينية .

وتبين قطعة من إناء فضي « أماتوس » خليطاً تاماً في الطرز ، ففي الإطار الخارجي رماة سهام اشوريون وجنود يونانيون يهاجمون مدينة على اليمين بينما ترتقي جنود ملامحهم مصرية الأسوار على اليسار ومصريون آخرون يقطعون أشجار إيجية ذوات محورين وفي الإطار الثاني نجد الهة مصرية وجعرانا مجنحاً موضوعة على قواعد أومذابح في صورة مصرية ، وبالقرب من ذلك فينيقيان (أو آسيويان على الأقل) يمسكان بعلامة الحياة (عنخ) المصرية على جانبي زخرف فينيقي من ساق النخيل في طراز نموذجي .

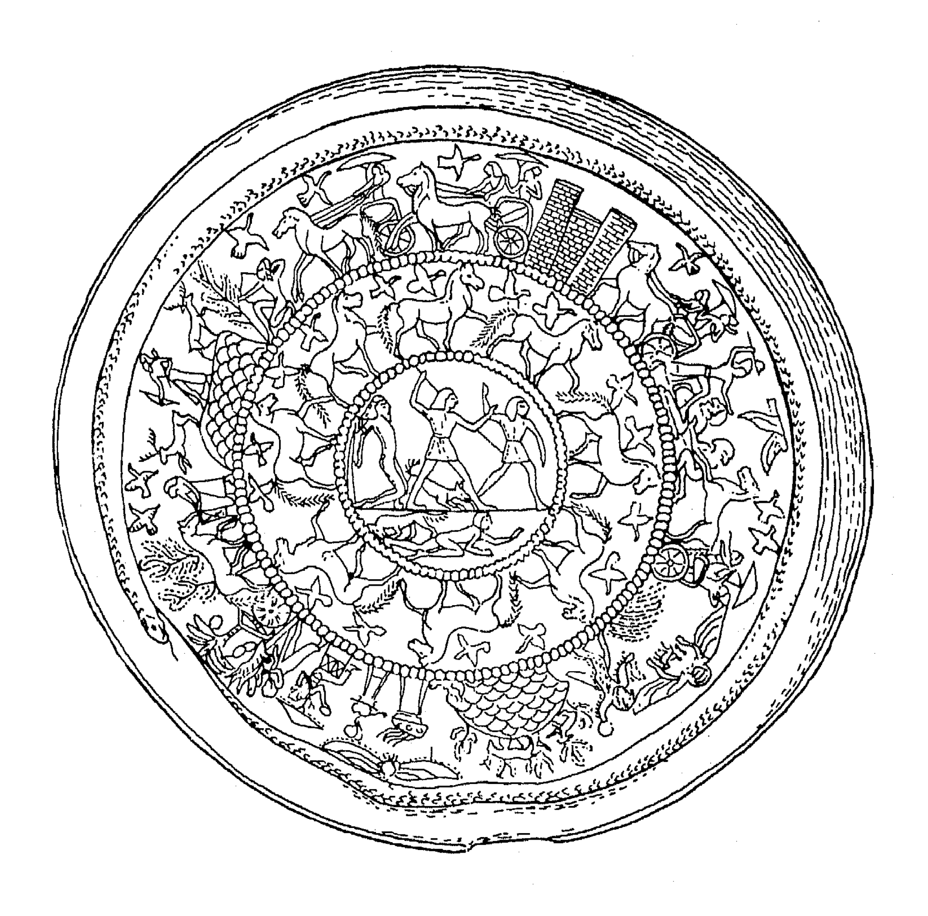
وفي « براينيست » بايطاليا عثر في قبر « برنار ديني » الذي يعود إلى أواخر

القرن السابع ق . م . على انائين مختلفين تماماً - فأحدهما فضي يكاد يكون مصري الطراز تماماً ويتوسطه رسم يمثل فرعوناً يقتل اعداءه وحوله أربعة قوارب من البردي تحمل آلهة أوجعارين مجنحة إلا ان رسماً لأسد مظهره آسيوي تحت الفرعون ، وفي الحاشية رجل سوري (ليفانتيني) جاثم ذو لحية - ويوجد نقش طويل يشبه الكتابة الهيروغليفية غير انه لا معنى له ولكن يوجد نص فينيقي أيضاً (أضيف فيما بعد) يعطينا اسم صاحبه وهو « اشمونازار » بن « استو » وهذا هو أكثر هذه الأواني كلها مصرية في مظهره وإن كان بالتأكيد غير مصري الصنع (شكل ١٠) - أما الثاني الفضي المموه بالذهب



شكل (١٠) عن **Moscati, op.cit., p.74**

فهو في أساسه آسيوي في هيئته فإطار الرسم الخارجي به يحوي عربات حربية ورماة سهام وبناء اشوري المظهر جداً ، له أبراج ولكن يوجد كذلك جعران مجنح - والإطار الداخلي به ثمانية خيول تشب وبعض الطيور - أما في الوسط فيوجد خليط من الأشخاص من طراز مصري وآسيوي والمظهر الخاص الغريب في هذا الاناء هو ذلك الثعبان الذي يحيط الرسم بأكمله (شكل ١١) واستناداً إلى أن الانائين وجدا معاً يفترض معه أنهما تقريباً متعاصرين مما يجعلنا



شكل (١١) عن **Harden, op.cit., p.190**

نعجب لأن مثل هذه الرسوم المختلفة أمكن أن تخرجها مصانع فينيقية في وقت واحد - ويمكن أن نلاحظ خليطا آسيوياً مصرياً مماثلاً على الأناء الفضي المموه بالذهب الشهير الذي من « إيداليون » في قبرص ، ففي الافريز الداخلي نرى مناظر قتال - آدميين مع أسود وحيوانات (خرافية) مجنحة وأشكال أبو الهول - أما الدائرة الوسطى فهي تشبه الدائرة الوسطى في اناء براينستي حيث أن بها منظر فرعون يقضي على أعدائه (شكل ١٢) .

ويبدو تذوق الفنان الفينيقي بوضوح في تأليف المناظر وخاصة حينما يعالج إطاراً دائرياً وهو ما نلمسه في كل الأواني ، فمع أن مناظرها بها الكثير من التفاصيل إلا أنها تتناسق في سهولة ودون تزاحم ولذا لا نعجب لما ذكره هومر عن شهرة الفنانين الصيدويين .



شكل (١٢) عن **Moscati, op.cit., p.72**

وقد أنتج هذا الوطن الأصلي في هذه الفترة أقداح معدنية في هيئة تماثيل أكثر من الطرز السابقة ، والأسلوب العام يذكرنا بأواني العاج التي عثر عليها في صيدا (وفي بيروت) التي سبق أن أشرنا اليها -[1] هذا وقد عثر على تمثال آخر صغير من البرونز وهو يمثل أنثى تلبس نقبة ثلاثية الثنايا تصل الى الركبة ويحتمل أنه من أصل إيجي ، وكل هذه التماثيل ممثلة في الوضع الأمامي الجامد ولا يمكن الادعاء بأنها عمل فني حقيقي .

وتماثيل الذكور الصغيرة التي من تلك الفترة يصعب تمييزها عن بشائر هذه التماثيل التي ترجع إلى أواخر الالف الثالث فهي خشنة سيئة التشكيل ، وربما كان انتاجها على نطاق واسع لاهدائها إلى أحد الهياكل ومن هذه مثلا تمثال لشخص يرتدي غطاء رأس مخروطي ويقبض بيديه على طبق غير عميق Patera ويجلس على عرش على جانبيه اسود بوجوه آدمية .

أما في مجال نحت الاحجار فإنه يذكرنا بالأساليب الفنية التي اتبعت في العاج ، ومن ذلك لوحة من القرن التاسع ق. م. من « ماراتوس (عمريت جنوب طرطوس) » ارتفاعها ١,٧ مترا عليها نقش يمثل قرصا مجنحا مصري الهيئة وقرصا فينيقيا وهلالا فوق الإله « بعل » في زي مصري وتاجا وثعبانا، ومع ذلك يقبض على أحد الأشبال ويقف فوق أسد يقف بدوره على ما يرمز الى الجبل أو العاصفة (شكل ٤)[2] وكلها اتجاهات يمكن بسهولة مناظرتها في الفن الأشوري .

ويوجد نقش جميل في المرمر من أرواد يشبه كذلك العاجيات في كثير من التفاصيل ، ويحتمل أنه من نفس العصر تقريبا ، فعليه منظر لسجادة مزخرفة بأشكال في هيئة نخيل فينيقية مشذبة بين حواف منقوشة ، (وهذه السجادة) تعلو شكلاً جاثمًا لأبو الهول وهو مجنح ويلبس التاج المزدوج - وفي أسفل

---

(١) انظر ما سبق ص١٥٦، ١٥٨.
(٢) انظر أعلاه ص١٤١.

اللوحة مذبح منخفض أو منضدة (شكل ١٣) - وهناك نقش مهشم يحتمل انه من نفس الأثر عليه منظر سجادة مشابهة في زخرفها ولكنها هنا تعلو زوجا من الحيوانات الخرافية المجنحة مثل ما نقش على قطعة عثر عليها في مالطة ، وليس من بين هذه الأمثلة ما يرجع إلى وقت متأخر عن القرن السابع ق.م.



شكل (١٣) عن **Harden, op.cit., p.192**

وترجع التوابيت الحجرية التي في هيئة آدمية من صيدا ومن الغرب الى القرنين الخامس والرابع ق. م. فهي أحدث من كل ما ناقشنا سابقا وهي غالبا مؤنثة ويظهر في القليل منها تأثير مصري ملحوظ في شكل وزينة رؤسها ، وإن كان الفنانون سرعان ما تحولوا الى الاسلوب الجديد من تصوير ملامح وزينة رأس يونانية ، ونادرا ما مثلوا من الشخص أكثر من رأسه وبقية الجسم مستدق في هيئة مومياء وينتهي بعارضة مفرطحة تمثل القدمين ، وبعض أمثلة من الغرب تظهر الهيئة الآدمية والزي بصورة أكثر وضوحا .

وتوضح هذه التوابيت كيف كان الفن اليوناني يغزو الوطن الفينيقي في

هذا الوقت - ففي نفس مقبرة «تابنيت» ملك صيدا التي حوت تابوتا مصريا وجدت دفنات متأخرة في توابيت مظهرها يوناني بأكمله وتؤرخ بالفترة ما بين أواخر القرن الخامس وأوائل القرن الرابع ق. م. ، وأقدمها المعروف باسم تابوت «الستراب» (الوالي) مصنوع من رخام باري وله غطاء سنامي (منحني) مزخرف «بقواعد عليا» Acroteria وعلى أحد جانبيه الطوليين يمثل رجل جالس وخدم وحصان وعجلة حربية وعلى الجانب الآخر يمثل صيد فهد ، والجوانب القصيرة عليها أربعة شبان يتحدثون ومنظر حقل - وآخرها تابوت الاسكندر المصنوع من رخام بينتل Pentelic marble (من أتيكا باليونان) وعلى أحد جوانبه معركة اليونان والفرس وفي وسط المعمعة يرى الاسكندر بلباس راس من جلد الأسد - ولا يوجد شيىء فينيقي في طرازه - فمن هذه التوابيت نلمس اقتراب فناء الفن الفينيقي والثقافة الفينيقية التي ظلت قائمة أكثر من خمسمائة عام .

ولقد جاءت النهاية سريعة حقا ، ومع ذلك توجد بعض الآثار من طراز فينيقي حقيقي يحتمل أنها كانت معاصرة تقريبا لهذه التوابيت - وربما يكون أجملها لوحة «بعلياتون» ، من «أم العمد» التذكارية الموجودة حاليا في «كوبنهاجن» وهي تصور «بعلياتون» نفسه (الذي يحتمل أنه كان رجل دين) ووجهه واضح الملامح ويلبس رداء سابغا وغطاء راس قصير مستدير - وفي أعلى اللوحة قرص مجنح وثعابين (شكل ١٤) ، وهذه اللوحة تعد أحسن من اللوحات العديدة المماثلة التي من صور أو من «أم العمد» جنوب صور وهي جميعاً من تاريخ متقارب ربما كان القرن الرابع ق.م. او متأخر عن ذلك قليلاً وفن تصويرها يبدو فيه التأثير اليوناني - والقطعة الأخرى المعاصرة هي لوحة يبهاوملك Yehauomilk من بيبلوس تبين رجلاً ملتحياً في رداء طويل بعباءة وغطاء رأس مستدير منخفض ويمسك بطبق مسطح أو قليل الغور Patera[1] نحو الإلهة حتحور جالسة ولها غطاء راس ذو قرون ، ولباس الرجل فارسي المظهر ولكن من الواضح أنه فينيقي لأنه يشبه بعض أشكال أشخاص كهنوتية فينيقية شرقية من تاريخ أقدم (وكذلك بعض أمثلة غربية) ، ومثل هذه القطع تلتها أمثلة

(١) طبق مسطح من الفخار أو الفضة لصب سوائل القرابين .



شكل (١٤) عن Harden, op.cit., pl.43, p.137

قليلة مماثلة ولكن غزو الاسكندر قضى على الفن الفينيقي في هذه الأرجاء تماما .

الفن الفينيقي في قبـرص :

يبدو أن الفن القبرصي قد تطور تدريجيا أثناء الجزء الأول من الألف الأول إلى طراز لا شك في أنه ينحدر جزئيا من الفن الميكيني ومتأثر جزئيا بمؤثرات من فينيقيا وسوريا ومن اليونان نفسها ، أما الاتجاهات والطرز المصرية التي يمكن رؤيتها في الأشياء القبرصية فليس من الضروري أن تدل على احتكاكات مباشرة بمنتجات الفنانين المصريين إذ يمكن أن تصل عن طريق فن ليفانت (سوريا) كما حدث بالنسبة للمؤثرات الأشورية دون شك - وفي أثناء القرن الثامن ق. م. وصلت مؤثرات إيجية جديدة زادت في قوة العناصر الايجية في الفن القبرصي وأدت إلى ما عرف باسم الطرز الفنيقية المتأغرقة من القرن السابع ق. م. وما بعده ، ومع أن فن قبرص يمكن أن يكون قد نشأ وتطور محليا ، أي أنه لم يكن في جوهره يونانيا ولا فينيقيا فإن عناصره الفينيقية والهيللينية تعد ثانوية جاءت فيما بعد - وعلى ذلك فإن صعوبات كثيرة تواجهنا عن الفن القبرصي فبعض الأشياء مثل تيجان الأعمدة الأيولية الاولى والأشياء الممثلة عليها سعيفات النخل ، وبعض طرز من المصوغات وتماثيل نذرية صغيرة يمكن تحديد أنها فينيقية في حين أن الأواني المعدنية المزينة وبعض التمائم والجعارين والدلايات العادية المتفرقة كلها تدل هنا وفي أماكن أخرى على أنها جاءت عن طريق التجارة الفينيقية - ومما يلفت النظر أنه بالرغم من أن بعض الفخار القديم يشبه في هيئته وصقله فخارا من فينيقيا وفلسطين ومن مواقع غربية فإن معظم الفخار القبرصي من ذلك الوقت يبين خصائص محلية تبدو فيها المؤثرات القبرصية الميكينية ، ولا بد أنها نمت محليا دون تسرب رئيسي للمؤثرات الفينيقية .

* * *

والخلاصة أن الفن القبرصي وإن بدت فيه بعض مؤثرات فينيقية فمن النادر وجود أشياء قبرصية يمكن اعتبارها عن حق فينيقية .

وتتجلى المؤثرات الفينيقية - أو الآسيوية القريبة - في قبرص في قائم إناء نحاسي أو برونزي ربما كان محرق للبخور من نوع ينسب عادة الى الأعوام الأخيرة من الألف الثاني ق. م. وكل من جوانبه الأربعة يمثل إطارا مفرغا مثلت فيه أشكال مختلفة ، ويمكن أن تكون هذه القطعة قد صنعت في قبرص ولكنها ارتبطت فنيا بشمال سوريا لا بفينيقيا .

ويمكننا أن نميز عناصر فينيقية عرضا في منحوتات وتماثيل فخارية صغيرة قبرصية من أوائل عصر الحديد- وأمتع تمثال صغير من الحجر الجيري هو لسيدة مظهرها حديث بصورة غير عادية فليس هناك شك في ارتباطه بالساحل الآسيوي ويقف التمثال على قاعدة مربعة تحتها أربعة رؤوس تماثيل أخرى ويحتمل أن ذلك كله كان يد وعاء حجري كبير ، وشعر التمثال معصوب من الأمام تجعله يسقط على الكتفين في ضفائر وخلف الرأس في كمية كثيفة (ويمكن مقارنته بتمثال البرونز الصغير المشار اليه فيما سبق ص ١٦٢) والتمثال يلبس رداء سابغا فوقه عباءة ثقيلة ويقبض على نهايتها باليد اليسرى ويلبس عقودا وأساور وصندلا ،ولا يبدوفيه تأثيرميكيني أومصري(شكل١٥) والغالب أنه مستوحى من الساحل السوري ولو أن مادته (الحجر الجيري) يدل على صناعة محلية .

وهناك أيضا تماثيل رجال تبين تأثير الوطن الفينيقي ، فالبعض يلبس رداء بسيطا قصير الأكمام من طراز كهنوتي وهو فينيقي نموذجي ويلبس غطاء الرأس المدبب الشائع في كثير من التماثيل الصغيرة البرونزية التي من أواخر الألف الثاني ق. م. وما بعده من فينيقيا وسوريا - وطراز رجل الجليد من تماثيل الفخار الصغيرة التي وجدت بالمئات في مقاصير هياكل «كيتيون Kition» في قبرص وغيرها يمكن مقارنتها بما عثر عليه في « المينا Almina» بتركيا وما بعدها جنوبا . فالجسم المجوف ذو القاعدة الدائرية نموذجي والوجوه



شكل (١٥) عن **Harden, op.cit., pl.170**

والرؤوس تصور أحيانا في طراز ليفانتيني وأحيانا اخرى تصور خشنة في أسلوب طفولي - وقد وجدت رؤوس فخارية كبيرة من طراز طفولي مماثل تذكرنا بقطع مبكرة من « قرطاجة » و« إيبيزا » .

وتنم التفصيلات المعمارية عن مظاهر ليفانتينية كثيرة، وأجدرها بالملاحظة وأوضحها تيجان الأعمدة اللولبية التي يطلق على طرازها «الايولي المبكر - ProtoAeolic» وقد استخدمت كعنصر زخرفي خالص في اللوحات وكذلك كأعمدة معمارية ودعامات - واللوالب كانت تصحبها أحيانا عناصر فينيقية أخرى مثل سعف النخيل المجعد وأشكال أبو الهول مثل ما على لوحة من « جوبجوي - Golgoi » (أثينيو - Athienio في قبرص) (شكل ١٦) وسعف النخيل المجعد ونبات اللوتس كما في لوحة أخرى من نفس الموقع - وقد وجدت أمثلة لها في شمال



شكل (١٦) عن Harden, op.cit., pl.45

أفريقيا بل وفي أسبانيا وهي لا شك منقولة في تاريخ متأخر - وهناك طراز آخر من تاج العمود القبرصي مصري الأصل لأنه مؤسس على اللوتس ونراه على المقصورة الفخارية الصغيرة من « إيداليون - Idalion » وهي في اللوفر الآن التي نتسب عادة الى القرن السابع ق. م. أو ما حوله ، والأعمدة خشنة الصنع ولكن نبات اللوتس فيها لا يمكن أن نخطئه .

والخلاصة أنه لا يجب أن نبحث عن طرز الفن الفينيقي في قبرص حيث وجدت مؤثرات أخرى حالت دون وجود فن فينيقي خالص .

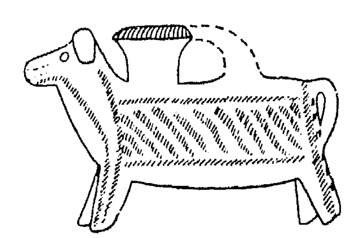
الفن الفينيقي في الغرب :

كانت المؤثرات الشرقية في الفن الفينيقي الغربي سائدة قبل القرن الخامس ق . م . ثم حلت فيه بعد ذلك مؤثرات أخرى وخاصة الهيللينية .

ويعني « الفن الفينيقي الغربي » ، بالطبع ، الفن القرطاجي لأن سيادة قرطاجة السياسية أدت بها إلى السيادة الفنية أيضاً - ولا يختلف الأمر سواء كانت المستعمرات الأخرى من تأسيسها أوكانت مستوطنات مستقلة ثم دخلت تحت سيطرتها حيث يمكن أن نترسم المؤثرات القرطاجية ، أي البونية ، في كل مكان حتى في الأشياء التي يبدو بوضوح أنها من إنتاج محلي وليست واردة من قرطاجة .

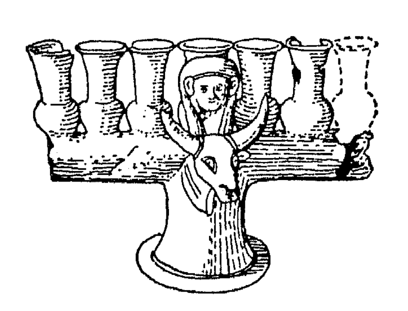
فإذا ما بدأنا بالاشياء الشائعة مثل الفخاريات نجد أن هذه كانت على الأرجح صناعات محلية وليست مستوردة من أماكن بعيدة ، ولو أن بعضها منقول ، وعلينا أن نميز البونية الحقيقية من تلك التي تدخل في نطاق طرز البحر المتوسط من الخليط اليوناني الآسيوي وترجع الى أوائل الالف الأول ق . م . ففي أقدم طبقة في «تانيت» (Tanit) بقرطاجة وجد عرضاً تمثال فخار صغير كان موضوعاً بجوار وعاء لحفظ رماد الموتى وقارورة من فخار في هيئة بقرة والجسم ملون بخطوط حمراء (شكل ١٧) وجدت فوق قارورة (Amphora) ذات عروتين من فخار مماثل - ومثل هذه التماثيل الصغيرة

للحيوان فينيقية نموذجية وجدت في كثير من المواقع في الشرق وفي الغرب وطرازها مشتق من الطرز الميكينية المبكرة، ويمكن أن نقارنها بالمثال المستورد (ربما كان من قبرص) الذي وجد في وديعة أقدم هيكل عثر عليه في «سنتاس» (Cintas) بتونس، كما وجدت في نفس الطبقة تماثيل صغيرة بدائية خشنة الصنع (من طراز وجد أيضاً في القبور المبكرة في «إيبيزا» (Ebiza) لها ما يماثلها تماماً في قبرص - فمثل هذه الأشياء لا بد أنها صنعت محلياً.



شكل (١٧) عن Harden, op.cit., p.97

وتوجد تماثيل صغيرة أخرى من تاريخ متأخر (يحتمل أنها من أواخر القرن السابع أوأوائل السادس ق. م.) التي ربما كانت محلية الصنع ولكن يظهر فيها تأثير أجنبي كبير - وهناك إناء غريب خاص للقرابين متعدد الأوعية به سبعة أوعية منفصلة كل منها في هيئة زهرة السوسن (شكل ١٨) مثل الذي



شكل (١٨) عن Harden, op.cit., p.198

وجد في الطبقة السفلى في « تانيت » (Tanit) وفي المقابر البونية المعاصرة ، وله فضلاً عن ذلك رأس حتحورية فوق، رأس بقرة طويلة القرنين - فالفن وإن كان خليطاً الا أن أساسه « بوني » ، ومن جهة أخرى فإن تماثيل صغيرة لمعبودات جالسة وواقفة من القرن السادس ق . م . مظهرها يوناني أو مصري الى درجة أنها لا يمكن أن تكون محلية الصنع لأنه يوجد ما يدل على أن الفنانين اليونان والمصريين عملوا في قرطاجة في هذا التاريخ المبكر .

ومع التماثيل الصغيرة يمكن أن نناقش الأقنعة التي كثيراً ما وجدت في قرطاجة وفي سردينيا « وايبيزا » ولكنها لم توجد في صقلية أو أسبانيا لسبب غير واضح - فهذه يوجد منها نوعان رئيسيان: الوجه العادي الطبيعي والوجه المتجهم - والنوع الأول مؤسس على الطرز المبكرة المصرية أو اليونانية وتمثل إناث مبتسمات وأحياناً تضاف اليها حلى ومثلها واحد من « درمك »(Dermech) [1]في قرطاجة ما زال يحتفظ بحلقة الأنف وكانت له فيما سبق حلى في الاذنين أيضاً - أما (الأقنعة) الأخرى التي تشبه (بأكملها) الأقنعة التنكرية فلها ثقوب واسعة للعيون وكذلك للفم ولها وجوه مشوهة عادة ، أشبه بأقنعة القبائل الافريقية منها بأي شيء مألوف في آثار البحر المتوسط وخاصة لأن بها وشم غالياً (شكل ١٩) - ومنذ عهد قريب وجدت أقنعة مشابهة بتجاويف للعيون ولكنها ليست في مثل ذلك التشويه في الملامح وهذه الاقنعة الغريبة كانت لها على الأقل أصول شرقية بعيدة ويمكن اعتبارها فينيقية تماماً .

وهناك طراز ثالث يبدو « بونياً » بأكلمه وليس له نظائر في الشرق يمثله قناع « دويمس » (Douimes) الشهير في قرطاجة الذي يمثل رجلاً في أنفه حلقة وليس به تجهم والعيون والملامح الأخرى جيدة النحت (شكل ٢٠) .

وتسود طرز القرن الخامس ق . م . والطراز اليوناني تماثيل قرطاجة الصغيرة ، وكثير منها لا يمكن تمييزه عن النماذج المعاصرة في الجزء اليوناني من

---

(١) جنوب قرطاجة .





شكل (١٩) عن Moscati, op.cit,n pls. 72 & 74



شكل (٢٠) عن Harden, op.cit., p.199

صقلية وأماكن أخرى – ولكن البعض ، إن لم يكن الكل ، صنع في قرطاجة بواسطة مهاجرين يونان ، وهي تمثل معبودات من الجنسين – منها مثلاً رأس معبود ، ربما كان بعل حمون ، له غطاء رأس عالي مثل قلنسوة فارسية أو رؤوس «ديمتر Demeter» (وهي إلهة عبدت في قرطاجة) في شكل مباخر كالتي وجدت في كميات عظيمة في موقع معبد في «سانت مونيك» (وإن كان هذا في طرازه بوني أكثر منه يوناني) ومنها تمثال نذري لرجل يقف بصلابة الى الأمام وذراعه اليمنى ممتدة – وعلى طول ساحل أفريقيا الشمالي وجدت تماثيل صغيرة من هذا الطراز المتأغرق وجدت في المقابر البونية .

وإذا عبرنا الى «إيبيزا» وأسبانيا نجد ، من جهة ، عدداً من التماثيل الصغيرة يونانية في أكملها أو في أساسها ، ومثل تلك جاءت من مدن يونانية في شمال شرق أسبانيا أو صنعت محلياً بواسطة فنانين يونانيين – ومن جهة أخرى نجد تماثيل ليست يونانية الطراز بأي حال ، فهي بالأحرى خليط من الطرازين الفينيقي والايبري ، وهي إما عارية أو تلبس ملابس مزخرفة بسخاء ، وغالباً ما كانت تلبس أغطية رأس براقة وحلى لا تختلف عما ترتديه «سيدة الشى» (Lady of Elche) التي أصبح من المتفق عليه أنها ايبيرية (شكل ٢١) – وفي إيبيزا عثر على اكتشاف ذو أهمية خاصة وهو وديعة (أساس) تؤلف من تماثيل نصفية لمعبودة عرفها الأثريون الاسبان على أنها «تانيت» وقد وجدت في موقع معبد يبدو أنه أستمر من القرن الخامس ق . م . الى عصور الرومان – وهذه التماثيل ليست بونية في صفاتها فحسب بل في الملامح أيضاً .

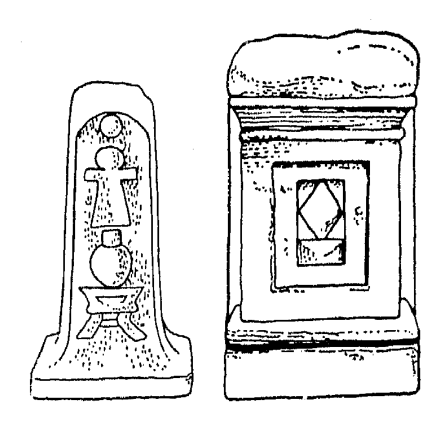
ولم توجد منحوتات حجرية كبيرة في الطبقات الأقدم في قرطاجة ، ومع ذلك فقد عثر في الطبقة الثانية من معبد «هادروميتم Hadrumetum» (تونس) (بين القرن الخامس وأوائل القرن الثالث ق . م .) على لوحة غير كاملة من الحجر الجنيري تبين الاله «بعل» على عرش على جانبيه منحوتين بهيئة أبو الهول وأمامه متعبد ، ويرتدي «بعل» غطاء رأس مخروطي وله لحية ويلبس المتعبد رداء سامياً نموذجياً طويلاً – والمنظر في تركيبه شبيه بطراز العاجيات الفينيقية .



شكل (٢١) عن Moscati, op.cit., pl.78

وأقدم اللوحات « البونية » في هياكل قرطاجة ، « نورا » (Nora) (بسردينيا) ، « موتيا » (Motya) (بصقلية) لا يمكن أن تكون أقدم من القرن السادس ق . م . - فأشكالها الفجة ورسومها البدائية لا يمكن أن تمثل أي تقليد فني خاص ، ولكنها هامة حيث تبدو أنها تنحدر مباشرة من اللوحات التي وجدت في المعابد الشرقية الأقدم عهداً بكثير .

أما خليفاتها وهي لوحات طراز المذبح فهي ذات قوالب مصرية ولها قمم مدرجة وأحياناً بها شكل قرص أو شكل ديناري (أي المعين) أو شكل رجل غير متقن في ناووس ، فقد نحتها دون شك عمال نحت أحجار البناء لا مثالين ، ولكنها على الأقل في شكل لا بأس به وبها بعض اتجاهات فنية ضئيلة (شكل ٢٢) ، وقد دام عملها من القرن الخامس الى القرن الرابع ق . م . وبعضها يرجع بالتأكيد الى ما بعد القرن الرابع ق.م. وهي في فن يوناني حقيقي ونحتها يونانيون ، ومن بينها اللوحة الجميلة في تورين التي كرسها القاضي « ملكياتون » (Milkyaton) للإلهة « برسيفون » (Persephone) وهي إلهة صقلية - وقد وجدت طرز مشابهة في إتقانها ، ولكنها أقدم قليلاً وطرازها فينيقي/ مصري ، في سردينيا مثل المثال الجميل عن « سولكس » (Sulcis) (بسردينيا) ويبين أمرأة في ناووس إيولي تحت قرص مجنح ومجموعة



شكل (٢٢) عن Harden, op.cit, p.98

من « ثعابين » (Urae) ، ويوجد القليل من الطراز اليوناني أيضاً في « سولكس » (Sulcis) .

أما السلسة المتعددة من اللوحات المنحوتة في الحجر الجيري الصلب فتبدأ حوالي ٣٠٠ ق . م . وهذه وجدت بالآلاف في قرطاجة ، ولكن ليس مثل لوحات المذابح التي وجدت عادة في مواقع خارج شمال أفريقيا وهي أحياناً ذات إتجاهات فنية واضحة - أما التي من منطقة « درمك » (Dermech) فهي خشنة النحت وأحياناً تغطى بملاط ، ولكنها تحتفظ بقليل من الروح الفنية التي ربما كانت وقتاً ما موجودة على غطائها الملاطي في رسومها التي تصور الحياة القرطاجية - وكثير من اللوحات في نطاق « تانيت »(Tanit) صنعت من حجر دقيق الحبيبات جداً وليست من الملاط وهي تبين غالباً مناظر منحوتة (منقوشة) يمكن مقارنتها بمناظر الأمواس النحاسية المعاصرة لها (شكل ٢٣) - ولا شك في أنها من انتاج فنانين يونان أو فنانين دربهم اليونان .

وقد وجدت اللوحات الجيرية أيضاً في مقابر قرطاجية - وقد عثر في « سانت مونيك » على عدد منها يظهر عليها أشخاص متعبدين في نواويس رباعية بسيطة أو في أعمدة في طراز يوناني أو شكل يوناني/فينيقي - وهذه قد نحتت طبقاً لنماذج تنعدم فيها الفردية ، ومع أنها تخلو من الكتابة حالياً إلا أنها ربما كانت في وقت ما تحوي نقوشاً ملونة تدل على أصحابها - ويختلف عن ذلك تمثال أكثر أهمية على قاعدة طويلة خشنة النحت يبدو أنه كان قائمًا فوق قبر ، وتعود أهميته الى طرازه اليوناني/البوني - فرداء المرأة لم يكن يونانياً بالتأكيد ولا بد أنه كان رداءاً محلياً لأن العناية بإخراجة تجلت في تحديد خطوط الشعر منفردة في تسريحة الرأس ، والأكثر أهمية من ذلك أن مشابهته الدقيقة لتماثيل ودائع الطقوس في قبرص تبين أن صلة الطراز بين الفن الفينيقي الشرقي والفن الفينيقي الغربي لم تنقطع حتى في القرن الثالث ق . م .

وتتضح نفس الظاهرة في التوابيت التي في هيئة آدمية من « سوليوس » (Soloeis) (في صقلية وقادس باسبانيا) - وليس المحتمل أن تكون هذه قد

جلبت من الشرق ولكنها تشبه تماماً قريناتها الشرقية ، ولو أنها عادة تبين قدراً أكبر من الشكل الآدمي ، وهكذا فإن مثالاً من « سوليوس Soloeis» يبين سيدة تلبس زياً « دورياً » (Doric) وتمسك إناء دهان (عطري) بينها تميز الشكل الذي على تابوت « قادس » بتمثيل الزراعين والقدمين .

ولم يوجد في قرطاجة تابوت في هيئة آدمية ، ولكن بدلاً من ذلك لدينا في قرطاجة شمال (درمك Dermech) التوابيت الشهيرة من جبانة (سانت مونيك St. Monique)، وهي ترجع الى سنة ٣٠٠ق.م. وقد نقشت أغطيتها بنقوش بارزة تمثل الأشكال الآدمية .

وأجمل ثلاث توابيت منها تمثل كاهنة وكاهنين أحدهما وجد في نفس المقبرة التي وجدت بها الكاهنة ، واحتفظت صورة الكاهنة بكثير من ألوانها الأصلية عند اكتشافها وهي تلبس زياً يونانياً مغطى من الوسط إلى أسفل بأجنحة طائر (يحتمل أنه النسر ، محاكاة لأشكال إيزيس ونفتيس المصريتين) ولكن تحمل في يدها اليمنى حمامة وهو مظهر تبدو فيه صلتها بأفروديت أو (ديميتر Demeter) (برسفون Persephone) وهي إلهة من قرطاجة غطاء رأسها يعلوه رأس صقر وينتهي بشرابات على الكتفين بمخالب الطير ، ومهما كان تفكيرنا عن السجايا والمميزات الأخرى فإن وجه السيدة يوناني خالص وتابوتي الكاهنين متجانسين تماماً فيما عدا أن أحدهما ليس له غطاء رأس ويرتدي الآخر عصابة أو شال (Stole) قصير كجزء من الزي الكهنوتي البوني ، وكليهما ملتح ومظهرهما يوناني في ملامحهما ومعطفيهما اللذين لا أكمام لهما - والتابوت الرابع من هذه السلسلة يمثل سيدة ، ليست كاهنة ، تلبس ملحفة ذات ثنية للرأس تبدو بكثرة على التماثيل العادية والتماثيل الصغيرة الهللينية ، ومن نفس الجبانة تسعة توابيت تبدو بلا زخرف تقريباً ولكنها كانت في وقت ما مزينة تماماً وكل الثلاثة عشر تابوتاً في هيئة المعابد اليونانية ذات الحلية التي في قمتها ، وهي كمجموعة لا بد وأنها كانت من صنع يونانيين عاشوا في قرطاجة وجعلوا ثقافتها الفنية متأغرقة ، كما أن يونانيين آخرين غيروا ثقافة الإتروسكيين الفنية تماماً .

ومعظم الأشياء الفنية التي من البرونز ووجدت في فينيقيا من صناعة أجنبية ، ومما يلفت النظر أن قرطاجة والمواقع الغربية الأخرى فيما يبدو لم تنتج تماثيل برونزية صغيرة في الطراز الفينيقي الشرقي .

ولا شك في أن الأمواس البرونزية التي عثر عليها في قرطاجة وسردينيا وايبيزا أكثر (بونية) من أي انتاج آخر في الفن الفينيقي الغربي ، ومع أن بعضها وجد في مقابر من القرن السادس ق.م. وما قبله إلَّا أن الغالبية العظمى منها جاءت من مقابر القرن الرابع ق.م. أو ما بعده في (سانت مونيك) وأماكن أخرى .

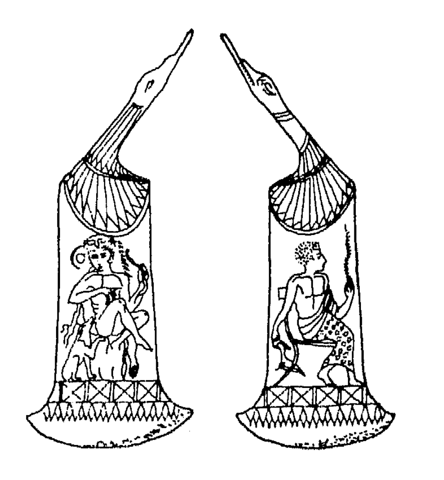
وأقدم الأمواس ليست بها زخارف إلَّا في حالات قليلة وهي لا تخرج عن رسوم منقطة بسيطة ، أما الأمواس الأحدث فهي غالباً مزينة بنقوش تمثل أشكال ومعبودات أو رموز مقدسة بعضها مصري وبعضها (بوني) والبعض مزيج من هذين، والطرز اليونانية أندر - وأحياناً نجد طرازاً يونانياً على أحد الوجهين وطرازاً مصرياً أو مصرياً/بونياً على الوجه الآخر ، وهي مثل كل الطرز مهما كان أصلها تبدو دينية في مضمونها فهي تمدنا بأحسن الأمثلة للطرز والرموز المقدسة التي سادت في قرطاجة، وتدل غلبة الطابع المصري فيها وخاصة فيما يتصل بإيزيس/حورس على أنه بالرغم من المؤثرات الهللينية التي سادت في قرطاجة وبالرغم من تغلغل العبادات اليونانية فإن الأشكال الدينية البونية ظلت مرتبطة بالمصرية إلى حد ما (شكل ٢٣)[١]

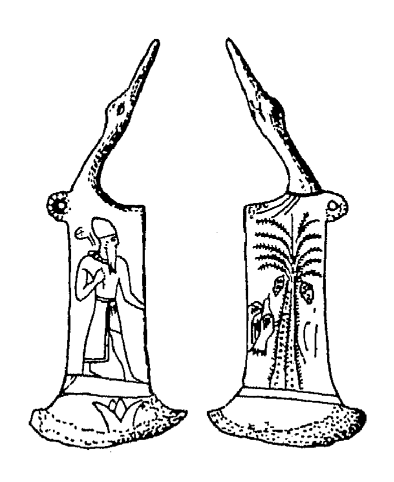
أما نحت العاج الذي كان بارزاً في أعمال الفن الشرقية فله ما يقابله في الغرب وإن لم يكن في نفس الإتقان الفني ولكنها في طرازها أكثر مصرية .

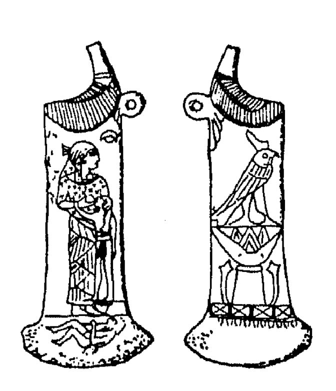
وقد وجدت في إسبانيا (في مقابر بمقاطعة كرمونا Carmona) مصنوعات عاجية كثيرة وخاصة من الأمشاط ، ومع أنها وجدت مع دفنات أيبيرية إلَّا أنها بوضوح فينيقية الطراز ، وقد أصبح هذا الطراز منحطاً في مصانعه الغربية .

---

(١) أنظر ص. ١٧٧، ١٧٨.







شكل (٢٣) عن **Harden, op.cit., p.205**

ويتصل بصناعة العاج عمل الكؤوس والأقراص المزخرفة من بيض النعام،بزخارف ملونة وليست منحوتة ، ومثل هذه الأشياء يبدو أنها لم توجد في الشرق ولكنها تتوافر في مواقع فينيقية غربية كثيرة ، وهي في قرطاجة تنتشر فيما بين القرن السادس والقرن الثالث ق.م.إما في هيئة كؤوس صنعت من بيض كامل أو ناقص ، أو كأقراص خشنة التجهيز عليها رسم وجه ملون ، لا شك في أنها للوقاية ، أما الأكواب فهي أحسن تمثيلاً في أماكن أخرى وخاصة في ايبيزا (في اسبانيا) و (فيلاريكوز Villaricos) (باسبانيا ايضاً) وهي موقع أيبيري بوني خليط، وعدم شيوع هذه الأكواب في صقلية وسردينيا ربما كان عرضياً ، وهي في العادة تحمل زخارف هندسية أو تمثل عليها أشكال مختلفة وفنها سيء على العموم ، مع أننا كنا نتوقع أن يكون أحسن من ذلك لأنها عملت على سطح قشر بيض النعام الجميل الأملس .

الحلى الفينيقية :

من العسير جداً التمييز بين الطرز الشرقية والطرز الغربية في الحلى لأن هذه الأشياء الصغيرة لا بد وأنها كانت البضاعة التي يتجر فيها التجار الرحالة ، ومع أن الأصل المحلي يبدو أحياناً واضحاً في الغرب وخاصة في اسبانيا إلاَّ أننا غالباً لا نستطيع الحكم بأن شيئاً ما صنع في منطقة معينة من البحر المتوسط ، وربما كان الكثير من الحلى الممتازة وخاصة تلك التي صنعت حتى القرن الخامس ق.م. قد صنع في فينيقيا أو قبرص أو مصر ، فتشابهها الدقيق في التشكيل والصناعة يدل على أنها كلها صنعت في أماكن لا يبعد أحدها كثيراً عن الآخر .

ومعظم مصوغات الزينة الفينيقية التي وصلتنا في حالة جيدة كانت من الذهب أما المصوغات الفضية فلم تكن في أغلب الأحيان جيدة الحفظ لأنها لم تحتمل الدفن في التربة الملحية بالمواقع الساحلية ، أما البرونز فيبدو أنه لم يستخدم إلاَّ في صنع الأشياء ذات الأغراض العملية مثل المشابك (التي لم تكن أبداً شائعة في البلاد الفينيقية كما كانت في اليونان وايطاليا) والأساور ،

ومن المحتمل أن الفينيقيين تعلموا صياغة الذهب جزئياً من الميكينيين وجزئياً من المصريين . ولكنهم مهروا في فني الطرق والتحبيب اللذين أصبحا شائعين في اتروريا أيضاً في القرن السابع ق.م. وربما كان ذلك باقتباسه عن فينيقيا ، وقد رأينا كيف أن الطراز الفينيقي في صناعات أخرى مثل العاجيات تتميز بخليط من الاتجاهات المصرية والميكينية والأشورية أو الآسيوية الأخرى ، وأنها كانت أميل لرسوم الحيوان والنبات والأشكال الهندسية منها للشكل الانساني ، وإذا ما مثلوا البشر فإنهم غالباً يكونون أقل نجاحاً في تأليفهم الفردي ، وبعض الحلى التي عثر عليها في قرطاجة وسردينيا وغيرهما يمكن أن تكون من أصل فينيقي ، أو من صنع فينيقيين في الدلتا المصرية نظراً لأن عنصر الصقر المصري كان يتخذ مكاناً بارزاً فيها .

ولا بد أن دلايات في هيئة تماثيل صغيرة من الذهب كانت صناعة شرقية أيضاً (ستة منها جاءت من قبرص وسبعة أخرى موزعة في متاحف نيويورك ودوسلدورف واكسفورد) ، وكلها لها أنشوطتان للتعليق من الخلف ويرى البعض أنها تمثل آلهة الأمومة بينما يرى آخرون أنها تمثل رجالاً من المتعبدين وهي جيدة الصنع من طراز مصري / فينيقي وترجع إلى القرن السابع أو السادس ق.م.

والقطعة القبرصية المغايرة تماماً والتي تبين مميزات فينيقية كثيرة عبارة عن لوح ذهبي مثل عليه رجلان في عجلة حربية ومن فوقهما امرأتان لهما أغطية رأس عالية وقد عثر بقبرص أيضاً على أمثلة كثيرة من طراز بسيط من الحلقان عثر على مثيلاتها في قرطاجة .

والمقابر في قرطاجة و«ثاروس» في سردينيا جاءت منها دلايات دائرية كثيرة جميلة التحبيب وأخرى أكثر بساطة من هذا الطراز . وفي اسبانيا عثر على حلى تتمثل فيها اتجاهات محلية وتأثيرات شرقية فينيقية ومصرية .

والحلى البونية المتأخرة يظهر فيها التأثير اليوناني الى درجة عدم وجود ما يدعو إلى مناقشة الفن الفينيقي فيها ، ورغم ذلك فان هذه الاتجاهات اليونانية غالباً ما تصحب ،

بعلامة (تانيت Tanit) أو الهلال والقرص أو رموز أخرى فينيقية لتمدنا بالدليل ، حتى ولو كان اليونانيون هم الذين صنعوها ، على أنها صنعت في قرطاجة أوبعض مراكز (بونية) أخرى .

وترتبط الأختام والجعارين (التي تشكل مظهراً ثابتاً في أثاث المقبرة الفينيقية) بالحلى ، وفي بداية عصر الحديد كانت الأختام الأسطوانية وأختام الطبع المخروطية هما النوعية الأساسية في أختام الشرق الأدنى ولكل منهما تاريخ طويل،وحتى في بلاد النهرين أخذ الختم المخروطي يحل تدريجياً محل الختم الاسطواني لدى الجمهور ولكن هذا الأخير لم يمت بل ظل في الواقع مستخدماً في بلاد النهرين حتى العصر الفارسي ، ولكن فينيقيا ببداية الألف الأول ق . م . فقد الختم الاسطواني شعبيته وأصبح الجعران والأشكال القريبة منه وشبه المخروطية هو الطراز الشائع والسائد في الأختام ، ولكن يبدو أن الأخيرة لم تنتشر غرباً وهكذا نجد أن أشكال الجعارين والأشكال القريبة منها هي التي نجدها في كل المواقع الفينيقية الغربية في القرن السابع ق . م .- وفي بادىء الأمر كانت مصرية الطراز ولو أنها لم تكن بالضرورة مصنوعة في مصر ، واستمر هذا الطراز إلى القرن الخامس ق . م . وبعد ذلك أصبح التأثير اليوناني سائداً وخضعت رسوم الجعران لهذا التقليد الجديد. وقد وجدت مع ذلك موضوعات فينيقية خالصة كما في مثالين من سردينيا أحدهما يبين ملكاً يهاجم أسداً والآخر يبين الإله (بعل) جالساً على عرش بجوار مذبح للحرق.

الخلاصة :

إن طبيعة التراث الفني الفينيقي باتجاهاته المستعارة وظرزه الخليطة تجعل تحليله صعباً للغاية .

ففي المشرق يتوقف الفن الفينيقي ويبدأ الفن السوري أو القبرصي ، والأشياء التي يعثر عليها في أماكن بعيدة عن مواطنها الأصلية في اليونان مثلاً أو ايطاليا يصعب الجزم بأيها صنعة الفينيقيون أنفسهم وأيها صنعة الآخرون لأجلهم وخاصة اليونانيون .

ومع ذلك فإن الفنان الفينيقي لا تعوزه المهارة في بعض الأشياء ، فالعاجيات والأقداح المعدنية المصورة التي من الشرق تظهر مهارته في التأليف وإحساسه العظيم بالأسلوب الفني ، كذلك الحلى من قرطاجة وثاروس (Tharrus) في سردينيا ومواقع أخرى تبين لنا مقدرته في صناعتها واستطاعته ملاءمة الشيء الذي يصنعه للغرض الذي يعمله من أجله .

وفي النحت وصناعة التماثيل الصغيرة سواء في الحجر أو المعدن أو الصلصال لم يكن الفنان الفينيقي بالغ المهارة تقريباً ، ومعظم الأعمال الجيدة التي خلفها ، مثل التوابيت المنحوتة ، لا يحتمل أنها من صنع الفينيقيين لأنها تنتمي إلى فترة متأخرة حينما وضع الفنانون اليونانيون أقدامهم على كل من الساحل الفينيقي وقرطاجة ، أما الأشياء الأقل شأناً مثل التماثيل المعدنية الصغيرة والكمية الهائلة من تماثيل الصلصال الصغيرة فهي رخيصة وكانت تنتج على نطاق واسع من أجل استخدامها الديني وهي لا ترقى إلى مرتبة الفن.

وهكذا فإن الفن الفينيقي ليس مزيجاً من الطرز فحسب بل إنه كذلك مزيج من المهارات ، وأحسنه جيد جداً ، وأسوأه ليس جديراً بأن يسمى فناً ، والواقع أننا لكي نكون صورة واضحة ينبغي أن نذكر أن الفينيقي ، ولو أنه كان ذا ميل فني ، إلا أنه كان أقل اهتماماً بالفن عن إهتمامه به من أجل الثمن الذي يستطيع الحصول عليه من ورائه في الخارج .

سابعاً: نشأة الكتابة واختراع الحروف الهجائية

حاول الإنسان أن يسجل أفكاره منذ أقدم العصور ومع ذلك لم يتمكن من تسجيل كلامه إلا بعد كثير من التجارب والمحاولات التي استغرقت آلاف السنين. ويجب أن نستبين فرقاً كبيراً بين تسجيل الأفكار وتسجيل الكلام، ذلك أن الإنسان البدائي حاول أن يسجل أفكاره ومعانيه عن طريق رسم الصور التي تمثل المعنى الذي يريده. وقد ابتدأت جميع الشعوب باستخدام طريقة رسم الصور من أجل الكتابة، وكانت الصور في هذه اللوحات الأولى مستقلة تماماً عن الكلام لأن الرسالة المدونة بالصور لم تكن تمثل تماماً منطوق الكلام الذي يصف المعنى المقصود، فكان لكل رسالة تصويرية معنى واحد ويمكن أن تفسر بواسطة القارىء بطريقة واحدة فقط، ولكن يمكن قراءتها، أي أن يعبر عنها بألفاظ في طرق مختلفة متعددة وكذلك بلغات مختلفة.

من هذه المحاولات الأولى أخذ الإنسان يطور فنه وطرقه في الكتابة حتى استطاع أن يصل إلى الطريقة الحديثة في الكتابة، وهي التي يمكن أن تعرف بأنها «لغة مكتوبة» وليست معاني مصورة. فأي رسالة في طريقتنا الحديثة للكتابة تقرأ وتنطق بنفس الألفاظ والكلمات التي نطقها أو قالها صاحب الرسالة وفي لغة معينة طبعاً – وقد أمكن الوصول إلى هذه المرحلة الحديثة عن طريق جعل الكتابة تسجل أصوات اللغة وليس معانيها وتـم ذلك عن طريق اختراع الحروف الهجائية التي تمثل جميع أصوات اللغة، وقد لعب الفينيقيون دوراً هاماً في سبيل الوصول بالحروف الهجائية إلى درجة متقدمة جداً، وأصبحت من أعظم ما ينسب إليهم في تاريخ الحضارة الإنسانية.

وتعتبر الكتابة الفينيقية أول كتابة استخدم الانسان فيها الحروف الهجائية

فقط ، وعن الفينيقيين أخذ الأغريق القدماء الحروف الهجائية وأدخلوا عليها بعض التعديل - وبعد ذلك أخذها اللاتين وسائر الشعوب الأوروبية ، كما أن الشعوب السامية المجاورة أخذت الحروف الفينيقية وطورتها مثل العبرانية والآرامية والعربية بعد ذلك .

ولا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن أن المحاولة الفينيقية كانت المحاولة الوحيدة للوصول إلى الكتابة بالحروف الهجائية ، أو أنهم توصلوا إليها كاملة دفعة واحدة فالنقوش الفينيقية التي وصلتنا لا تفيد كثيراً في دراسة تطور هذه الكتابة لأن أقدم نقش فينيقي أبجدي وصل إلينا بهذه الكتابة، وقد بلغت حد الكمال ، هو النقش الموجود على تابوت احيرام ملك جبيل ، الذي يرجح أكثر العلماء الآن أنه يرجع إلى أوائل القرن العاشر قبل الميلاد ، ولا شك في أن كثيراً من الكتابات الفينيقية سبقته .

وقد أثبتت جهود الأثريين والعلماء أخيراً أن العناصر السامية الغربية القاطنة في غرب آسيا قد شغلت كثيراً بأمر تيسير الكتابة ، ولعل اتصالاتهم العديدة واشتغالهم بالتجارة والنقل التجاري بين عدد من الدول القديمة ، وضرورة إلمامهم بعدد من لغات الشعوب التي كانوا يتصلون بها هو الذي ساعدهم وحفزهم على السعي للوصول إلى طريقة سريعة وسهلة للكتابة ، تريحهم من عناء استخدام الكتابات المعقدة التصويرية أو المقطعية حسب الطريقة المصرية أو البابلية ، ويؤكد صحة هذا القول عدد من النقوش الكتابية التي عثر عليها في أماكن متعددة في المنطقة الممتدة بين نهر النيل وبلاد النهرين ، أي شبه جزيرة سيناء وفلسطين والمدن الفينيقية والأراضي الكنعانية في سوريا .

ولعل أهم تلك النقوش جميعاً هي التي عثر عليها في رأس شمرة أو أوجاريت (كما كانت تسمى قديماً والتي تقع على الساحل السوري قرب اللاذقية) وهي عبارة عن بلدة صغيرة لها ميناء قريب منها ، ولكن آثارها التي كشف عنها في الفترة بين الحربين العالميتين تدل على قدمها في التاريخ وأنها كانت مركز نشاط للتجارة والصناعة منذ بداية العصر التاريخي بل وربما قبل

ذلك أيضاً . ويتضح من آثارها أنها في أثناء الألف الثالث قبل الميلاد كانت تحت تأثير سومري وبابلي كبير ، ثم أصبحت منطقة للنفوذ المصري في أثناء الجزء الأكبر من الألف الثاني ق . م . ، ثم تقلص عنها النفوذ المصري في نهاية عصر البرونز (أي في الجزء الأخير من الألف الثاني ق . م .) ، ويبدو أنها تعرضت للتدمير نتيجة زلزال في هذا الوقت وبدأت تدخل مرحلة من الضعف والتخلف .

وأهم ما أسفرت عنه التنقيبات بها العثور على مكتبة ضخمة تشتمل على عدد كبير من الألواح من الطمي المحروق التي ترجع إلى القرن الرابع عشر ق.م. وهي تدل على تعقد المجتمع الأوجاريتي إذ أنها حوت كتابات بسبع لغات مختلفة : سومرية وبابلية وأشورية ومصرية وحيثية وأوجاريتية ولغة سابعة لم يمكن قراءتها . ومن الطريف أن نذكر أنه عثر بين هذه اللوحات على عدد من القواميس للترجمة من السومرية والبابلية إلى الأوجاريتية ، مما يدل على آثار مدرسة لتعليم الكتابة والحساب وربما اللغات الأجنبية أيضاً .

وقد لاحظ الأثريون والعلماء الذين قاموا بحفائر رأس شمرة ودراسة نقوشها أن العدد الأكبر من هذه النصوص مكتوب بالكتابة المسمارية . ولكن حينما حاولوا قراءتها لم يجدوا أنها تتضمن لغة سومرية أو بابلية أو أشورية أو أي لغة أخرى من اللغات المعروفة التي كانت تستخدم الكتابة المسمارية فأدرك العلماء حينئذ أنهم أمام لغة جديدة ، ومما يسر أمر حل رموزها أمران : الأمر الأول هو أن كتاب هذه النقوش اعتادوا الفصل بين كل كلمة وأخرى بشرطة رأسية والأمر الثاني أنه حين جمع العلماء الرموز المسمارية المستخدمة في هذه الكتابة تبين أنها محددة العدد إذ أن عددها ٢٩ رمزاً وأنها مستخدمة بطريقة تختلف تماماً عما ألفه العلماء في الكتابات المسمارية الأخرى ، وعند ذلك أدرك هؤلاء العلماء أنهم أمام كتابة بالحروف الهجائية – ونظراً لأن أوجاريت تقع في منطقة تنتشر فيها العناصر السامية وخاصة العنصر الكنعاني، استنتجوا أن هذه الكتابة تسجل لغة سامية – وبعد محاولات سريعة ثبتت صحة ما ذهب إليه هؤلاء العلماء وأن نقوش اوجاريت تتضمن لغة سامية وثيقة الصلة باللغة الكنعانية وتعتبر لهجة من لهجاتها ، وبذلك تكون هذه النقوش قد أمدتنا بأقدم

كتابة كاملة بالحروف الهجائية . ولكن نظراً لأن الكتابة المسمارية التي استخدمت في الكتابة الأوجاريتية ، لم تكن لتصلح إلا للنقش على الطمي (الذي غالباً ما كان يحرق بعد الكتابة عليه) أو الحجر لذلك لم ينتشر استخدامها في بيئات أخرى يغلب عليها الطابع التجاري لأنها كانت تفضل الكتابة على الورق أو الجلد ، وإن كان قد عثر على نقشين في فلسطين يشتملان على كتابة شبيهة بالأوجاريتية .

عدا نصوص أوجاريت عثر أيضاً على نقوش أخرى يعتقد بعض العلماء أنها تمثل المرحلة الانتقالية في تطور الكتابة قبل الوصول إلى الحروف الأبجدية الفينيقية التي وجدناها في نقش احيرام – ومن تلك النقوش التي تمثل المرحلة الإنتقالية في تطور الكتابة إلى الأبجدية الصرفة تلك الكتابات التي عثر عليها في منطقة تعرف باسم «سرابة الخادم» في وسط شبه جزيرة سيناء حيث توجد مناجم الفيروز والنحاس وتشتمل أكثرها على نقوش مصرية بالكتابة الهيروغليفية مكتوبة على لوحات جنائزية أو تماثيل نسائية صغيرة مقدمة لربة المعبد في هذا المكان وهي الإلهة المصرية «هاتور» ، ولكن بالإضافة إلى ذلك وجد أيضاً نحواً من اثنتي عشرة نقشاً مكتوبة بكتابة مختلفة وترجع كلها كما يرجح الأثريون إلى الفترة الواقعة بين ١٦٠٠ و١٥٠٠ قبل الميلاد . وقد أثارت هذه اللوحات القليلة ذات الكتابة الجديدة اهتمام العلماء نظراً لأن الطابع الغالب عليها هو الكتابة بالصور المتطورة إلى درجة بعيدة فهي تحمل شبهاً مع الكتابة المصرية من ناحية والكتابة الفينيقية من ناحية أخرى – وقد استطاع العالم الأثري ألن‌جاردنر(١) أن يضع الأسس الأولى لحل رموز هذه الكتابة الجديدة ، ولو أن جهود العلماء لم تنته بعد من فك جميع رموزها ، ولكن اتضح أن اللغة المكتوبة بها لغة سامية ، وهذا طبيعي لأن المصريين القدماء كانوا يستخدمون عمالاً من البدو الساميين القريبين من منطقة التعدين .

ولم يقتصر الأمر على نصوص «سرابة الخادم» في سيناء وإنما أمكن العثور على عدد من الكتابات في فلسطين مثل نقوش مجدو ولخش وشكيم وبيت شمش ، كلها تحمل كتابات بحروف هجائية تمثل حلقة وصل أخرى

---

(١) السير ألن جاردنر عالم انجليزي تخصص في اللغة المصرية القديمة.

أكثر تطوراً بين الكتابة السينائية والحروف الفينيقية ، ومن ذلك يبدو أن التطور قد سار شمالاً، وكلما تقدم شمالاً ازداد إنتشاراً في الفترة ما بين ١٦٠٠ ، ١٢٠٠ ق . م . أو بعد ذلك حتى استكملت الكتابة الفينيقية تطورها الكامل وخير مثال يذكر في هذا المجال هو نقش من « تل الدوير » يمكن أن نتتبع فيه التحول التدريجي من الحروف المكتوبة بالصور إلى الحروف الفينيقية غير التصويرية حتى أصبحت الكتابة أكثر شبهاً بالكتابة الفينيقية كما نعرفها في نقش احيرام ، وبالرغم من أن كثيراً من هذه النقوش لم يمكن قراءتها قراءة سليمة تماماً إلا أنها في مجموعها تثبت بما لا يدع مجالاً للشك صدق نظرية القائلين بتطور الكتابة من الكتابة السينائية إلى الحروف الفينيقية .

هذه الكتابة الفينيقية كما يمثلها أقدم نماذجها وهو نقش احيرام من جبيل ، تتكون من اثنين وعشرين حرفاً تخلصت تماماً في شكلها من أي رسم أو صور للأشياء ، وأصبحت خطوطاً مجردة تقريباً . وما من شك في أن هذه كانت أنجح جميع محاولات العناصر السامية التي تمت خلال الألف الثاني ق . م . للوصول الى طريقة جديدة سهلة الكتابة - ولقد ظهر تفوقها بسرعة سواء من ناحية البناء الصوتي أو من ناحية الشكل ، واشتق منها عدد من الشعوب السامية الأخرى كتاباتهم مثل أهل سائر المدن الفينيقية وفلسطين والآراميين، والكتابة الفينيقية تجري من اليمين الى اليسار وكذلك سائر الكتابات السامية .

ومع أن هنالك علاقة من حيث الشكل بين بعض الحروف الفينيقية وبين الكتابات السامية السابقة والكتابة المصرية كما هو الحال بالنسبة للحروف الدالة على الألف والباء والميم والتاء ، فإن هناك حروفاً يصعب فيها اثبات هذه العلاقة - ولعل سبب ذلك يرجع إلى أن بعض الحروف تطورت في عملية النقل أو تغيرت لتصبح أيسر وأنسب للكتابة في بيئة جديدة . أو ربما وجدت بعض الحروف غير مناسبة لأمر ما فاستعيض عنها بشكل آخر جديد ، ولهذا يعتبر شكل الحروف مسألة ثانوية في إثبات أن الكتابة الفينيقية متطورة من الكتابات السامية الأولى التي تربطها بالتالي بالكتابة المصرية .

أما الدليل القوي القاطع على وجود هذه الرابطة وهذا التطور فهو التكوين

الصوتي للأبجدية الفينيقية . فهناك ظاهرة واحدة مشتركة بين هذه الكتابات جميعاً من حيث بنائها الصوتي ، إذ أنها جميعاً تتكون من عدد محدود من العلامات أو الرموز ، يتراوح بين ٢٢ - ٣٠ رمزاً ، وكل واحد منها يعبر عن صوت ساكن معين ، دون أن توجد فيها رموز دالة على الحروف المتحركة .

فنحن أمام طريقة للكتابة بحروف هجائية ساكنة . وإذا ما رجعنا إلى نظم الكتابة التي اتصل بها الفينيقيون مع الشعوب السامية الغربية عموماً وهي المسمارية والخطية الميكينية والمصرية بكتاباتها الثلاث ، لوجدنا أن الكتابة المصرية هي التي تقدم لنا نفس هذه الطريقة في الكتابة أي بطريق رموز لأصوات ساكنة فقط . وهي الرموز الأربعة والعشرين التي كل منها يدل أصلاً على مقطع ذي ساكن واحد ثم استخدمت هذه الرموز للتعبير عن الأصوات الساكنة فقط - هذا الاتفاق التام في التعبير بالكتابة عن الأصوات الساكنة فقط هو الذي أخذته الشعوب السامية الغربية ووصل إلى أرقى مراحل نضجه في الحروف الأبجدية الفينيقية ، ولا ينبغي أن يرجع السبب في أن الساميين أخذوا بالطريقة المصرية في الكتابة دون غيرها من الطرق إلى وجود علاقات تجارية وحضارية وثيقة بينهم وبين مصر فحسب ، ولكن لعلهم وجدوا أن الطريقة المصرية للكتابة كانت أنسب للتعبير عن اللغات السامية ، ويجب أن نذكر أن اللغة المصرية تنتمي إلى مجموعة اللغات الحامية التي تعتبر بصفة عامة فرعاً من مجموعة اللغات السامية الأولى .

مراجع مختارة

أولاً - باللغة العربية :-

(١) ابراهيم رزقانة وآخرون «حضارة مصر والشرق القديم» (الألف كتاب بالقاهرة).

(٢) أولبرايت، وليم، «آثار فلسطين» مترجم الى العربية (القاهرة ١٩٧١).

(٣) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، (بغداد ١٩٥٥/٥٦).

(٤) فيليب حتي، «تاريخ سورية ولبنان وفلسطين» مترجم (بيروت ١٩٥٨).

(٥) ج. كونتنو، «الحضارة الفينيقية، مترجم (القاهرة ١٩٦٥).

(٦) محمد أبو المحاسن عصفور :-

(أ) الشرق الأدنى قبل عصوره التاريخية (اسكندرية ١٩٦٢).

(ب) علاقات مصر بالشرق الأدنى القديم (اسكندرية ١٩٦٢).

(ج) معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم (بيروت ١٩٧٩).

(د) معالم حضارات الشرق الأدنى القديم (بيروت ١٩٧٩).

(٧) محمد عبدالقادر محمد «الساميون في العصور القديمة» (القاهرة ١٩٦٨)

(٨) س. . موسكاتي «الحضارات السامية القديمة» مترجم (القاهرة ١٩٦٥).

(٩) نجيب ميخائيل «مصر والشرق الأدنى القديم» الجزء الثالث «سورية».

ثانياً - باللغة الأجنبية :-

(1) Albright, W.F., «The Archaeology of Palestine» (London 1963).

(2) Barmaki, D.,«Phonenicia and The Phoenicians» (Beirut 1961).

(3) Contenau, «La civilisation Phoenicienne» (Paris 1949).

(4) Hall, H.R., «The Ancient History of the Near East» (11th ed. London 1963).

(5) Harden, D.B., «The Phoenicians», (London 1962).

(6) Montet, P., «Byblos et l'Egypte» (Paris 1928).

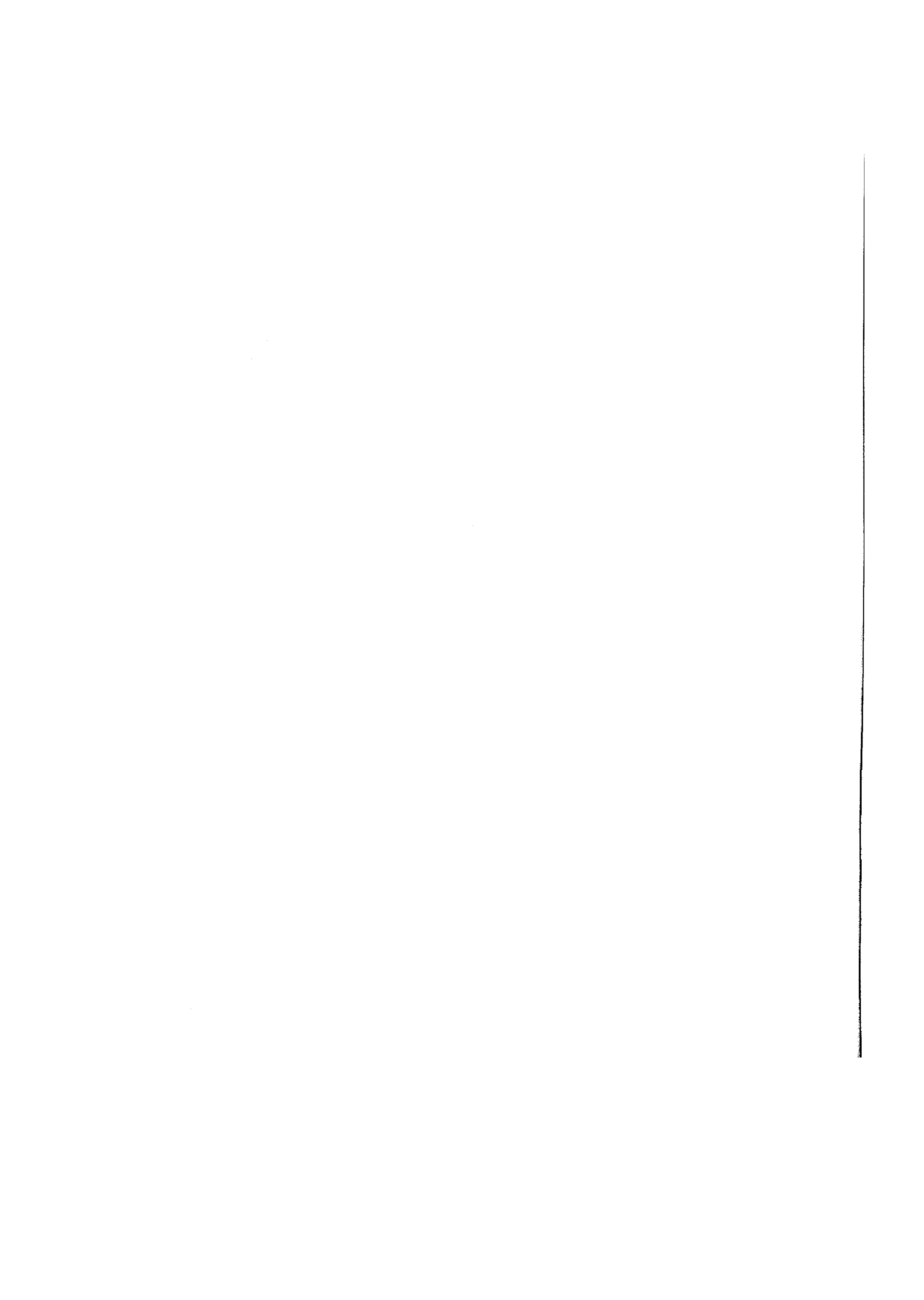
(7) Moscati, S.,«The World of The Phoenicians» Translated by Hamilton (London 1968).

(8) Pirot in Dictionnaire de la Bible (Tome Septième, Supplement), Paris 1968.

(9) Pritchard, J.B., «Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament» (Princetion 1950).

(10) Scharff, A., and Moortgaat, Aegypten and Vorderasien in Altertum» Munich 1950.

فهرس الأعلام



44